المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

241

فى انتظار البرابرة

تأليف
ج. م. كوتزى

ترجمة
ابتسام عبد الله

المشروع القومى للترجمة

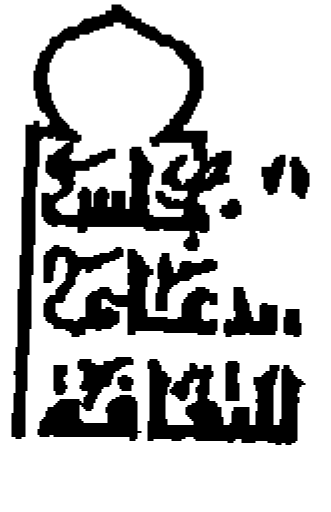
فى انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزى

ترجمة

ابتسام عبد الله



٢٠٠٠

هذه ترجمة لرواية:

Waiting for the Barbarians
By
J.M.Coetzee

١

لم أر قط شيئاً يماثله: قرصان صغيران من الزجاج معلقان أمـــام عينيه بعروتين من سلك. أهو أعمى ؟ بمقدورى أن أفهم الأمـــر إن كـــان يريد إخفاء عماه. لكنه ليس أعمى. لقرصان أسودان، يبدوان مستديرين من الخارج، لكنه قادر على لرؤية مـــن خلالهمـــا. يقول لى إنهما اختراع حديث. ويقول: انهما يحميان عينى المرء من توهج أشعة الشمس، ستجدهما مفيدين. هـــنا، فى هـــذه الصـــحراء. إنهما يحميان المرء من التحديق باستمراره وسبصاب المرء بحالات صداع أقل، انظر . يتلمس زوبا عنيه برفق، لا تجاعيد . يعيد العدستين إلى مكانهما. ما يقولـــــه صحيح، وهو يمتلك بشرة رجل أقل سنا. فى الوطن، يرتديهما كل واحد .

نجـــلس فى أفضل غرفة فى الفندق، بيننا دورق وطاس من المكســـر ت. لا نـــناقش ســـبب وجوده هنا. إنه هنا بسبب قوة الطـــوارئ وفى ذلك الكفاية. بدلاً عن ذلك نتحدث عن الصيد. يحكى لى عن آخر رحلة صيد كبيرة ذهب إليها، عندما تم ذبح آلاف الغـــزلان والخنازير والدببة، الكثير جداً منها، بحيث إن جبلا من اجساد الذبائح تكون وتوجب تركها لتتعفن كان أمراً مؤســـفا . أحكى له عن القطعان لكبيرة للأوز والبط التى تهبط

نحـو الـبحيرة، سـنوياً، فى هجرتها، وعن الوسائل المحلية لاصـطيادها. أقـترح أن آخـذه خارجاً للصيد ليلا فى قارب محلى. أقول: تلك تجربة لا يمكن أن تفوتك. يحمل الصيادون مشـاعل متوهجة ويضربون على الطبول، فوق الماء، لتوجيه الأسماك نحو الشباك التى نصبوها . يومى برأسه. يحدثنى عن زيـارة قـام بهـا إلى مكان آخر من الحدود حيث يأكل الناس ثعابين معينة كطعام مترف، وعن وعل قام باصطياده أيضاً.

يختار طريقه بحذر بين قطع الأثاث الغريبة عنه، ولكنه لا يـنزع عدستيه السوداوين. يأوى إلى فراشه مبكراً. إنه استقر هنا فى الفندق، لأنه المكان الذى يقدم أفضل الخدمات فى البلدة. لقد أعطيت انطباعاً للعاملين فى الفندق بأنه ضيف مهم. العميد جـول مـن المكتب الثالث ، هكذا قلت لهم، وأضفت، المكتب الثالث هو أهم الفصائل فى الحرس الوطنى، فى هذه الأيام. هذا ما نسمعه، على أى حال، فى الأقاويل التى تردنا، متأخرة، من العاصـمة. يـومئ مـالك الفندق برأسه، وتخفض الخادمات رؤوسهن. علينا أن نترك انطباعاً جيداً لديه .

أحمل فراشى خارجاً، على المتاريس، حيث نسيم الليل يمنح بعـض الـراحة مـن الحر. على الأسطح المنبسطة للمدينة، أستطيع أن أميز، على ضوء القمر، أشكال نائمين آخرين، ومن تحـت أشـجار الجـوز، على الساحة، لا أزال أسمع دمدمات مناقشـة مـا. يـتوهج غليون فى العتمة مثل براعة، يتضاءل

الوهج، ثم يتقد ثانية. الصيف يدور نحو نهايته. أشجار البساتين تتأوه تحت ثقالها. لم أشاهد العاصمة منذ كنت شاباً.

أستيقظ قبل الفجر. أجتاز، على رؤوس أصابع قدمي، الجنود النائمين، الذين يتحركون قليلاً ويتنهدون، يحلمون بأمهات وحبيبات، أنزل لدرجات. آلاف لنجوم في السماء تتطلع إلينا من فوق. حقاً، نحن هنا على سقف العالم. الاستيقاظ في الليل، في مكان مفتوح، يبهر النفس.

الحارس عند البوابة، يجلس متقاطع الساقين، غارقاً في النوم، يحتضن بندقيته. مضجع لبواب مغلق، عربته تقف في الخارج. أمرّ.

* * *

لا توجد لدينا تسهيلات للسجناء، أفسر الأمر وأقول: لا توجد جرائم كبيرة هنا، والعقوبة، عادة، غرامة أو عمل إلزامي. هذا الكوخ، هو ببساطة، غرفة ملحقة بمخزن الحبوب، كما يمكنك ملاحظة الأمر. الهواء ثقيل في الداخل وذو رائحة كريهة. لا نوافذ هنا. السجينان يستلقيان مفيدين على الأرض. الرائحة تفوح منهما. رائحة بول قديم. أنادي على الحارس للدخول: دع هذين الرجلين ينظفان نفسيهما، وأسرع رجاءً.

أتقدم ضيفي إلى داخل مخزن الحبوب البارد المظلم. نأمل

بثلاثة آلاف (بوشل)(*) هذا لعام، من الأرض المشتركة. نحن نـــزرع مرة واحدة فقط. لجو كان رحيماً جداً بنا . نتحدث عن لجـــرذن ووســـائل الســـيطرة على أعدادها. عندما نعود إلى لكوخ، نجد ر ئحة رماد رطب تفوح منه، و لسجينين مستعدين، راكعيـــن في زاوية. أحدهما رجل كبير السن، والآخر صبي. أقـــول: لقد سجنا منذ ٲيام قليلة. كانت هناك غارة على مسافة عشـــرين ميـــلا من هنا. ذلك أمر غير طبيعي. إنهم، اعتيادياً، يحرصـــون على البقاء بعيداً عن الحصن. اعتقل هذان الاثنان بعدئـــذ. يقولان ألاّ علاقة لهما بالغارة. لا أعرف. ربما يقولان الحقيقـــة. إن كنت تريد التحدث معهما، سأقدم، بطبيعة الحال، مساعدتي فيما يخص اللغة .

وجـــه الصبي منتفخ وبه كدمات، عين واحدة منغلقة تورماً. أجلس القرفصاء أمامه و ُربت على خده. أنصت يا ولد ، أقول ذلك باللهجة المحلية للحدود، وأضيف: نريد التحدث إليك .

لا تصدر منه استجابة ما.

يقول الحارس: إنه يتظاهر ، إنه يفهم .
أسأل، من ضربه؟

يقول: لم أكن أنا. كان هكذا عند مجيئه .

(*) بوشل Bushel : مكيال يعادل جالون.

أسأل الصبي: من ضربك؟

إنه غير مصغ إليّ. يتطلع من فوق كتفي، ليس إلى الحارس ولكن إلى لعميد جول بجو ره.

اســتدير نحو جول وأشير: ربما لم ير شيئا مثله من قبل. أعــني العويــنات. لابــد أنه يعتقد بأنك أعمى. ولكن جول لا يبادلني الابتسام. يبدو ن المرء أمام لسجناء يحافظ على مظهر معين.

أجلس لقرفصاء ًمام الرجل لعجوز. أيها الأب، أصغ إليّ. لقد جئنا بك إلى هنا لأننا قبضنا عليك بعد غارة على المو شي. ًنت تعلم ًنها مسألة مهمة. تعرف أنك قد تعاقب عليها .

يخــرج لســانه لــترطيب شفتيه. وجهه كئيب ومتعب. أيها الأب. هــل تــرى هــذا الســيد؟ هــذا السيد يزورنا، قادماً من العاصمة. إنه يزور كافة الحصون على امتداد الحدود. عمله هو التعرف على الحقيقة. هذا هو كل ما يفعله. يتعرف على الحقيقة. إن لــم تــتحدث معي، فسيكون عليك التحدث معه. هل تفهم؟ . صــاحب الســعادة .. يتحشرج صوته، ينظف بلعومه صاحب الســعادة نحــن لا نعــرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعنا الجنود وربطونــا بإحكام. من أجل لا شيء. كنا على الطريق، قادمين إلى هــنا لــرؤية لطبيب. هذ ابن شقيقتي. لديه جرح متقرح لا يتحسن. نحن لسنا بسُرّاق. أظهر قرحتك لصاحب السعادة .

بخفــة، وبيــد واحدة وبأسنانه يبدأ الصبى بفك الخرق لتى تضــمد ســاعده. اللفات لأخيرة منها ملوثة بالدم و لقيح، لكنه يرفع حافاتها ليرينى الحافة الحمراء لمحتقنة للورم.

يقــول الــرجل العجوز، كما ترى، لا شىء يشفيها. كنت أجلبه إلى لطبيب، عندما وقفنا الجنود. هذا كل ما فى لأمر .

أعــود أدراجى مع ضيفى عبر الساحة. تمر بنا ثلاث نسوة قادمــات من خزان لرى يحملن سلال الغسيل على رؤوسهن. يتطــلعن إليــنا بفضول. محتفظات بأعناقهن متصلبة. لشمس تجلدنا.

أقــول، منذ أمد بعيد، لم نحتجز غير هذين لسجينين. نها المصــادفة. فى لحالات لاعتيادية، لا يكون لدينا أىّ بربرى على الإطلاق، حتى نريك إياه. ما يسمى بلصوص قطع الطرق لا يعنى الكثير. إنهم يسرقون بعض الخراف أو يقطعون وثاق دابــة مــن قطار. نحن نشن هجوماً مقابلاً عليهم أحياناً. إنهم أساســاً، رجــال قــبائل معوزين، يمتلكون قطعانا محدودة من المواشى، يعيشون على ضفاف لنهر. إنها تصبح وسيلة للحياة. يقول الرجل العجوز إنهما كانا فى طريقهما لرؤية طبيب. ربما هى لحقيقة. لم يكن أحد سيصطحب معه رجلاً عجوزاً وصبياً مريضاً فى فريق هجوم.

أزداد وعيا بأننى سأصبح مدافعا عنهما.

بالـتأكيد، لا يمكــن للمرء أن يكون جازماً. ولكن حتى إن كانا كاذبين، كيف يمكنهما أن بكونا ذوا فائدة بالنسبة لك. أناس بسطاء مثلهما ؟

أُحــاول أن أُخفــف انفعالى تجاه صمته لمحير الذى يخفى شــيئاً، وزاء لغمــوض المســرحى الردىء لحاجبيه الداكنين اللذين يخفيان عينين سليمتين. يسير ويداه مشبوكتان أمامه، مثل امرأة.

يقــول، على الرغم من ذلك، يتوجب على استجوابهما، هذا المســاء، إن كــان الوقــت ملائمــاً. سآخذ معى مساعدى، كما سأحتاج إلى شخص ما يساعدنى فى اللغة. ربما الحارس. هل يتحدث تلك اللغة؟

بإمكاننا جميعاً لتفاهم. هل تفضل عدم وجودى هناك؟

ســتجد لأمــر مــرهقاً. لقــد وضعنا الإجراءات وسنقوم بتنفيذها .

* * *

من الصرخ الذى ادعى الناس بعدئذ أنهم قد سمعوه آتياً من مخــزن الحــبوب، لــم أسمع أنا شيئاً. فى كل لحظة من ذلك المســاء، وأنا ماض فى عملى، أُدرك ما كان ممكناً أن يجرى. وســمعى يتوفق مطردا مع ذروة لألم لبشرى. ولكن مخزن

الحبوب، مبنى ضخم، ذو أبواب ثقيلة ونوافذ صغيرة. إنه يقع خلف المسلخ والطاحونة، فى جهة الجنوب. وفضلا عن ذلك، فإن ما كان يوما مخفرا أماميا ثم حصنا على الحدود، قد نما وتطور إلى مستوطنة زراعية، بلدة يبلغ عدد نفوسها ثلاثة آلاف نسمة، حيث صوت الحياة، الصوت الذى يصدر عن كل هذه النفوس، فى أمسية صيف ساخنة، لا يهدأ، إذ لا بد من وجود أحد ما يبكى فى مكان ما. (بدرجة معينة، أبدأ فى الترافع عن قضيتى الخاصة).

عندما أرى العميد جول ثانية، لمّا يكون متمتعاً براحته، أتطرق فى الحديث إلى التعذيب. أسأل، ماذا لو كان سجينك يقول الحقيقة، ومع ذلك لا يجد من يصدقه. ألا يعد الأمر فظيعا؟ تخيل: أن تستعد للاستسلام، تستسلم، إن لا تملك شيئا آخر تستسلم له، إن تحطم، مع ذلك، يضغط عليك للاستسلام أكثر! وأى مسؤولية لمن يقوم بالاستجواب! كيف بإمكانك أن تعرف أبداً إن كان الرجل قد أخبرك الحقيقة؟

يقول جول، هناك نغمة معينة فى الصوت. نغمة معينة تدخل إلى صوت رجل ما يقول الحقيقة. التدرب والخبرة تعلمنا تمييز تلك النغمة .

نغمة الحقيقة! هل بإمكانك التقاط هذه النغمة فى الحديث اليومى؟ هل أنت قادر على سماع ما إذا كنت أقول الحقيقة؟

هـذه الـلحظة هى الأكثر ألفة، التى جمعت بيننا حتى هذا الوقـت، والـتى صدها بإشارة طفيفة من يده. لا، أنت تسىء فهمى. إننى أتحدث الآن فقط عن حالة معينة. أتحدث عن حالة أسـبر فيهـا بحثاً عن الحقيقة، وعلى فيها أن أمارس الضغط للعـثور عـليها. أتـلقى أولاً أكاذيب، هذا يحدث، كما ترى – أكـاذيب فى البداية، ثم ضغط، ثم المزيد من لأكاذيب، ومزيد من الضغط، ثم الانهيار، ومزيد من الضغط، ثم الحقيقة. هكذا يمكنك الحصول على الحقيقة.

الألم هو الحقيقة، وكل ما سواه يخضع للشك. هذا ما أحمله مـعى مـن حديـثى مع العميد جول. والذى بأظافر أصابعه المسـتدقة، وأوشـحته البنفسجية الزاهية، وقدميه الهزيلتين فى أحذيـة ناعمـة، أبقى أنا متخيلا إياه، وهو فى العاصمة، لتى يـتوق إليها بشدة، مدمدما لأصدقائه فى أروقة المسرح ما بين استراحة الفصول.

(مـن جهة أخرى، من أكون أنا كى أؤكد على بعدى عنه؟ أحتسى أنا الشراب معه، أتناول الطعام معه، أريه ما هو جدير بالمشاهدة، أقدم له كل مساعدة ممكنة كما يتطلبه أمر تفويضه، وأكـثر. لإمبراطورية لا تطلب من موظفيها أن يحب أحدهم الآخر، بل أن يؤدوا واجباتهم فحسب).

* * *

التقرير الذى يقدمه لى ضمن وظيفتى كقاض، مختصر.

فى خـــلال ســـير التحقيق بدت تناقضات واضحة فى إفادة الســـجين. المواجهة مع هذه التناقضات أدت إلى تهيج السجين ومهاجمته الموظف المكلف بالتحقيق. حدث شغب، وفى خلاله سقط المتهم بقوة نحو الجدار. محاولات إنعاشه باءت بالفشل .

من أجل الوصول إلى الكمال كما هو مطلوب من قبل رسالة الفانون، دعوت الحارس وطلبت منه تقديم إفادة. كان يسرد وأنا أســجل كلماته: أصبح السجين خارج نطاق السيطرة، وهاجم الموظف الزائر. استدعيت إلى الداخل للمساعدة فى تهدئته. فى الوقـــت الـــذى دخلت فيه المكان، كان الشجار قد انتهى. كان الســـجين فـــاقد الوعى والدم ينزف من أنفه. أشير إلى المكان الذى عليه أن يضع توقيعه فيه. يأخذ القلم منى باحترام.

أسأله بلطف: هل أخبرك الضابط بما تقوله لى؟

يقول: نعم، سيدي .

هل كانت يدا السجين موثقتين؟

نعم، سيدى، أعنى لا، سيدى.

اصرفه واملأ استمارة رخصة الدفن.

ولكـــن قبل ذهابى إلى الفراش، آخذ فانوسا، أعبر الساحة، وأدور عبر الشوارع الخلفية إلى مخزن الحبوب. هناك حارس جديـــد عـــند باب الكوخ، فلاح صبى آخر نائم ملتفاً ببطانته.

صرصار ليل يتوقف عن غنائه عند اقترابى. سحب المزلاج لم يوقـظ الحارس. أدخل الكوخ مع رفع الفانوس عالياً، معتدياً، كمـا أعتقد، على ما قد غدا أرضاً مقدسة أو دنسة، إن كان فى ذلك أى اختلاف، حافظة أسرار الدولة.

الصبى نائم على فراش من القش فى زاوية، حىّ وفى حالة جيـدة. يـبدو كأنه نائم. ولكن توتر حالته يخونه. يداه موثقتان أمامه. فى الزاوية الأخرى، حزمة بيضاء طويلة.

أوقظ الحارس. من أخبرك بترك الجثة هناك؟ من خاطها؟

يسـمع الغضب فى صوتى. كان ذلك الرجل الذى جاء مع صـاحب السعادة الآخر، سيدى. كان هنا عندها حضرت لتسلم مأموريـتى. قال للصبى، أنا سمعته، نم مع جدك، أبقه دافئا. تظاهر بأنه يحاول خياطة الصبى أيضاً مع الكفن، الكفن نفسه، ولكنه لم يفعل .

بيـنما يـبقى الصـبى ممددا. نائما، متصلب الجسم، عيناه مغلقتان بإحكام، نحمل الجثة خارجا. وفى الفناء، بينما الحارس يمسـك بالفـانوس، أجد موضع الدرزة، بنصل سكينى، أمزق الكفن وأفتحه، أطويه خلفا من جهة رأس الرجل العجوز.

اللحية الرمادية مكسوة بالدم. الشفتان منسحقتان ومدفوعتان إلى وراء، الأسـنان مكسـورة، عيـن متدحرجة إلى الخلف، ومحجـر العيـن الأخـرى، حفرة دامية. أقول، أغلقه ، يضم

الحـــارس طرفى الثغرة، لكن الكفن يتدلى مفتوحاً. يقولون إن رأســه اصــطدم بـــالجدار، ما الذى تعتقده أنت؟ ينظر نحوى بحذر. أجلب بعض خيوط القنب وأربط الكفن بشدة .

أمسك بالفانوس فوق الصبى. إنه لم يتحرك، ولكننى أنحنى لألمـــس خده يجفل ويبدأ بالارتعاش بتموجات طويلة، تمتد إلى أعـــلى جســده وأسفله. أقول: أصغ إلى، يا ولد، لن أقدم على إيذائــك. يــتدحرج عـــلى ظهـــره، مقدما يديه الموثقتين أمام وجوهنا. إنهما منتفختان وقرمزيتان. أتلمس القيود بارتباك. كل تحـــركاتى تجاه الصبى خرقاء. اسمع، عليك أن تقول الحقيقة للضابط. ذلك كل ما يريده منك – الحقيقة. انه لن يؤذيك عندما يــتأكد مـــن أنك تقول الحقيقة. ولكن عليك أن تحكى له كل ما تعرف. عليك أن تجيب عن كل سؤال يوجهه إليك، بصدق، لا تيـــأس إن تعرضت للألم . ملتقطاً العقدة، انجح أخيراً فى حل الحـــبل. افرك كفيك بعضهما ببعض كى يبدأ الدم بالسريان . أفـــرك كفيـــه بكـــفى يلوى أصابعه متألماً. لا أستطيع التظاهر بكونى أفضل من أم تهدئ طفلها، بين نوبات غضب والده. لم يفتـــنى أنــــه بإمكـــان المحقـــق أن يرتدى قناعين، أن يتحدث بصوتين، الأول فظ، الثانى مخادع.

أسأل الحارس، هل كان لديه أى شىء ليتناوله هذا المساء؟

لا أعرف.

هـل كان لديك ما تأكله؟ . أسأل الصبي. يهز رأسه. أحس بالأسى يثقل قلبي. لم أتمن قط الانجرار إلى هذا الموقف. إلى أيـن سينتهي، لا أدري. أستدير نحو الحارس. سأغادر الآن. ولكـن هناك ثلاثة أشياء أريد منك تنفيذها. الأول، أريد منك، بعـد تحسـن يدي الصبي، ربطهما ثانية، لكن ليس بتلك الشدة الـتي تـؤدي إلى تورمهمـا. ثانيا، أريدك أن تبقي الجثة في مكانها، في الفناء، لا تعدها إلى هنا. سأبعث، في ساعة مبكرة مـن الصـباح، بفريق الدفن لأخذها، وستسلمها لهم. إن كانت هناك أي أسئلة، قل إنني أعطيت الأوامر. ثالثا، أريدك أن تغلق الكـوخ الآن، وتعال معي. سأجلب لك شيئاً من المطبخ لتعود به، ويأكله الصبي. تعال .

لم أكن أعني التورط في الأمر. أنا قاض مدني، مسؤول في خدمة الإمبراطورية. أكمل ما تبقى من خدمتي، في هذه الحدود الباعثة على الكسل، منتظراً التقاعد، أجمع العشور والضرائب، أدير الأراضي المشاعة، أتابع سريان إمدادات الحامية، أشرف على الموظفين الأدنى، الذين هم الموظفون الوحيدون لدينا هنا، أراقـب التجار، أترأس المحكمة الصغرى مرتين في الأسبوع. ومـا تـبقى، أرقب الشمس في شروقها وغروبها. آكل وأنام، وأحـس بالاكـتفاء. وعندما أرحل، آمل أن أكون جديراً بثلاثة أسطر بحروف صغيرة في صحيفة الإمبراطورية. أنا لم أطلب أكثر من حياة هادئة في زمن هادئ.

ولكن قصص العام الماضى بدأت تصلنا من العاصمة، عن اضــطراب بيــن الــبرابرة تجار يسافرون عبر طرق آمنة، هوجموا ونهبوا، لصوص المواشى ازدادوا نسبة وجرأة. فريق من موظفى الإحصاء الرسمى، اختفوا، وتم اكتشافهم، مدفونين فى قبور ضحلة. نيران أطلقت على حاكم إقليم فى خلال جولة تفتيشية، اشتباكات حدثت مع دوريات الحدود. القبائل البربرية كــانت مســلحة، مضت الإشاعة. على الإمبراطوربة أن تتخذ إجراءات وقائية، إذ إن حرباً ستنشب بالتأكيد.

أنــا شخصــيا، لم أر، من هذا الاضطراب، شيئاً. لاحظت، بشــكل خاص، أنه يحدث مرة فى كل جيل، حالة من هستيريا حــول الــبرابرة، ولم أخذل ولا مرة. ليست هناك امرأة واحدة تعيش على طول الحدود، لم تحلم بيد برابرة سوداء تخرج من تحــت السرير لتمسك بكاحلها، ولا يوجد رجل لم يخوف نفسه لــرؤى عــن برابــرة يسرفون فى شرب الخمور فى منزله، يكسرون الأوانى، يشعلون النار فى الستائر، ويغتصبون بناته. الأحــلام هــذه هي نــتيجة اليسر التام. أرونى جيشاً بربرياً، وسأكون لكم مصدقا.

فى العاصــمة كــان مــثار الاهتمام، إن قبائل البرابرة فى الشمال والغرب ستتوحد أخيرا. تم إرسال ضباط هيئة الأركان العامة، فى جولات على الحدود. عززت بعض الحصون وتمت تقويتها. أعطيت حماية عسكرية لتجار طلبوها. ضباط المكتب

الـثالث لـلحرس المدنى، شوهدوا للمرة الأولى على الحدود، حمـاة الدولة، المختصون بحركات التمرد السرية، المتعصبون للحقيقة، العلماء فى الاستجواب. وهكذا يبدو أن أعوامى الهينة مقبـلة على نهايتها، عندما أكون قادراً على النوم بقلب هادئ عارفـا أنه بوكزة من هنا ولمسة من هناك، فإن العالم سيبقى مسـتقرا فى سيره. لو أننى فقط كنت قد سلمت هذين السجينين المنافيين للعقل إلى العميد، أفكر ملياً- أيها العميد، ها هما، إنك المخـتص. تدبر ما ستفعله بهما - لو أننى كنت قد ذهبت فى رحـلة صـيد لبضعة أيام، كما كان لزاما علىّ أن أفعل، ربما زيـارة لأعـالى النهر، والدودة، وبدرن قراءته، أو بعد إلقاء نظرة عجلى عليه بعين غير مبالية، أضع ختمى على تقريره، دون أى جـدل حول ما تعنيه كلمة تحقيقات، ما يقع تحتها من مسؤولية، مثل بانشى(*) تحت حجارة- لو كنت قد فعلت الأمر الحكيـم، آذن، لـربما كان باستطاعتى الآن العودة إلى صيدى بالصقور وتجوالى الرائق فى خلال انتظارى للقلاقل أن تتوقف والفوضى على طول الحدود أن تخمد. ولكننى، ويا للأسف، لم أبتعد عن المكان، أغلقت أذنى برهة عن الأصوات القادمة من الكـوخ بجـوار مخزن الحبوب، حيث تحفظ الأدوات. بعدئذ، حملت فانوسا، وخرجت ليلا لأرى بنفسى.

* * *

(*) بانشى BANSHEE، روح شريرة يجلب عويلها لموت إلى الدر.

الأرض بيضـــاء بسبب الثلوج من أفق إلى أفق. إنه ينهمر مـــن الســـماء التى هى مصدر ضياء منتشر وموجود فى كل مكان، وكأنما الشمس قد ذابت فى سديم وتحولت إلى هالة. فى الحـــلم، أجـــتاز بوابة الثكنات، أمر بسارية العلم العارية. تمتد الســـاحة أمامى، تتداح أطرافها مع السماء ذات الطلاء الفضى، جـــدران أشجار وخيول تضاءلت وفقدت صلابتها منكفئة فوق حافة العالم.

بينما أنزلق عبر الساحة، تتفصل أشكال سوداء عن البياض، أطفال فى لعبهم، يبنون قصراً من الثلج، ينصبون علماً ذا لون أحمـــر على قمته. وهم يرتدون القفازات وأحذية طويلة الساق، مـــلفعين ضد البرد. يجلبون حفنة إثر حفنة من الثلج. يلصّقون جـــدران قصرهم، يملأون فراغاته. أنفاسهم تغادرهم فى نفثات بيـــض. السور حول القصر نصف مبنى. أجهد نفسى لأنفذ من ضجيج أصواتهم المثرثرة بطلاقة. ولكننى لا أقدر.

أنـــا واع لجســـدى وظلى القائم، ولهذا السبب لا أندهش من اخـــتفاء الأطفـــال على الجهتين مع اقترابى منهم. كلهم ما عدا واحـــدة. أكـــبر مـــن الآخرين. ربما لا يمكن عدها طفلة. إنها تجـــلس فى الثـــلج، رأسها مغطى بقلنسوة، مديرة ظهرها لى، مـــنهمكة فى بناء باب القصر، ساقاها مدودتان، تحفر، تربت، تقولـــب. أقف خلفها وأرقبها. إنها لا تستدير نحوى. أحاول أن

أتخيــل الوجــه الــذى تضمه تويجات غطاء رأسها المستدق الأطراف ولكننى لا أقدر.

* * *

يستلقى الصبى على ظهره، عارياً، غارقاً فى النوم، يتنفس بســرعة، أنفاســه غيــر عميقة. يتلألأ جلده بالعرق. الضماد مرفوع وللمرة الأولى عن ذراعه. أرى الفيح الملتهب المفتوح المختفى تحته. أقرِّب الفانوس منه. أجد أن بطنه وأعلى فخذيه مجدرة بقشور صغيرة وكدمات وجروح. بعضها موسوم بالدم.

أهمس للحارس، وهو الشاب نفسه الذى كان ليلة أمس. ما الذى فعلوه به؟ يجيب هامسا: مجرد سكين صغير، مثل هذا . وبمــد الإبهــام والســبَّابة. ممسكاً بسكينه الصغير فى الهواء، مشــيراً إلى طعــنة مفتضــبة فى جسد الصبى النائم، ثم تدبر الســكين برقة، مثل مفتاح، إلى اليسار أولاً ثم اليمين. يسحب السكين بعد ذلك. تعود يداه إلى جانبيه، يقف منتظراً.

أنحــنى فوق الصبى وأهزه، مقربا الضياء من وجهه. يفتح عيــنيه الواهنتين يغلقهما ثانية فيما بعد. يتنهد، أنفاسه السريعة تتــباطأ. أقــول له: اســـمع! كنت ترى حلماً سيئا. يجب أن تستيقظ . يفتح عينيه ثم يحولهما نحوى من خلف الضياء.

يقــدم الحــارس إلينــا إناء فيه ماء. أسأل: هل يقدر على

الجلوس؟ يهز الحارس رأسه. يقوم برفع الصبى ويساعده على احتساء الماء.

سمع ، أقول له. يقولون إنك قدمت اعترافاً، يقولون إنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بسرقة المواشى والخيول. وإنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يسلحون أنفسهم، وإنكم عازمون فى الربيع، على المشاركة جميعاً فى شن حرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ماذا سيعنى اعترافك هذا هل تفهم؟ أتوقف. يتطلع نحوى بنظرة خالية من التعبير إزاء كل هذه الشدة، مثل شخص متعب إثر ركضه مسافة كبيرة. إنه يعنى أن الجنود سينطلقون ضد قبيلتك، سيكون هناك قتال. وأقاربك سيقتلون، وربما حتى والداك، أشقاؤك وشقيقاتك، هل تريد ذلك حقا ؟ لا يبدى الصبى ردة فعل ما. أهز كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفل: الأمر، مثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفى، أعتقد إنه مريض جداً، متفيح تماما ، يغلق الصبى عينيه عنى.

* * *

أستدعى الطبيب الوحيد الموجود، رجل مسن، يحصل على رزقه من قلع الأسنان وعمل عقاقير مثيرة للشهوة من مسحوق العظام ودم السحالى. يضع كمادة من صلصال ومسحة من

مرهم على مئات الطعنات الصغيرة. يعدنا بأن الصبى سيكون قادراً على السير خلال أسبوع ويوصى بطعام مغذ له ثم يغادر على عجل، ولا يسأل عن لكيفية التى يتحمل بها جروحه.

ولكن العميد قد نفد صبره. خطته هى بدء حملة سريعة على قـبائل البدو والقبض على المزيد من السجناء. وهو يريد أخذ الصـبى معـه دليلا. يطلب منى التخلى عن ثلاثين جنديا من الحامية، من مجموع أربعبن وتزويدهم بالخيول.

أحـاول إثـنائه. أقول: ليس من منطلق عدم احترام، لكنك لست جندياً محترفاً أيها العميد، لم يسبق لك أن قمت قط بحملة فى هـذه لمـناطق القاسية. ستكون بلا دليل، غير الدليل الذى يـرتجف مـنك، ولـذى سيقول أى شىء يرد بباله من أجل إرضائك، وهو بكل الأحوال غير ملائم للسفر. انك لن تستطيع الاعتماد على جنودك لمساعدتك. انهم مجرد فلاحين مجندين لم يسـافر غالبيتهم أبعد من خمسة أميال عن المستوطنة. البرابرة الذيـن تطـاردهم سيشمون قدومك وسيختفون فى الصحراء، وأنت ما زلت لم تقطع غير مساقة يوم من المسير. لقد عاشوا هـنا طوال عمرهم، يعرفون الأرض. أنت وأنا غرباء – أنت أكثر منى فى ذلك. أنا أنصحك بإخلاص بعدم الذهاب .

يصـغى إلىّ حـتى أنـتهى من كلامى بل وحتى (لدى هذا الإحساس) يغرينى بالاسترسال بعض الشىء. أنا واثق من أن

هذه المحادثة، دونت بعدئذ، مع ملاحظة عليها بأننى غير سليم عقــليا . عندما استمع إلى ما فيه الكفاية، يرفض اعتراضاتى: أنا مكلف بمهمة وعلى إكمالها. أيها القاضى أنا وحدى أقدر أن أحكم متى يكون عملى جاهزاً . ويمضى قدما فى استعداداته.

يســافر فى عربــته الســوداء ذات العجلــتين ومعه فراش لــلرحلات ومنضدة كتابة مطوية، مشدودة إلى السقف. أزوده بالخيول، عربات النقل وعلف وكافة التجهيزات اللازمة لثلاثة أسابيع. يرافقه فى الرحلة ملازم أصغر سنا من أفراد الحامية. أتحــدث عــلى انفراد، مع الملازم: لا تعتمد على دليلك، إنه ضــعيف البــنية وخائف. راقب الجو. لاحظ علامات الجنود. مهمتك الأولى هى العودة بضيفنا سالماً . يسلم منحنياً.

اقــترب مــن جول ثانية، محاولاً معرفة المخطط التمهيدى لــنواياه. يقــظ: نعــم، لن أجد نفسى ملزما بتعهد وجهة سير مقدمــاً. وأقول بشكل عام، إننا سنحدد الموضع الذى يخيم فيه هــؤلاء الــبدو الــرحل، جماعتك، ثم سنتقدم أبعد كما تقتضى الحالة .

واســتمر: إنــنى أسأل لسبب واحد لأنك إن فُقدتَ، تصبح مهمتــنا هى العثور عليك وإعادتك إلى الحضارة . نتوقف عن الكــلام، مــتذوقين وجهتى النظر المختلفة بيننا، وما تتضمنه الكــلمات مــن تهكــم. يقــول: نعم، بالتأكيد ولكن ذلك بعيد

الاحـتمال. محظوظون نحن لامتلاكنا الخرائط الممتازة للإقليم التى جهزت من قبلكم.

تـلك الخرائط غير معتمدة إلا على القليل، ومستندة إلى ما يسـمع ويقال، أيها الكولونيل. لقد جمعتها معا نقلا عن بيانات مسافرين طوال مدة تمتد إلى عشرة أعوام أو عشرين عاما. أنا شخصـيا لم أضع قدما فى الموقع الذى تخطط الذهاب إليه. أنا ببساطة أحذرك .

مـنذ يومه لثانى فى هذه الأرجاء، كنت غاية فى القلق فى حضوره، كى أكون ُكثر من منضبط فى معاملتى ٍياه. أعتقد، أنه مثل جلاد جوال، معتاد على أن يتجنب. (أم إنه فى لأقاليم فحسب، ما يزال الناس يعتقدون إن لجلادين والذين يمارسون الـتعذيب، هم لنجسون؟) متطلعا إليه، أتعجب كيف أحس فى المـرة الأولى بالذات: هل إنه دعى كمبتدئ فليل الخبرة ليلوى الكماشـة أو ليديـر الـلولب أو أى شـىء مـن الأمور التى يمارسونها. ارتجف تماما بعض الشىء، وهو يعلم أنه فى تلك الحالة، كان يتجاوز إلى ما هو محرم؟ أجد نفسى متسائلا ما إذا كانت له طقوس خاصة للتطهر، تجرى خلف أبواب مغلقة، كى تجيـز له أن يعود ويتقاسم الخبز مع رجال آخرين. هل يغسل يديـه باعتناء، أو ربما يغير كافة ملابسه، أم ان المكتب الثالث بـتدع رجـالاً جـدداً، باستطاعتهم المرور من غير قلق بين الطاهرين والمدنسين؟

في ساعة متأخرة من الليل أسمع صرير طبول الفرقة الموسيقية وقرعها تحت أشجار الجوز العتيقة، عبر الساحة. هناك توهج متورد في الجو، منبعث من قاعدة الفحم الحجرى الكبيرة التى يتحمص فوقها خروف بأكمله، هدية من سعادته. إنهم سيشربون حتى الفجر، ثم يغادرون مع طلوع النهار.

أجد طريقى إلى مخزن الحبوب، عبر الممرات الخلفية، الحارس ليس فى مكانه. باب الكوخ مفتوح، وأنا أحاول المرور، أسمع أصوات همسات وضحكات. أحدق فى ظلام كالح. أقول، من هنا؟.

هناك صوت زحف، والحارس الشاب يتعثر مصطدماً بى. يقول: آسف، سيدى. أشم أنفاسه المخضلة بشراب الرئم. السجين ناداني وكنت أحاول مساعدته. ومن الظلمة ينبثق صوت ضحكة.

أنام، أستيقظ على أصوات جولة أخرى من موسيقى راقصة قادمة من الساحة. أغرق فى النوم ثانية، وأحلم بجسد مسجى على ظهره، ثروة من شعر العانة، براق سلس أسود ذهبى، عبر البطن، ممتد فوق الحفوين ثم نازلاً تحتهما مثل سهم موجه نحو ثلمة الساقين. عندما أمد يدى لأمس الشعر، يبدأ بالتلوى. انه ليس بشعر، لكنه نحل متجمع بكثافة، الواحدة أعلى الأخرى: مبللٍ بالعسل، دبق، يطير بمجموعه خارجاً من بين الساقين، مروحاً بأجنحته.

* * *

آخــر فعل مجاملة أقوم به هو الخروج راكباً مع العميد إلى مســافة حيــث ينعطف فيه الطريق نحو الشمال الغربى، على امــتداد الــبحيرة. الشمس مرتفعة تسطع بوحشية من صفحتها وهــو مــا يضــطرنى إلى حجــب عينى. الرجال، متعبون، مضطربون بعد ليلتهم من المرح، ينتشرون بغير انتظام خلفنا. فى وسط الطابور، محاطا بحارس راكب جنياً إلى جنب معه، يــأتى السجين. وجهه شبحى، يجلس على حصانه لشكل غير مريح. بالتأكيد ان جراحــه ما تزال تســبب له الآلام. تأتى فى لخــلف، الخيــول المحملة والعربات الخفيفة مع براميل الماء، الــتجهيزات والمعدات الثقيلة: رماح، غدّارات، ذخيرة حركية، خيــام. كلها بمجموعها لا تكون منظراً مثيراً. الطابور يمتطى الخيــول بشــكل غير متقن. بعض لرجال حاسرى الرؤس، بعضــهم يــرتدى خوذة الخيالة الثقيلة المزينة بريشة، آخرون بقــبعات جــلدية اعتيادية. كان الجميع يحول عينيه عن الوهج الساطع ما عدا واحد منهم، يتطلع مقطبا أمامه، من خلال قطعة من زجاج مدخن، ملتصقة بعصا، يمسكها أمام عينيه، فى تقليد لقائده. إلى أى مدى سينتشر هذه لتظاهر المنافى للعقل؟

ننطــلق بصمت. الحاصدون مشغولون فى الحقول منذ قبل بزوغ الفجر، يتوقفون عن لعمل، يلوحون عند مرورنا لهم. فى مــنعطف لطريق أكبح جماح الفرس وأودعه قائلا: أتمنى لك

عودة سالمة، أيها العميد ـ أقول ذلك. يميل رأسه بغموض وهو محاط بإطار نافذة عربته.

وهكـذا، انطلق عائداً، متحرراً من العبء الذى كنت أصله، وسـعيداً أن أكون وحدى ثانية فى عالم أعرفه وأفهمه. أصعد الأسوار لمراقبة الطابور الصغير يلتف بعيداً على طول طريق الشـمال- الغـربى، مـتوجهاً نحو لطخة الضباب الخضراء لـبعيدة، حيث يتدفق النهر إلى البحيرة، ويختفى خط الخضرة فى سـديم الصـحراء. الشمس ما تزال معلقة، برونزية، ثقيلة فـوق الماء. إلى جنوب البحيرة، تمتد أراض سبخة، مسطحات المـلح، وخلفهما خط أزرق رمادى من تلال جرداء. الفلاحون فى المـزارع يحمـلون العربتين الكبيرتين القديمتين، بالتبن. سرب من البط البرى، يدور فوق الرءوس وينحدر إلى الأسفل نحـو المـاء. نهاية صيف، هو وَقت للسلام والوفرة. أنا أؤمن بالسلام، ربما سلام متواز بأى ثمن.

على خط مباشر من جنوب البلدة وعلى مسافة ميلين، تبرز مجموعة كثبان من المشهد الرملى المسطح. اصطياد الضفادع فى المستنقعات والنزول من الكثبان الرملية المنحدرة بمزلجات خشـبية مصقولة، هى رياضة صيفية أساسية بالنسبة للأطفال، مرة فى الصباح وثانية فى المساء عندما تغرب الشمس وتتسلل الـبرودة إلى الـرمال. وعـلى الرغم من أن الرياح تهب فى

المواســم كافــة، فإن الكثبان تبقى ثابتة، متماسكة – على نحو متصــل – بطبقة خفيفة من الحشائش، وكما اكتشفت، مصادفة قبل بضعة أعوام، بهياكل خشبية أيضاً. ذلك لأن الكثبان تغطى خــرائب تعــود إلى أزمــنة قديمة، قبل ان يتم الاستيلاء على الأقاليم الغربية ويُبنى الحصن.

كان التنقيب في هذه الخرائب، إحدى هواياتى. وإن لم يكن العمــل جاريــاً فى إصلاح مشاريع الإرواء، فإننى أحكم على المذنــبين الثانويين، بالحفر بضعة أيام فى الكثبان الرملية، كما يرســل الجــنود إلى هنا فيما يخص جزئيات العقوبة. بل إننى اعتدت، فى ذروة حماستى، أن أدفع من جيبى الخاص للأعمال العرضية. لعمل غير محبذ. إذ على الحفارين أن يكدحوا تحت أشعة شمس حارقة أو ريح قارسة، دون ملجأ يحميهم مع تطاير الــرمال فى كــل اتجــاه. فى لعمــل، تعوزهم الحماسة، لا يشاركوننى هوايتى (التى يعدونها نزوة)، تعوق عملهم السرعة لــتى تــنجرف فيها الرمال إلى أماكنها. ولكننى خلال بضعة أعــوام، نجحــت فى الكشف عن عدد من البنى الكبيرة، لتبدو بمســتوى ســطح الأرض. أحدث ما تم الحفر عنه يبرز مثل حطــام سفينة فى الصحراء، يبدو للنظرِ حتى منِ أسوار البلدة. من هذا المبنى لدى قد يكون مبنى عاماً أو معبداً، أنفذت إسكفة ثقيــلة مــن خشــب الزان محفور عليها تصميم يمثل سمكات تتقافز، متدخلة بعضها ببعض، معلقة اليوم فوق مدفأة الجدار.

كانت مدفونة تحت مستوى سطح الأرض، فى كيس تفتت إلى لا شيء، حالما لامسته. وعثرت أيضا على مخبأ لقطع خشبية رفيعـــة مرسومة عليها أشكال بحروف لم أر لها مثيلا. كنا قد وجدنـــا قطعـــاً مـــثل هـــذه من قبل، متفرقة كخرق قماش فى لخـــرائب. ولكـــن معظمها كانت مطموسة الألوان بفعل تأثير الرمال، بحيث إن الكتابة عليها تبدو عصية على الفهم. الأشكال عـــلى الشـــرائح الخشبية الجديدة واضحة وضوح يوم كتابتها. واليـــوم، أملاً فى حل رموز الكتابة، بدأت أجمع كل ما يمكننى مـــنها، وألـــزمت الأطفـــال الذيـــن يلعبون هنا أن يعرفوا، أن عثورهم على واحد منها يعادل دائماً الحصول على بنس واحد.

القطـــع الخشـــبية الكـــبيرة الـــتى نزيل عنها الرمال، جافة ومنسحقة، والكثيرة منها لم تكن متماسكة إلا بفعل كونها محاطة بالـــرمال، وهى حالمـــا يكشف عنها، تتفتت. وما يتبقى منها، يتكســـر بفعل ضغط قليل. كم يبلغ عمر هذه الأخشاب؟ ذلك ما لا أعرفه. البرابرة الذين هم بدو رعويون، يسكنون الخيام، لا يشـــيرون فى أساطيرهم إلى استقرار دائم بالقرب من البحيرة. ولا توجد بين الخرائب، بقايا بشرية. وإن كانت هناك مقبرة ما، فإنـــنا لـــم نعثر عليها. البيوت لا تحوى أثاثا . ولقد عثرت فى كومة من رماد على شظايا فخار طينى و شيء ما بنى اللون، ريمـــا كـــان فى يوم ما حذاء من الجلد أو قبعة، وقد تناثر إلى قطـــع أمـــام عيـــنى. لا أعرف من أين جاء الخشب لبناء هذه

الـــبيوت. ربمـــا في الـــزمن الغابر، شق مجرمون أو عبيد أو جنود، طريقهم عبر الأميال الاثنى عشر باتجاه النفر، وقطعوا أشـــجار الزان التى نشرت وسويت، ثم قاموا بنقلها فى عربات إلى هذا المكان المقفر، وبنوا البيوت وبنوا حصنا أيضا، قياسا لكـــل مـــا أعـــرفه، فى ســـياق الزمن الذى انقضى، كى يتاح لأســـيادهم وأوليـــائهم وللحكام والقادة البارزين، تسلق الأسطح والأبـــراج صبحا ومساء، ليمسحوا العالم من أفق إلى أفق بحثا عـــن علامـــات تشير إلى البرابرة. وفى حفرياتى، ربما قمت بخدش سطح الأرض فقط. وربما، على عمق عشرة أقدام منه، تقـــع خرائب قلعة أخرى، دمرت تماما من قبل البرابرة، كانت مأهولة بالهياكل العالمية للقوم، الذين ظنوا أنهم سيجدون الأمان خـــلف الجـــدران العالية. ربما، إننى عندما أقف على أرضية مبنى المحكمة، إن كان الأمر كما أعتقد، فإننى أقف على رأس قاض مثلى، خادم آخر للإمبراطورية، ذى شعر رمادى، سقط فى حلبة سلطته، فى آخر الأمر، وجها لوجه مع البرابرة. كيف يمكنـــنى أبـــدا أن أعرف؟ أبواسطة الحفر مثل أرنب؟ هل هذه الأشـــكال، ستحدثنى يوماً؟ كانت هناك مائتان وخمسة وستون قطعـــة شـــريحة فى الجـــراب. هل الأمر مصادفة، أن تكون الأعـــداد تامـــة؟ بعـــد أن عددتها للمرة الأولى، وأدركت هذا الاكتشـــاف، قمت بتنظيف أرضية مكتبى، ونشرتها عليه، أولاً فى مـــربع كبير واحد، ثم فى ستة عشر مربعاً أصغر، ثم فى

مجموعـــات ُخـــرى، مفكراً فيما اعتقدتها، حتى الآن، أحرف كتابة ضمن مقاطع لفظية، قد تكون فى الحقيقة، صورة ستقفز خطوطهـــا الخارجيـــة نحوى، إن حققت الترتيب الصحيح لها: خارطـــة لأرض لـــبرابرة فى لزمن لغابر، أو صورة لهيكل آلهـــة مفقـــود. بل إننى وجدت نفسى أقرأ، أفسر الشرائح من خلال مرآة، أو أتتبعها بوضع شريحة أعلى شريحة أخرى، أو ادمج نصف قطعة مع نصف قطعة أخرى.

فى إحـــدى الأمســـيات، تخلفت بين الخرائب، بعد أن هرع الأطفال إلى بيوتهم لتناول العشاء، فى وقت الغسق الأرجوانى، وعـــند ظهور أولى النجوم، الساعة لتى تصحو فيها الأشباح، تـــبيعا للمعـــتقدات التقـــليدية. وضعت أذنى على الأرض، كما علمـــنى الأطفـــال، لســـماع ما يسمعونه: طرقات وأنين تحت الأرض، والضـــرب الخفيض غير المنتظم على لطبول. على صفعة خدى، أحسست بدمدمة الرمال تتحرك من لا مكان إلى لا مكان عبر أراض بور. تلاشى آخر خيوط لضياء، الأسوار بـــدت أكثر قتامة قبالة السماء، ثم تلاشت فى العتمة. انتظرت ساعة من الزمن، ملتفا بمعطفى لفضفاض، مسنداً ظهرى إلى عمود زاوية بيت من البيوت التى لابد أن أناساً قد تحدثوا فيها يوما وأكلوا وعزفوا الموسيقى. كنت أرقب طلوع القمر، مهيئاً حواســـى لليل منتظراً إشارة تدل على أن ما يهجع أمامى، ما يهجـــع تحت قدمى، لم يكن مجرد رمال، غبار عظام، رقاقات

صداً، كسر أثرية، رماد. الإشارة لم ترد. لم أحس بأى رعشة خــوف مـــن روح شريرة. موضعى فى الرمال كان دافئاً. لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسى أطأطئ من النعاس.

وقفت ومددت قامتى، ثم سرت مجهداً إلى البيت عبر الظلمة المســكنة، مســتدلاً على اتجاهى بفعل التوهج الباهت للسماء المــنعكس عن نيران المنازل. أمر يثير السخرية، خطرِ ببالى، رجل بلحية رمادية يجلس فى العتمة، فى انتظار أرواح تَرِدُ من طــرق مجهولة من التاريخ، كى تتحدث معه قبل ان يعود إلى منزلـــه، إلى اليخنة العسكرية وإلى فراشه المريح. الفضاء من حولنا، هنا، مجرد فضاء، ليس أحقر أو أرفع من الفضاء الذى فــوق الأكــواخ والــبيوت الفقيرة والمعابد ودوائر العمل فى العاصمة. الفضاء هو الفضاء، الحياة هى الحياة، هى نفسها فى كــل مكـــان. أما بالنسبة لى، المتحمل مشاق الآخرين، المفتقر لــرذائل مــتمدنة تملأ وقت فراغى، فإننى أدلل كآبتى وأحاول العثور فى فراغ الصحراء على إثارة تاريخية من نوع خاص. فارغ، منبطل، مضلل. كم أنا محظوظ، لأن أحداً لم يرنى.

* * *

ليوم، بعد مرور أربعة أيام فقط على مغادرة الحملة، تصل أول وجــبة مـــن ســـجناء العميد. أشاهدهم، من خلال نافذتى، يعبرون الساحة بين حراسهم الممتطين جياداً، مغبرين، مذللين

تــواً مــن قــبل المــتفرجين الذين احتشدوا حولهم، الأطفال المــتقافزون، الكــلاب الناتجة. فى الثكنات، ينزل الجنود عن جيــادهم، وفى الحــال يجلس السجناء القرفصاء على الأرض لــلراحة، ما عدا الصبى، الذى يقف على ساق واحدة، ذراعه على كتف والدته، يتطلع بفضول إلى المتفرجين. يجلب أحدهم جردلاً من الماء ومغرفة. يحتسون الماء بعطش شديد، فى حين يــزداد الحشــد ويضغط بقوة من حولهم، بحيث يحجب الرؤية عــنى، فلا أرى شيئاً. بصبر نافذ أنتظر مجىء الحارس، الذى يشق طريقه الآن عبر المتجمهرين، ويجتاز ساحة الثكنات.

كيــف تشرح هذا؟ أصيح فى وجهه. يحنى رأسه، يتلمس جيوبه. وأضيف: إنهم قوم صيادون، كيف تجلبهم إلى هنا؟ .

يقدم لى رسالة. أمزق الختم وأقرأ: أرجو أن تحتجز هؤلاء والمعتقــلين القــادمين فى سجن انفرادى لحين عودتى . تحت توقيعه، يتكرر الختم، ختم المكتب الثالث، الذى حمله معه إلى الصــحراء والذى إن هلك سأضطر، بلا شك، إلى إرسال بعثة أخرى لاسترداده.

أصيح: الرجل مضحك! أدور فى أرجاء الغرفة والغضب يعصف بى. يتحتم على المرء أن لا يحط من قدر الضباط أمام الــرجال قــط، أو الآباء أمام أبنائهم، ولكننى اكتشفت أننى لا أحمــل ولاء فى قلــبى تجاه هذا الرجل. ألم يقل له أحد ما إن

هؤلاء قوم صيادون؟ الأمر مضيعة للوقت فى جلبهم إلى هنا! كـــان مـــن المفـــروض أن تساعده فى تتبع اللصوص، قطاع لطرق، غزاة الإمبر طورية! هل هؤلاء الناس يبدون خطرين على الإمبراطورية؟ . أقذف بالرسالة عند النافذة.

الحشـــد يتفرق أمامى، حتى أقف فى الوسط مواجهاً الاثنى عشـــر ســـجينا المثيرين للشفقة. يجفلون إزاء غضبى، وينزلق لصبى الصغير بين ذراعى والدته. ُومئ إلى الحارس: أخلوا المكـــان و جلـــبوا هـــؤلاء الناس إلى باحة الثكنات . يقودون الأســـرى لى الأمام، وتغلق بو بة الثكنات خلفنا. أقول، والآن اشـــرحوا ما حدث، ألم يقل له أحدكم إن هؤلاء الأسرى عديمو الفائدة! ألم يحدثه واحد عن الفرق بين صيادين يحملون الشباك وبيـــن بدو رحل يركبون لخيول ويحملون السهام؟ ألم يَقل له أحد إنهم لا يتكلمون حتى اللغة نفسها؟

يـــبدأ ُحد الجنود بالشرح: لقد حاولوا الاختفاء فى الدغل، عـــندما أبصـــرونا قـــادمين. رأوا فرسانا مقبلين ولهذا حاولوا الاخـــتفاء، وهكـــذا، أمرنا الضابط، صاحب السعادة، بأخذهم، لأنهم كانو يختبئون .

كان بإمكانى أن ألعن بغيظ. شرطى، استنتاج شرطى! هل قال صاحب السعادة لماذا أراد جلبهم إلى هنا؟ هل قال لماذا لم يتمكن من سؤالهم عما يريد هناك؟

لم يتمكن أحد من التحدث بلغتهم، سيدى .

بالـــتأكيد لـــم يتمكنوا! سكان النهر هؤلاء قوم ذوو أصول بدائيـــة قديمـــة، إنهـــم أقـــدم حتى من البدو الرحل ويسكنون مستوطنات، تضم كل واحدة منها عائلتين أو ثلاثا، على طول ضفتى النهر، يمضون غالبية العام فى الصيد أو نصب الشراك للحيوانات. وهم يجدفون نحو أقصى جنوب شواطئ البحيرة فى الخـــريف للإمســـاك بالأفاعى الدودية الحمراء وتجفيفها، بناء واقيـــات ركيكـــة مـــن القصـــب، يتأوهون بردأ خلال الشتاء، ملابســـهم الجـــلود، يعيشون فى خوف من كل إنسان، يتسللون خلســـة بيـــن عيدان القصب، فما الذى يحتمل أن يعرفوه عن مغامرة كبيرة للبرابرة ضد الإمبراطورية؟

أرسل أحد الرجال إلى المطبخ من أجل الطعام. يعود بخبز متـــبق من يوم أمس، ويقدمه للسجين الأكبر سناً. يتقبل الرجل العجوز رغيف الخبز بكلتا يديه بتبجيل، يشمه، يكسره، ويوزع القطـــع عـــلى من حوله. يحشون أفواههم بهذا المن، يمضغون بســـرعة، دون أن يرفعوا أعينهم. تبصق امرأة لقمة ممضوغة فى راحة يدها وتطعم رضيعها. أومئ لجلب المزيد من الخبز. نقـــف نرقـــبهم وهـــم يأكـــلون وكأنهم حيوانات غريبة. أقول للحراس، دعوهم يمكثون فى الساحة. لن يكون مناسباً بالنسبة إلينـــا، ولكـــن ليـــس هناك مكان آخر. إن برد الجو فى الليل، سأتخذ ترتيباً آخر. راقبوا تزويدهم بالطعام. أعطوهم شيئا كى

يفعلوه، لأننى لا أريد عاطلين يأتون من أجل التحديق بهم.

وهكـذا أكـبح غيظى وأتصرف كما أمر العميد: أحتجز له سـجناءه الذيـن لا فائدة منهم فى سجن انفرادى. ويبدو فى خلال يوم أو يومين أن هؤلاء البدائيين قد نسوا أنه كان لهم فى يـوم مـن الأيام، مقر آخر. تم إغواؤهم كليا بالطعام المجانى الوفيـر والخبز بالدرجة الأولى، انهم يرتاحون ويبتسمون لكل واحـد، يتجولون فى ساحة الثكنات من رقعة ظل إلى أخرى، يغفون ويستيقظون، يتهيجون كلما حان ميعاد لوجبات. عاداتهم واضحة وقذرة. تحولت إحدى زوايا الساحة إلى مرحاض حيث يقرفص الرجال والنساء أمام الآخرين وحيث سحابة من الذباب تطـن طوال اليوم. (أعطوهم معولاً أقول للحراس، ولكنهم لا يستعملونه.) الخوف قد زال عن الصبى الصغير، يتردد بكثرة عـلى المطـبخ، مسـتجديا السكر من الخادمات. وفضلا عن الخـبز، فـإن السكر والشاى، هما من الأمور الجديدة بالنسبة إليهم. إنهم يحصلون فى كل صباح على قطعة من ورق الشاى المضـغوط، يغـلونها فى دلو سعة أربعة غالونات على حامل ثـلاثى القوائـم. إنهـم سعداء هنا. وبالتأكيد، إن لم نطردهم خارجـاً، فـإنهم قد يبقون معنا إلى الأبد. لقد تطلب إغواؤهم للتخـلى عـن حياتهم الطبيعية، كما يبدو، شيئا ضئيل القيمة. أمضـى سـاعات أراقبهم عبر نافذة الطابق العلوى (كان على العاطلين الآخرين مراقبتهم عبر البوابة). أراقب النسوة يلتقطن

القمـــل، يمشـــطن، يضـــفرن بعضهن شعور بعض، السوداء الطويلة. تعانى بعضهن من نوبات سعال جافة وحادة. ما يثير الدهشة عدم وجود أطفال فى المجموعة ما عدا الطفل الرضيع. هل بعض سريعى الحركة، المتيقظين منهم، قد نجحوا بعد كل شيء فى الهرب من الجنود؟ آمل ذلك. آمل، عندما نعيدهم إلى بيوتهـــم، ســـتكون لديهـــم قصـــص من أماكن بعيدة يحكونها لجيرانهم. آمل أن يدخل تاريخ أسرهم فى أساطيرهم، ما ينتقل مـــن الجد إلى الحفيد. ولكننى فى الوقت نفسه آمل أن لا تكون ذكـــريات البـــلدة بحياتها السهلة وطعامها الدخيل، بالقوة التى ســـتغريهم بـــالعودة. أنـــا لا أريد سلالة من المتسولين، أتولى الإشراف عليهم.

يغـــدو قوم الصيادين لبضعة أيام تغييراً، بثرثرتهم الغريبة، وشـــهيتهم الهائلة، وعدم إحساسهم بالحياء، ومزاحهم وطباعهم ســـريعة الـــتأثر. يتلكأ الجنود حول مداخل الأبواب لمراقبتهم، يطـــلقون تعليقات داعرة حولهم فيتقبلونها ضاحكين لعدم فهمهم إياهـــا، وهـــناك عـــلى الدوام أطفال يضغطون وجوههم على قضبان البوابة. ومن نافذتى، أتطلع إلى الأسفل، غير منظور، خلف الزجاج.

لكننى بعد ذلك، وبمجموعنا، نفقد التعاطف معهم. إذ ازدادت وبشـــدة القذارة والرائحة الكريهة وأصوات مشاجراتهم، وهناك حـــادث عرضـــى مزعج، ذلك عندما حاول أحد الجنود سحب

إحـــدى نســـائهم إلى الغرف، ويتعرض للرشق بالحجارة، أمر ربمـــا لا يحـــدث إلا فى مسرحية ما، ولا أعرف من الذى قام بذلـــك. وتبدأ إشاعة بالسريان، إنهم مصابون بالمرض، وإنهم ســـيجلبون وباء إلى البلدة. وعلى الرغم من أننى أرغمهم على حفـــر ركـــن فى زاويـــة الساحة ورمى نفايات الليل فيه، فإن العاملين فى المطبخ يرفضون إعطاءهم الأوانى ويبدأون برمى الطعـــام إليهـــم من مدخل الباب وكأنهم حيوانات فعلا. الجنود يغـــلقون لـــباب المـــؤدى إلى قاعـــة الثكنات، لم يعد الأطفال يقـــتربون من لبوابة. يقذف أحدهم بقطة ميتة فوق السور فى خـــلال الليل ويثير جلبة. إنهم فى خلال الأيام الحارة الطويلة، يـــتجولون فى الســـاحة الحاليـــة. الطفـــل يبكى ويسعل، يبكى ويسعل، حتى أضطر الالتجاء إلى أبعد زاوية فى شقتى. أكتب رســـالة غاضبة إلى المكتب الثالث، الحارس اليقظ الذى لا ينام للإمبراطورية، أشجب فيها عدم أهلية وكلائها، أكتب: لماذا لا ترســـلون أناســـا ذوى خبرة بالحدود للتحقيق فى اضطرابات الحدود؟ بحكمة أمزق الرسالة. أسائل نفسى، هل إن قمت بفتح البوابة فى هدأة الليل، سيتسللون خارجاً؟ ولكننى لا أفعل شيئاً. وجـــاء بعدئذ يوم، لاحظت فيه أن الطفل قد توقف عن البكاء. وعندما تطلعت من لنافذة، لم أجد له أثراً فى أى مكان. أبعث حارساً للبحث ويعثر على جثة الصغير تحت ملابس أمه. إنها لا تتخلى عنه وكان علينا نتزاعه منها. تجلس القرفصاء وحيدة

طوال النهار، بعد ذلك، مغطية وجهها رافضة الطعام. ويظهر أن قومهـا يـنأون بأنفسهم عنها. أتساءل، هل تجاوزنا بعض تقـاليدهم، بأخذ الطفل ودفنه؟ ألعن العميد جول لكافة المشاكل التى جلبها علينا، وأيضاً بسبب الإحساس بالعار.

فيمـا بعـد، وفى منتصف الليل يعود. تفض رقدتى نداءات بوق آتية من الأسوار. تنفجر قاعة الثكنات هياجا، بسبب تزاحم الجـنود لأخذ أسلحتهم. يختلى تفكيرى، أرتدى ملابسى ببطء، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى الساحة، أجد طابور الجند قد بدأ للـتو، باجـتياز البوابة، بعضهم يمتطى الخيول، بعضهم يقود دابـة. أقف فى المؤخرة، بينما يتزاحم المتفرجون فى المكان، يتلمسـون الجـنود ويحتضـنونهم، يضحكون منفعلين (كلهم سـالمون بعضـهم يصـيح)، ولم أر ما كنت أخشاه، إلا بعد وصـولى إلى منتصف الطابور: العربة السوداء، ثم مجموعة مـن الأسرى، يسيرون بتثاقل مربوطين بالحبال معاً، رقبة إلى رقـبة. شخوص لا شكل معين لهم، تحت ضوء القمر الفضى، فى معاطفهم المصنوعة من جلود الخراف، ثم يأتى خلفهم آخر الجنود، وهو يقود العربات ومجموعة من الخيول. وكلما ازداد وازداد عدد الناس القادمين هرولة، ازدادت البلبلة. أدير ظهرى نحـو انتصار العميد وأشق طريقى عائداً إلى غرفتى. من هذه الـنقطة، أبدأ بإدراك عدم جدوى العيش، كما اخترت أن أفعل، فى الشـقة غير المنتظمة، فوق غرف المخزن والمطبخ، التى

خصصت لآمر الموقع الذى لم يعين منذ أعوام، وذلك بدلا من المنزل الجذاب ذى النوافذ التى يعرش عليها الجيرانيوم والتى يخفــق الحكـــام المدنيـــون فى الحصول عليها. أود أن يكون بمقـــدورى صـــد أذنى عن الأصوات القادمة من الساحة أسفل الشـــقة، والـــتى أصبحت الآن، كما يبدو، تتحول بوضوح إلى ساحة سجن. ينتابنى إحساس بالتعب والكبر وبرغبة فى النوم. أنـــام فى هـــذه الأيام أينما أقدر، وعندما أصحو، استيقظ على مضـــض. لـــم يعد النوم مغطساً شافياً، من أجل استعادة القوى الحيويـــة، بـــل وسيلة للنسيان، مناوشة قصيرة مع الإبادة. غدا العيـــش فى الشقة مؤذياً لى. ولكن، ليس ذلك فحسب، فلو أننى كـــنت أقمت فى منزل القاضى، فى أهدأ شارع فى البلدة، أعقد جلســـات المحكمـــة كـــل اثنين وثلاثاء، أذهب إلى الصيد كل صـــباح، أشـــغل أمســـياتى بالآثار الكلاسيكية، أغلق أذنى عن فعاليـــات هـــذا الشرطى حديث النعمة، إن كنت قررت امتطاء الـــزمن الـــردىء، محتفظاً بمشورتى لنفسى، لربما كففت عن الإحســـاس كرجل واقع فى قبضة تيار مضاد قوى، يتخلى عن المقاومـــة، يـــتوقف عـــن الســـباحة، ويدير وجهه نحو البحر المكشوف والموت. إلا أن الأمر هو معرفة مدى استمرار حالة عـــدم الاستقرار التى أنا فيها، كم هو متوقف على نحيب طفل تحـــت نافذتى فى يوم ما وتوقفه عن ذلك فى اليوم التالى، ذلك يجـــلب لى أســـوأ أحاســـيس الخزى، كبر لا مبالاة للفناء. أنا

أعرف الكثير إلى حد ما، ومن هذه المعارف، أن المرء ما إن يصاب بالعدوى فلا شفاء، كما يبدو، له. ما كان على قط تناول فانوسى لرؤية ما كان يجرى فى الكوخ بجوار مخزن الحبوب. مـــن جهة أخرى، لم يكن هناك خيار آخر، ما دمت قد التقطت الفـــانوس، تقـــع علىّ مهمة وضعه ثانية على الأرض. تتعقد الأنشوطة حول نفسها، لا أستطيع العثور على النهاية.

يمضى العميد، اليوم التالى بأكمله، فى النوم، فى غرفته فى الفـــندق، ويكـــون عـــلى العاملين السير على أطراف أصابع أقدامهـــم، فى خـــلال إنجـــاز واجباتهم. أحاول عدم الاهتمام بالحزمة الجديدة من السجناء فى الباحة. ومن المؤسف أن كافة أبـــواب مبنى الثكنات فضلاً عن باب السلم المؤدى إلى شقتى تتفـــتح على الساحة. أهرع خارجا فى الضياء الأول للصباح، أشـــغل نفسى بإيجارات البلدية، أتعشى مساء مع أصدقاء. فى طـــريق العـــودة إلى المـــنزل أقابل الملازم الشاب الذى رافق العميـــد جول إلى الصحراء وأهنؤه على سلامة العودة، ولكن لمـــاذا لم تشرح للعميد أن الصيادين قد لا يكونون قادرين على مســـاعدته فى تحقيقاته؟ يبدو مرتبكاً، ويقول لى، لقد تحدثت ولكن كل ما قاله كان، السجناء هم السجناء . وقررت أنه ليس بإمكانى النقاش معه .

يـــبدأ العميد تحقيقه فى اليوم التالى. فيما مضى اعتقدت أنه

كســول، إلى حــد أبعد من رجل بيروقراطى ذى ميول فاسدة، اليوم أدرك كم كنت مخطئا. لا يتعب فى بحثه عن الحقيقة. يبدأ الاســتجواب فى ساعة مبكرة من الصباح، ولا يزال مستمراً، لحين عودتى بعد هبوط الظلام. لقد جند مساعدة صياد أمضى حياته فى إطلاق النار على الخنازير على طول النهر، ويعرف مائــة كــلمة مــن لغة قوم الصيادين. واحداً بعد آخر، يؤخذ الصــيادون إلى الغرفة التى كان العميد قد استقر فيها ، ليسألوا ان كــانوا قــد شــاهدوا حركات خيالة غرباء. الطفل أيضاً تم اســتجوابه، هــل قــام غرباء بزيارة والدك فى خلال الليل؟ (أخمــن بطــبيعة الحــال، ما يدور فى الغرفة، أخمن الخوف والارتــباك والشــرود.) لا يعود السجناء إلى الساحة، بل إلى قاعــة الثكنات الرئيسة: الجنود قد تفرقوا ، وزعوا على جهات البلدة الأربع. أجلس فى غرفتى، نوافذى مغلقة، أحاول القراءة، فى ســخونة الجــو المضغوط لمساء بلا ريح، اجهد نفسى أن أســمع أو لا أسمع أصوات العنف، وأخيراً، فى منتصف الليل، يــتوقف التحقيق، وتخمد فرقعة الأبواب ووقع الخطى، الساحة ساكنة تحت ضوء القمر، عند ذلك يؤذن لى بالنوم.

لقد غادر الفرح حياتى. أقضى النهار فى التعامل مع بيانات وأعــداد، متوســعاً فى أعمالى البسيطة عن أجل ملء الفراغ. أتــناول الطعــام فى الفندق مساء ثم أعود مرغما إلى البيت. أصــعد إلى الطــابق العــلوى، إلى الجزء المخصص للغرف

المنفصلة، المكعبة الشكل، حيث ينام سُواس الخيول وحيث تُسَرِّى الفتيات عن أصدقائهن من الرجال.

أنام مثل رجل ميت. عندما أصحو أجد فى الضوء الشاحب لساعات الصباح الأولى، البنت متمددة، منطوية على نفسها، على أرضية الغرفة. ألمس ذراعها: لمازا تنامين هنا؟ . تبتسم لى. كل شىء على ما يرام، أنا فى وضع مريح. (ذلك صحيح: مستلقية على جلد خروف ناعم، تتمطى وتتثاءب، جسدها الدقيق لا يكاد يملؤه.) كنت تهذر فى نرمك، طلبت عنى الانصراف، وهكذا قررت انه من الأفضل لى النوم هنا.

طلبت أنا منك الانصراف؟

نعم، فى خلال نومك، لا تنزعج . تصعد إلى جوارى فى السرير، احتضنها بامتنان، وبلا رغبة.

أقول: أود النوم هنا ثانية ته الليلة . تمرغ انفها فى صدرى. يخطر ببالى ان كل ما أريد ان أقوله لها، سيسمح بمشاركة وجدانية، بحنان. ولكن ماذا باستطاعتى القول؟ أمور مخيفة تجرى فى الليل، بينما نكون انت وأنا نائمين ؟ الثعلب يسرق أحشاء الأرنب، ولكن العالم يستمر فى الدوران.

امضى نهاراً آخر وليلة أخرى بعيداً عن سلطة الألم. أغلى فى النوم بين ذراعى الفتاة. ثانية، تكون مستلقية على أرضية الغرفة فى الصباح. تضحك عند فزعى: لقد دفعتنى خارج

الســرير، ليديك وقدميك. أرجو ان لا ترتبك، نحن لا نستطيع التحكم بأحلامنا أو ما نفعله فى خلال النوم . أتأوه وأدير وجهى عــنها. أنــا اعرفها منذ عام. أقوم بزيارتها أحياناً مرتين فى الأســبوع، فى هــذه الغــرفة. أحس بمشاعر هادئة تجاهها قد تكــنون أفضــل ما يأمله المرء من علاقة بين رجل متقدم فى الســن وفــتاة فى العشرين، أفضل بالتأكيد من هوى متملك لقد ناورت مع فكرة الطلب منها للعيش معى. أحاول ان أتذكر أى كابوس تملكنى عندما دفعتها بعيداً عنى، لكننى ُخفق. أقول لها، ان فعلتها ثانية يوما ما، عليك ان تعدى بإيقاظى .

فى مكتــبى فى دار المحكمة، بعدئذ، يعلن عن قدوم زائر. العميــد جول مرتدياً، فى داخل الغرفة، غطائى عينيه، يجلس ليعد دخوله فى مواجهتى. ُقدم الشاى إليه، مندهشاً لمدى ثبات يــدى. يقــول انه على وشك الرحيل، هل يتوجب على إضفاء فرحتى؟ يحتسى شايه، جالساً بعناية، منتصباً، متفحصا الغرفة، صــفوف هــن أوراق فــوق صفوف مرزومة معا ومشدودة بــرباط، ســجلات لعقــود مــن الإدارة المملة، حافظة كتب للنصوص القانونية، المكتب المركوم بغير انتظام. يقول، انه قد أنــهى استقصــاءاته، فى الوقــت الحاضــر، وانه مسرع إلى العاصمة لكتابة تقريره. تبدو عليه سيماء انتصار يسيطر عليها بقــوة. أحنى رأسى متفهما. أقول له: ماذا يمكننى أن أفعل من اجــل تسهيل مهمتك...؟ تمر برهة من السكون بيننا. ثم إلى

الصمت، اقذف بسؤالى، مثل حصاة ترمى فى بركة: هل كانت تحقيقاتك أيها العميد بين أقوام البدو والبدائيين ناجحة كما كنت تأمل؟

يقرب يديه، رأس أصابع يدٍ إلى رأس أصابع الأخرى، قبل أن يجيب. امتلك إحساساً من معرفته إلى أى درجة كبيرة تثيرنى عواطفه. نعم، أيها القاضى، أستطيع أن أقول: إننا قد حققنا بعض النجاح. وخاصة أن تضع فى الاعتبار أن تحقيقات مماثلة، تجرى فى أماكن أخرى على طول الحدود، وبشكل متناسق .

ذلك أمر حسن. هل يمكنك أن تخبرنا فيما إذا كان هناك ما نخشاه؟ هل بإمكاننا النوم بأمان فى الليل؟ .

تتجعد زاوية فمه فى ابتسامة ضيقة. يقف بعدئذ، ينحنى، يستدير ويغادر. فى ساعة مبكرةٍ من صباح اليوم التالى يرحلٍ برفقة حارسه الضئيل، متخذاً الطريق الشرقى الطويل، عائداً إلى العاصمة.

لقد تدبرنا طوال مدة مرهقة، أن يتصرف كل واحد منا نحو الآخر، كأناس متحضرين. لقد آمنت طوال حياتى بالسلوك المتحضر، وفى هذه المناسبة، لا أستطيع أن أنكر، ان الذاكرة تتركنى مشمئزاً من نفسى.

كان عملى الأول زيارة السجناء. افتح أقفال قاعة الثكنات،

الـــتى أصبحت سجناً لهم، تتقزز حواسى بسبب الرائحة النتنة لـــلعرق والـــروائح الكـــريهة الأخـــرى. أفـــتح الأبواب على مصـــراعيها. أخـــرجوهم مـــن هنا! أصيح بوجه الجنود - المـــرتدين نصـــف ملابســـهم الواقفين حولنا، يراقبوننى وهم يتناولون حساءهم. من خلال العتمة فى الداخل، يحدق السجناء بلا مبالاة بالمقابل. أصرخ، اذهبوا إلى الداخل ونظفوا المكان تمامـــاً. أريد أن يبدو كل شىء نظيفاً! صابون وماء! أريد أن يعـــود كل شىء إلى ما كان عليه من قبل! يسرع الجنود لتلبية الأوامر، لابد أنهم يتساءلون، لماذا أوجه غضبى نحوهم. يخرج الســـجناء إلى ضوء النهار، تطرف أعينهم، يقومون بتغطيتها. إحـــدى النسوة فى حالة تستدعى المساعدة. إنها ترتعش طوال الوقـــت مثل شخص عجوز، على الرغم من كونها شابة. هناك آخرون مرضى أيضاً، لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم.

مضـــت خمســـة أيام على رؤيتى إياهم (ان كنت أقدر على الادعـــاء قـــط من رؤيتى لهم، ان فعلت قط أكثر من المرور ببصرى على وجوههم بغير انتباه ومع نفور...). لا أعرف ما الـــذى عـــانوه فى خلال هذه الأيام الخمسة. الآن وبعد أن تم اقتيادهم من قبل الحراس، يقفون فى حزمة صغيرة يائسة، فى زاويـــة مـــن الساحة، البدو والصيادون معا، مرضى، جوعى، متضـــررون، فـــزعون. سيكون من الأفضل، لو ينهى وعلى الفـــور هـــذا الفصـــل الغريب من تاريخ العالم، أن تمت إزالة

هــؤلاء القوم من على وجه الأرض وأقسمنا نحن على أن نبدأ مــن جديد من أجل إدارة إمبراطورية لا يوجد فيها المزيد من الظلم، لمزيد من الألم. سيكلف الأمر قليلاً، أن نقودهم خارجا فى مسيرة إلى الصحراء (بعد أن نضع فى جوفهم وجبة طعام، ربمـــا كى نجعل المسيرة ممكنة)، أن ندفعهم كى يحفروا بآخر قـــوة فيهم، حفرة يكون حجمها كافيا (أو ربما نحفرها لهم!)، وندعهـــم مدفونين، هناك إلى أبد الآبدين، وأن نعود إلى البلدة المسورة ممتلئين بنوايا جديدة، وقرارات جديدة. ولكن ذلك لن يكـــون طـــريقى. رجال إمبراطورية جديدة هم الذين يؤمنون بـــبدايات جديدة، فصول جديدة، صفحات نظيفة. أناضل أنا مع القصة القديمة، آملاً أنها قبل أن تنتهى ستكشف لى عن السبب الـــذى جعلنى أظن أنها جديرة بالعناء. وهكذا يكون الأمر. بعد أن عـــادت إلى اليـــوم مهمـــة إدارة القـــانون والنظام فى هذه الأرجـــاء، آمـــر أن يطعم السجناء، وأن يستدعى الطبيب إليهم لعمل ما فى وسعه، أن تعود الثكنات إلى كونها ثكنات، أن تتخذ الترتيبات لإعادة السجناء إلى حياتهم بأسرع وقت ممكن، والى أبعد حد ممكن.

* * *

٢

تجـثو فى ظـل جدار الثكنات على مسافة عدة ياردات عن الـبوابة، ملـتفة فى معطف جد واسع عليها، قبعة من الفراء أمامهـا عـلى الأرض. لديها الحاجبان المستقيمان الأسودان، الشـعر الأسـود الـلماع للـبرابرة. ما شأن امرأة بربرية فى الاسـتجداء بالبـلدة؟ لا يوجـد فى قبعتها غير عدد ضئيل من الفروش.

أمر بها مرتين تقريبا فى خلال النهار. تمنحنى فى كل مرة نظـرة غريبة، محدقة باستقامة إلى الإمام، حتى أقترب منها، عـندئذ تديـر رأسها عنى ببطء شديد. فى المرة الثانية أسقط قطعـة نقود فى القبعة. أقول، الجو بارد و لوقت متأخر للبقاء خارج البيوت . تومئ برأسها. الشمس تغيب خلف شريط طويل وضيق من غيوم سوداء. الريح القادمة من الشرق، بدأت الآن تحمل ذرات من الثلج. الساحة خالية، أمضى إلى الأمام.

لـم تكـن هناك فى اليوم التالى، أتحدث مع حارس البوابة، كانت امرأة تجلس هناك طوال يوم أمس، تتسول. من أين آتية هى؟ . يجيـب لأن المرأة عمياء. إنها واحدة من البرابرة التى جاء بهم العميد إلى هنا. لقد تركت وراءهم بعد رحيلهم.

أراها، بعد بضعة أيام، تجتاز الساحة، تسير ببطء وبارتباك

بعكازين، أطراف معطفها المصنوع من جلد الخراف، تتجرجر خـلفها في الـتراب. أصـدر أوامري: بأن تستدعى إلى حيث أسـكن، حيث تقف أمامى متوكئة على عكازين. أقول انزعى – قبعـتك ، يقـوم الجندى الذى كان قد جلبها إلى بنزع القبعة عنها. إنها عين الفتاة، الشعر الأسود نفسه بقصة على الجبين، الفم الواسع نفسه، العينين السوداوين اللتين تتطلعان مباشرة ثم تتجاوزاننى.

يقولون لى: انك عمياء .

تقول، 'أستطيع أن أرى تتحرك عيناها مبتعدتين عن وجهى وتستقران فى مكان ما خلفى من جهة اليمين.

مـن أيـن قدمت؟ . ألقى بلا تفكير نظرة خاطفة من فوق كتفى. أنها لا تحدق فى شىء غير جدار خال. أصبحت نظرتها أكـثر صـراحة. عارفاً، بالتو، الجواب، أعيد سؤالى، تواجهه بالصمت.

أصرف الجندى. نبقى وحدنا.

أقول: اعرف من تكونين. هل تسمحين بالجلوس؟ . أتناول عكازيها أساعد فى إجلاسها على مقعد بلا مسند. تحت معطفها تـرتدى سروالاً تحتانياً عريضاً من الكتان، أدخلت أطرافه فى حـذاء ذى ساق طويلة (جزمة) وبنعل ثقيل. تفوح منها روائح دخان، ملابس بالية، وسمك. يداها خشنتان.

أسأل: هل تكسبين رزقك بالتسول؟ ليس من المفروض، كما تعــلمين ، أن تكـــونى فى البلدة. بإمكاننا طردك فى أى وقت وإعادتك إلى قومك .

تجلس محدقة إلى الأمام بشكل غريب.

أقول: انظرى إلى .

أنا انظر. هكذا أبدو .

أحـــرك يداً أمام عينبها. تطرف عيناها. أقرب وجهى منها وأتفرس فى عينيها. تدير نظرتها من الجدار نحوى. القزحيتان، عوضـــتا بـــبياض كالحليب، صافيتان كعيون الأطفال. ألمس خدها. تجفل.

سألت كيف تكسبين رزقك؟

تهز كتفيها، اغسل الملابس .

أين تقيمين؟

أعيش .

نحـــن لا نسمح بالمتسولين فى البلدة. الشتاء على الأبواب. لابـــد ان يكـــون لديك مكان ما للسكن، والا فعليك أن تمضى عائدة إلى قومك .

تجلس بشكل فظ. أدرك أننى أحوم حول الموضوع.

بإمكـــانى توفير عمل لك. أريد أحداً يعتنى بترتيب الغرف وبـــتدبير أمــر الغسيل. المرأة التى تقوم بهذه الأعمال حالياً، ليست مناسبة .

تدرك ما أعرضه عليها. تجلس متصلبة، يداها فى حضنها.

هل أنت وحيدة؟ أرجو الإجابة؟

نعم ، يأتى صوتها هامسا. تنظف حنجرتها، نعم .

قدمـــت عرضـــاً بوجـــوب قدومـــك للعمل هنا. لا يمكنك الاســـتجداء فى الشـــوارع. لا أستطيع السماح بذلك. ولابد من مكـــان للإقامة فيه. بإمكانك، إن عملت هنا، مشاركة الطباخة غرفتها .

إنك لا تفهم. أنت لست فى حاجة إلى واحدة مثلى. تتلمس الطريق إلى عكازيها. أدرك أنها غير قادرة على الإبصار.

أنـــا... ، تمسك بسبابتها، تقبض عليها، تلويها. لا امتلك أنا فكـــرة عما تعنيه الحركة. هل بإمكانى الذهاب؟ . تجد بنفسها الطـــريق نحـــو رأس السلم، وبعد ذلك، كان عليها الوقوف فى انتظارى لمساعدتها على النزول.

يـــوم يمر. أحدق فى الساحة ملياً، حيث الريح تطارد هبات الـــتراب. ولدان صغيران يلعبان بطوق. انهما يطلقانه للريح ، الطوق يتدحرج إلى الأمام، يتباطأ، يتأرجح، يعود إلى الوراء،

يسـقط. يرفع لولدان وجهيهما ويركضان خلفه، الشعر يتطاير عن جبينيهما الأملس.

أجـد الفـتاة وأقف أمامها. تجلس وظهرها مسند إلى جذع إحـدى أشجار الجوز الضخمة. من الصعب ملاحظة إن كانت مسـتيقظة. أقـول، تعـالى ، وألمـس! قبعتها وأناولها إياها، أساعدها فى الوقوف على قدميها، أسير ببطء إلى جوارها عبر السـاحة الخالية الآن إلا من حارس البو بة، الذى يظلل عينيه، للتحديق بنا.

النار موقدة. أسدل الستائر، أشعل المصباح. ترفض الجلوس عـلى لمقعد، ولكنها تستسلم وتتخلى عن عكازيها وتجثو على السجادة.

أقـول: الأمـر ليـس مـا تعتقدينه'. الكلمات تخرج على مضـض. هل أنا حقاً على وشك تبرير نفسى؟ شفتاها مطبقتان بشـدة، أذناهـا بـلا شـك أيضاً. إنها لا تريد شيئا من رجال مـتقدمين فى السـن وضـمائرهم التى تنطق بالشكوى. أدور حولهـا، مـتحدثاً عن قانون البلدة المحلى، مشمئزاً من نفسى. بشرتها تبدأ بالتوهج من دفء الغرفة لمغلقة، تسحب معطفها، تعـرض رقبـتها للـنار. البعد بينى وبينها معذب، وهو جدير بالإهمال. يقشعر بدنى.

أريـنى قدميـك، قول بالصوت الجديد الذى يبدو أنه لى.

'أرينى ما فعلوه بقدميك .

إنهـــا لا تســـاعدنى ولا تمنعنى. أحل الأشرطة الجلدية عن ثقــوب المعطف، افتحه اخلع عنها الحذائين. انه حذاء (جزمة) مــن نــوع الأحذيـــة الرجالية، جد واسع عليها. وقدماها، فى داخلهما ملفوفتان، لا شكل لهما. أقول، دعينى أر .

تــبدأ فى فك الأربطة القذرة. أغادر الغرفة، أنزل تحت إلى المطــبخ. أعود بطست وإبريق ماء دافئ. تجلس منتظرة على السجادة. قدماها عاريتان. إنهما عريضتان، والأصابع غليظة، الأظافر مكسوة بطبقة من القذارة.

تمرر إصبعاً عبر طرف كاحلها، هنا، المكان الذى انكسر، الآخر أيضاً . تميل إلى الخلف مستندة على يديها وتمد قدميها.

أقــول: هــل يؤلمك؟ . أمرر إصبعى على الخط، دون أن أحس بشىء.

لم يعد كذلك، لقد اندمل. ولكن ربما عندما يبرد الجو .

أقــول: عليك بالجلوس . أساعدها فى خلع معطفها، أجلسها عــلى المقعد. أصب الماء فى الطست، وأبدأ فى غسل قدميها. تــبقى قدماهـــا متصـــلبتان لوهلة، ثم تستريحان. مكوناً رغوة صـــابون، أغســـل على مهل، قابضاً على ربلة الساق بلحمها المتماسك، معالجاً عظام قدميها وعروقهما، ممرراً أصابعى بين

أصابعها. أغير موضعى لأجثو، ليس أمامها، بل إلى جوارها، إذ إننى بالإمساك بالساق بين المرفق والجنب، أكون قادراً على تدليك القدم بكلتا يدى.

أفقد صوابى فى إيقاع ما أفعله. أفقد الإحساس بوجود الفتاة نفسها. هناك فاصلة من الزمن خالية بالنسبة لى، ربما حتى أنا غيـــر موجـــود فيها. عندما أعود إلى نفسى، أصابعى تكون قد ارتخت، القدم ترتاح فى الطست، رأسى يتدلى.

أجفـــف القـــدم اليمنى، أتحول إلى الجهة الأخرى، أرفع ساق الســـروال العريض حتى الركبة، أقاوم النعاس، أبدأ بغسل الساق اليســـرى. قُـــول، تغدو هذه الغرفة، أحياناً، حارة جداً . لا يقل ضغط ساقها على جنبى. أواصل حديثى، سأبحث عن ضمادات نظيفـــة لقدمـــك، ولكـــن ليس الآن . أدفع الطست جانباً وأجفف القدم. أحس أن الفتاة تجهد نفسها للوقوف، ولكنى أفكر ان عليها الآن أن تعتـــنى بنفســـها. عيناى مغلقتان. يصبح الاحتفاظ بهما مغلقتين سعادة بالغة، أن أستمتع بدوار منتهى البهجة.

أتمدد على السجادة. وفى لحظة أستغرق فى النوم. أستيقظ فى منتصف الليل، مقروراً ومتصلباً. النار انطفأت، الفتاة رحلت.

* * *

أرقـــبها تـــأكل، إنها تأكل كشخص أعمى، محدقة فى لقطة

بعيــدة، تتــلمس طريقها، تمتلك شهية جيدة، شهية امرأة ريفية قوية.

أقول: ألا أصدق أنك قادرة على الإبصار .

نعم، بإمكانى الإبصار. عندما أنظر باستقامة ، لا أجد شيئاً، هناك... (تدعك الهواء أمامها، مثل شخص ينظف نافذة).

أقول: لطخة .

هــناك لطخـــة، لكننى أستطيع الرؤية عبر زاويتى عينى. العين اليسرى افضل من اليمنى. كيف يمكننى إيجاد طريقى إن لم أكن قادرة على الرؤية.

هل فعلوا هذا بك؟

نعم .

ماذا فعلوا؟

تهــز كــتفيها وتصمت. صحنها فارغ. أصب لها المزيد من يخــنة الفاصــولياء التى يبدو أنها أعجبتها كثيراً. تأكل بسرعة كبيرة. تتجشأ خلف يد كأسية الشكل ثم تبتسم. تقول، الفاصولياء تولــد الغــازات . الغرفة دافئة، معلق معطفها فى زاوية وتحته حذاؤهــا، إنها ترتدى القميص الأبيض فقط والسراويل الطويلة. عــندما لا تكــون ناظرة نحوى فأنا كلب صيد من كثرة التحرك حواليهــا. غيــر قــادر على تحديد محيط دائرة بصرها. عندما

تتطـلع نحـوى، أكون لطخة، صوتاً، رائحة، مركز طاقة تسقط في الـنوم وهى تغسـل قدميهـا وفى اليـوم الـتالى، تطعمها الفاصوليا، وفى ليوم التالي- إنها لا تعرف.

أجلسها، ملأ الطست، ألف أطراف السراويل حتى ركبتيها. والآن وبعد أن تصبح قدماها معاً فى الماء، أستطيع أن أرى أن اليسرى ملتوية أكثر إلى الداخل من اليمنى. وأنها عندما تقف، يـتوجب علبها الوقوف على الحافة الخارجية لقدمها. كاحلاها ممتلئان، لا شكل لهما، البشرة ذات ندوب أرجوانية.

أبدأ بغسلها. ترفع قدميها لى بالتتابع. أدلك وأدعك الأصابع الـرخوة بواسـطة الصـابون اللبنى الناعم. سرعان ما تنغلق عيناى، يتخاذل رأسى. إنها نشوة من نوع ما.

بعـد الانـتهاء من غسل قدميها أبدأ بغسل ساقيها. من أجل هـذا، عـليها الوقـوف فى الطست والاستناد إلى كتفى. يداى تتحركان أعلى وأسفل ساقيها من لكاحلين حتى لركبتين، خلفا وأمامـاً، معتصراً، ملاطفاً ومربتاً. ساقاها قصيرتان وقويتان، قويـة الربلـتين. تتحرك أحياناً أصابعى خلف ركبتيها، متتبعة العـروق، ضـاغطة على الفراغات بينهما، خفيفة كريشة تتيه صاعدة نحو فخذيها.

أساعدها فى الذهاب إلى السرير، وأجففها بمنشفة دافئة. أبدأ بتشـذيب وتـنظيف أظافـر قدميها. ولكن أمواج النوم، تكون

آنذاك، متدفقة فى. أفاجأ برأسى منحنياً، جسدى متهالكاً إلى أمام فى غيبوبة. أضع المقص بعناية جانباً، ثم أنام، بكامل ملابسى، عـــلى الســـرير بجوارها، بشكل متعاكس، رأسى نحو قدميها. أطـــوى ســـاقيها بين ذراعى، أضع رأسى عليهما، وفى لحظة أكون نائماً.

أصـــحو فى الظلام. ضوء المصباح منطفئ، ورائحة ذبالة محـــترقة فى المكان. أنهض وأفتح الستائر. تنام الفتاة مجتمعة عـــلى نفســـها، ركبتاها مشدودتان نحو صدرها. تتأوه، عندما ألمسها، وتجمع نفسها بشدة أكثر.

أقـــول، إنك تتعرضين للبرد . ولكنها لا تسمع شيئاً. أفرش بطانية فوقها ثم بطانية ثانية.

* * *

تـــأتى أولاً طقوس الاغتسال، وهى عارية من أجلها، أغسل قدميهـــا، كمـــا فى الســـابق، ساقيها وردفيها. يداى المصوّبتان تـــرحلان، من دون اهتمام كما أحس إلى ما بين فخذيها. ترفع ذراعيها وأنا أغسل إبطيها. أغسل بطنها، صدرها، أدفع شعرها جانباً وأغسل رقبتها، حنجرتها. إنها صبور. أشطفها وأجففها.

تستلقى على السرير، أدعك جسدها بزيت اللوز. اغلق عينى وأفقد صوابى فى إيقاع الدعك، بينما النار، مغذوّة بكومة عالية، تهدر فى الموقد.

لا أمتلك أى رغبة فى دخول هذا الجسد القوى الممتلئ الفوى الصغير المتلألئ الآن فى ضوء النار. مضى أسبوع على تبادلنا الكلام. أطعمها، آويها، استعمل بدنها، إن كان الأمر كذلك كهذه الطريقة الغريبة. كانت هناك لحظات تتصلب فيها لمداعبات حميمة معينة، ولكن جسدها الآن يستسلم عندما أفرك رأسى ببطنها أو أمسك بقدميها بين فخذى. إنها تستسلم لأى شىء. تتسلل أحياناً إلى النوم قبل أن أنتهى. بعمق تنام كما الأطفال.

بالنسبة لى، أقدر، تحت بصرها الأعمى، على نزع ثيابى، فى الدفء الشديد للغرفة، دون ارتباك، معرّيًا، ساقىّ النحيفتين، أعضائى لتناسلية المسترخية، بطنى، والصدر المتهدل لرجل عجوز مثلى، وحنجرتى ذات الجلد الشبيه بجلد ديك رومى. أجد نفسى متجولاً فى المكان، دون تفكير بهذا العرى، وابقى أحياناً، متدفئاً عند النار، بعد أن تخلد الفتاة إلى النوم، أو أقرأ جالساً على كرسى.

ولكننى فى الغالب، فى تمام فعل ملاطفتها، يتغلب على النوم، مثل فأس جزار، أسقط فى لا وعى وأنبطح على جسدها بغير انتظام، وأصحو بعد ساعة أو ساعتين، دائخاً، مرتبكا، عطشاناً. هذه النوبات الخالية من الأحلام أشبه بموت بالنسبة لى أو سحر، فراغ مطلق خارج الجسد.

ذات أمســية، ماســحا جلدة رأسها بالزيت، مدلكا صدغيها وجبيــنها، ألاحظ فى زاوية إحدى عينيها تجعيدة بلون ضارب إلى الرمادى وكأنما يرقة فراشة تستلقى هناك، ترعى، ورأسها تحت جفن الفتاة. أسأل متتبعا اليرقة بإصبعى، ما هذا؟

ذلك حيث لمسونى، تقول وهى تدفع يدى بعيداً.

أيؤلمك؟

تهز رأسها.

دعينى أر

الأمر قد بدا يتضح لى أكثر وأكثر. إنه ما لم تُكتشف وتُفهم معــنى العلامــات على جسد هذه الفتاة. فإننى غير قادر على الســماح لها بالذهاب. بين السبابة والإبهام، أفصل بين جفنيها. اليــرقة تصــل نهايتها، حيث ينقطع رأسها، عند حافة الزاوية الوردية للجفن. لا توجد علامات أخرى. العين لم تمس.

أنظر فى العين. هل أصدق أن نظراتها المستجيبة، لا ترى شيئاً – ربما قدمى، أجزاء من الغرفة، دائرة مضببة من ضياء. وأمــا فى الوســط، حيث أنا، فلا شىء غير الضباب، الفراغ؟ أمرر يدى ببطء أمام وجهها، مراقباً بؤبؤها. لا أميز حركة ما. انها لا تطرف. لكنها تبتسم: لماذا تفعل هذا؟ هل تعتقد أننى لا أبصر ؟

عينان بنيتان، بنيتان جداً، وكأنهما سوداو ن.

ألمس بشفتى جبينها. أدمدم، ماذا فعلوا بك؟ لسانى يطىء، أتأرجح جهداً. لماذا لا تريدين إخبارى؟

تهز رأسها. أتذكر و ُنا على حافة اللاوعى، أن أصابعى فى مرورها على وركيها، أحسست بشبح خطوط متشابكة مرتفعة تحت الجلد. أغمغم، لا شىء أسو ء مما نتخبله . لا يبدو عليها علامـــة مـــا عـــلى أنها حتى قد سمعتنى. أستلقى متهالكا على المضـــجع، ســـاحباً إياها إلى جوارى، متثائباً. أريد أن أقول، احـــكى لى، لا تجعـــلى من الأمر سراً. الألم هو الألم . ولكن الكـــلمات تنفـــلت منى. تلتف ذراعاى حولها، شفتاى فى فراغ أذنها، ُجهد نفسى كى أتحدث، ثم تسقط العتمة.

* * *

لقـــد خلصـــتها من عار التسول، وعينتها خادمة فى حجرة غســـل الأطباق والأوانى. من المطبخ إلى سرير القاضى فى ســـت عشـــرة درجـــة سهلة هكذا يتحدث الجنود عن خادمات المطـــبخ. مـــن أقوالهم الأخرى، ما هو آخر ما يفعله القاضى عندما يغادر صباحاً؟ – إنه يحجز أحدث فتياته فى الفرن. كلما كـــانت البـــلدة أصغر، اغتنت همهمات القيل والقال. لا توجد مسائل شخصية هنا. القيل والقال هو الهواء الذى نتنفسه.

انهــا، فى جــزء مــن الــنهار ، تغســل الأوانى، تقشــر الخضــراوات، تساعد فى إعداد الخبز وتهيئ الأعمال الرتيبة المتعــلقة بالعصيدة والحساء واليخنة، التى تقدم للجنود. وهناك إلى جوارها، السيدة العجوز التى سيطرت على المطبخ طوال المــدة الــتى أمضيتها كقاض، تقريبا، وأيضاً فتاتان، الصغرى مــنهن صعدت الدرجات الست عشرة مرة أو مرتين فى العام الماضــى. أشــعر، فى بــادئ الأمر، بالخوف من أن الاثنتين ســتتحدان ضــدها، ولكــن لا، يــبدو أنهن وبسرعة أصبحن صــديقات. مجــتازاً باب المطبخ فى طريقى للخروج، أسمع، مختــلطا لــدفء الــبخار، أصواتاً، ناعمة، تثرثر، وتضحك. استمتع بتتبع أثر باهت للغيرة فى داخلى.

أسألها، أأنت راغبة فى العمل؟

أحب الفتيات الأخريات. إنهن لطيفات.

انه على الأقل، افضل من الاستجداء. أليس كذلك؟

نعم.

الفــتيات الــثلاث ينمن معاً فى غرفة صغيرة، على مبعدة أبــواب عــن المطبخ، إن لم يكن نائمات فى مكان آخر. إنها الغرفة التى تجد هى طريقها إليها فى الليل أو فى ساعة مبكرة فى الصــباح. لا شــك ان صديقاتها قد ثرثرن حول مواعيدها هذه، والتفاصيل كلها فى طول ساحة السوق وعرضها.

كــلما كــان الــرجل متقدما فى السن كُثر، اعتبر ارتباطه بجنس آخر أكثر غرابة. مثل تشنجات حيوان ميت. فأنا لا اقدر أن ألعب دور رجل حديدى أو أرمل قديس.

ضــحكات نصــف مكــبوتة، دعابات، نظرات تقول بأنها تعرف، هى جزء من ثمن قررت دفعه..

أسألها بحذر، هل تحبين العيش فى البلدة؟

أحــب ذلــك فى أغــلب الأحيان. هناك أمور أكثر يفعلها المرء.

هل هناك أشياء تفتقدينها؟

أفتقد شقيقتى .

أقول، إن كنت حقاً تريدين العودة، سأعمل لتؤخذين .

تقــول، أؤخــذ إلى أيــن؟ . تتمدد على ظهرها وذراعاها موضوعتان على صدرها. أستلقى إلى جوارها، متحدثاً بنعومة. هــذا هو الموضع الذى يحدث فيه القطع دائماً. هنا حيث يدى تداعــب بطــنها، تبدو فيه خرقاء تماماً كسرطان بحر. الدافع الحسي، إن كان هذا ما قد يكون يرتخى، وباندهاش أجد نفسى، متعلقاً بهذه الفتاة البليدة، غير قادر على تذكر أى شىء رغبت به فيها قط، غاضبا على نفسى، لأننى أريدها ولا أريدها.

هى شخصــيا غافــلة عن تأرجح مزاجى، لقد بدأت أيامها

تستقر فى سياق رتيب، تبدو فيه مقتنعة. فهى فى الصباح وبعد مغـادرتى، تـأتى لكنس وتنظيف الشقة. ثم تساعد فى المطبخ لإعـداد طعـام منتصـف النهار، ساعات الظهيرة فى الغالب تخصـها وحدهـا. بعـد وجـبة المساء، وبعد أن تكون كافة الصـحون والقدور قد كلت والأرضية غسلت والنار أخمدت، تترك رفيقاتها وتأخذ طريقها صاعدة السلم إلى. تخلع ملابسها وتسـتلقى على الفراش، فى انتظار ملاطفاتي الغامضة. ربما أجلس بجوارها، مطبطبا على جسدها، منتظراً فورة دم، قد لا تأتى قط بشكل حقيقى. ربما أطفئ المصباح ببساطة وأستقر فى لفـراش بجوارهـا. فى الظـلمة، سرعان ما تنسى وجودى وتسـتغرق فى الـنوم. وهكـذا أتمدد جنب هذا الجسد الشاب الموفـور الصـحة، بينما يكون فى خلال ذلك، ينسج نفسه فى خلال النوم للحصول على مزيد من القوة، يعمل بصمت، حتى عـند درجات الضرر الذى لا ينصلح، العينان، القدمان، ليكون سليماً ثانية.

أرمى بذاكـرتى إلى الوراء، محاولاً استعادة صورة لها كما كـانت مـن قبل. على أن أقتنع بأننى لا بد قد رأيتها فى اليوم الذى جلبت فيه من قبل الجنود مربوطة الرقبة إلى رقبة سجين بربرى آخر. أعلم أن نظرتى لابد أن تكون قد مرت عليهـا، عـندما جلست مع جمع الأسرى فى ساحة الثكنات، فى انتظار الذى سيحدث فى الخطوة التالية. عيناى عبرتا عليها، ولكننى لا

أحمـــل أى ذكـــرى لذلك العبور. فى ذلك اليوم، كانت ما تزال خاليـــة مـــن العلامـــات. ولكـــن على أن أقتنع بأنها كانت بلا علامـــات، كمـــا على أن أقتنع بأنها ذات يوم كانت طفلة، فتاة صـــغيرة ذات ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها، تركض خلف حَمَلها المدلل فى عالم حيث أمضيت فى مكان بعيد عنها بخطى واسـعة ريعان حياتى. مجهداً نفسى كما أرغب، تبقى الصورة الأولى التى أتذكرها هى الفتاة الجاثية المستجدية.

لـــم أدخل بها بعد. لم تجرفنى الرغبة ومنذ البداية إلى ذلك الاتجـــاه. إيـــواء عضـــوى الذابـــل لرجل مسن فى ذلك الغمد الساخن، يجعلنى أفكر بمادة حمضية فى حليب، رماد فى عسل، طباشـــير فى خـــبز. عـــندما أتطلع إلى جسدها العارى وإلى جســـدى، أدرك أنـــه من المستحيل أن أعتقد بأننى فى يوم من الأيـــام قد تخيلت الشكل البشرى على شكل وردة تشع من نواة فى منطقة العانة. هذان الجسدان، لها ولى، مسهبان واهيان لا مركز لهما، يبرمان فى لحظة ما حول دوامة هنا، وعند التالية يتخـــثران يثخـــنان فى مكان آخر، ولكنهما فى الغالب راكدان وغيـــر مـــثمرين. لا أعرف ماذا أفعل معها، أكثر مما تعرف سحابة فى السماء أن تفعله مع أخرى.

أرقـــبها وهى تخلع ملابسها. محاولاً أن أعثر فى حركاتها عـــلى إشـــارة مـــا لحالة حرة قديمة. ولكن حتى الحركة التى

تسـحب بهـا ثوبهـا من أعلى رأسها وترميه جانباً، مبهمة، دفاعيـة، مفيـدة، وكأنما كانت خائفة من الارتطام بعائق غير مرئى. وجهها يحمل نظرة من يعرف أنه مراقب.

مـن صـياد يضع الشراك، اشتريت ثعلباً فضياً صغيراً، لا يتجاوز عمره بضعة شهور، فطم منذ أمد قريب، له أسنان مثل منشار جيد. أخذته هى معها فى اليوم الأول إلى المطبخ، لكنه ذعـر مـن النار والأصوات، وأنا، لهذا السبب أبقيه الآن فى الطـابق العـلوى، حيث يربض تحت قطع الأثاث. أسمع، فى خـلال الـليل، أحيانـاً صـوت طقطقة مخالبه على الأرضية الخشبية، حيث يتجول. إنه يلعق من إناء حليب ويأكل فضلات الـلحم المطهو. لا يمكن تربيته فى البيوت، فسرعان ما بدأت رائحـة فضلاته تنتشر فى الغرف. ولكن الوقت ما زال مبكراً جـداً على تسريحه ليتجول فى الساحة. وبين كل بضعة أيام، أنادى حفيد الطباخة ليزحف خلف الخزانة وتحت الكراسى من اجل تنظيف القاذورات.

أقول، إنه مخلوق جميل جداً .

تهز كتفيها، الحيوانات تنتمى إلى العراء .

هل تريدين أن آخذه إلى البحيرة وأطلقه هناك؟

إنـك لا تقدر على القيام بذلك، إنه صغير جداً، وهو سينفق جوعاً أو تصيده الكلاب .

وهكــذا يبقى الثعلب الصغير معنا. أرى أحياناً خطمه الحاد يتسلل من خارج زاوية مظلمة. وما عدا ذلك فهو مجرد صوت في الليل، ورائحة نفاذة للبول، منتظراً أن يكبر إلى درجة كافية للتخــلص منه. سيقول لناس إنني أحتفظ بحيوانين بريين في مسكني، ثعلب وفتاة .

لا تفهم الدعابة، أو أنها لا تعجبها. شفتاها مطبقتان، نظراتها مركزة بقوة على الجدار، أدرك أنها تبذل أقصى ما في وسعها للــنظر نحــوي. يميل قلبي إليها، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ فســواء كــنت مــرتدياً أرواب عملي المزخرفة، أو كنت أقف عارياً أمامها، أو أمزق صدري وأفتحه لها، فإنني الرجل نفسه. أقــول، أنــا آسف ، أبسط خمسة أصابع مجندة وأمسد شعرها بالتأكيد، انه مختلف .

واحد بعد آخر، أقابل أولئك الرجال الذين كانوا في الواجب عــندما كان لتحقيق يجري مع السجناء. أحصل من كل وحد منهم على المعلومات نفسها. إنهم نادرا ما تحدثوا مع السجناء، لم يسمح لهم بدخول الغرفة التي كان التحقيق يجري فيها، وهم غيــر قادرين على معرفة ما كان يدور هناك. ولكنني أحصل مــن المــرأة المسؤولة عن الكنس، على وصف للغرفة نفسها: مجــرد مــائدة صــغيرة، وكرسي بلا مساند، ثلاثة كراسي، وحصــيرة في الزاوية، وما عدا ذلك، كانت الغرفة عارية من

الأثـــاث... لا، لا نيران، مجرد مجمرة. اعتدت أن أفرغها من الرماد.

والآن والحياة قد عادت إلى طبيعتها، أصبحت الغرفة تحت الاســتعمال مجــدداً. وبناء على طلبى، يسحب الجنود الأربعة الذين كانوا استقروا هناك، خزاناتهم خارجا إلى الرواق، كوموا أمامهم فراشهم، أوانيهم وأكوابهم وفككوا حبال ملابسهم. أوصد الباب وأقف فى الغرفة الخالية. الهواء جامد وبارد. بدأت الآن ميــاه البحيرة فى التجمد من جهة إلى أخرى. الثلوج الأولى قد تســاقطت، من بعيد أسمع أجراس عربة حصان. أغلق عينى وأبذل جهداً فى تخيل الغرفة كما لا بد أنها كانت قبل شهرين، فى خلال زيارة العميد. وأجد صعوبة فى الاستغراق مع وجود الشبان الأربعة فى الخارج، يتسكعون، يفركون أياديهم ببعضها، يدقون الأرض بأقدامهم، يدمدمون، وقد نفد صبرهم، فى انتظار خروجى، وأنفاسهم الدافئة تشكل هبات دخان فى الهواء.

أجــثو على الأرض، لأتفحص أرضية الغرفة. انها نظيفة، وهى تكــنس يومياً، وهى مثل أرضية أى غرفة أخرى. أرى ســخاماً فــوق المصــطلى، على الجدار والسقف. هناك أيضاً علامــة بحجــم كفى حيث تم فرك السخام من على الجدار. ما عدا ذلك فالجدران نظيفة من أى أثر.

أيــة علامات، باستطاعتى البحث عنها؟ أفتح الباب وأشير

إلى الرجال أن يعيدوا حاجياتهم إلى الغرفة.

في مـــرة ثانية، أستجوب الحارسين اللذين كانا في الو جب في الســاحة. حدثــاني بما جرى تماماً عندما تم التحقيق مع السجناء. احكيا ما شاهدتماه شخصياً .

الأطــول يجيــب، غلام ذو فك طويل و ذو مظهر متلهف للعمل وقد استحسنته، باستمر ر، لضابط...

ضابط لشرطة؟

نعــم، كان ضابط الشرطة عتاد لمجيء إلى القاعة حيث احـــتجز السجناء. وكان يشير. وكان علينا جلب لسجناء الذين ُرادهــم وأخذهــم إلى الخــارج للتحقيق معهم. وكان بعد ذلك يعيدهم إلى أماكنهم .

سجين في كل مرة؟

ليس د ئما، أحياناً اثنان .

هــل تــدري أن أحد السجناء توفي لاحقا. هل تتذكر ذلك لسجين؟ هل تعرف ماذا فعلوا به؟

سمعنا أنه اهتاج بشدة وهاجمهم .

نعم؟

هذا ما سمعناه. ساعدت في إعادته إلى القاعة، حيث كانو

نـــائمين جميعاً. كان يتنفس بغرابة. بعمق شديد وبسرعة. كان ذلك آخر ما شاهدته منه. فى اليوم التالى كان ميتاً.

واصــــل حديــثك. أنا مصغ. أريد منك أن تحدثنى عن كل شىء يمكنك تذكره .

يـــبدو الإعيـــاء على وجه الغلام. أنا واثق من أنه قد نصح بعدم الكلام. تم التحقيق مع ذلك الرجل مدة أطول من أى واحد آخـــر. رأيته جالساً وحده، في أحد الزوايا، على غرار ما كان عليه فى المرة الأولى، ممسكاً برأسه . ترف عيناه نحو رفيقه. لم يشأ أكل أى شىء. لم يكن جوعانا. كانت معه ابنته. حاولت هى أن تجعله يتناول الطعام ولكنه رفض .

ماذا حدث لابنته؟

استجوبت هى أيضاً. ولكن ليس طويلاً .

استمر .

ولكن لم يكن لديه المزيد لإخبارى.

أقول، اسمع. كلانا يعرف من تكون الابنة. إنها الفتاة التى تقيـــم معى. الأمر ليس سراً. والآن واصل كلامك. احك لى ما حدث .

أنا لا أعرف، سيدى! لم أكن هنا فى معظم الأوقات . يناشد رفيقـــه، ولكـــن رفيقه أبكم أخرس. كانت هناك صرخات فى بعـــض الأوقـــات. أعـــتقد أنهم قاموا بضربها. ولكننى لم أكن

هناك. فأنا أغادر لمكان، حال انتهاء واجبي .

أنت تعلم بأنها الآن لا تقدر على السير. لقد كسروا قدمها. هل فعلوا هذه الأمور أمام الرجال الآخرين، والدها؟

نعم، أعتقد ذلك .

وهـــل تعلم أنها لم تعد قادرة على الرؤية جيداً. متى فعلوا ذلك ؟

سيدى، كان هنالك العديد من السجناء فى حاجة إلى العناية بهم. بعضهم كان مريضاً! علمت أن قدميها كسرتا، ولكننى لم أعــلم شيئاً عن كونها عمياء إلا بعد وقت طويل. لم يكن هناك مـــا أقــدر على فعله. أنا لم أشأ أن أكون متدخلا فى مسألة لا أفهمها .

لـــم يكـــن لدى رفيقه ما يضيف. أصرفهما. أقول، لا تخافا لأنكما قد تحدثتما إلى .

يعاودنى الحلم فى الليل. أنا أسير مجهداً عبر سهل ثلجى لا نهاية له متوجهاً نحو شخوص بشرية ضئيلة تلعب حول قصر مـــن الثـــلج. وبينما أقترب منهم، يبتعدون جانباً أو يذوبون فى الهواء. شخص واحد يبقى فى المكان. طفلة ذات معطف بقبعة، تجـــلس مديـــرة ظهرها لى. أحوم حول الفتاة، التى تستمر فى التربيت على الثلج، على جوانب القصر، حتى أقدر على التطلع إلى مـــا تحت القبعة. لوجه – الذى أراه – فارغ، بلا ملامح،

إنـــه جنينٌ، أو حوت صغير جداً، إنه ليس بوجه على الإطلاق ولكـــنه جزء من جسم إنسان، ذلك الذى يبرز من تحت الجلد، انـــه أبيض اللون، إنه الثلج نفسه. أقدّم، من بين أصابع خدرة، قطعة من نقود.

* * *

الشـــتاء ترســـخ قى البلدة. تهب الريح من الشمال، وستبقى تهب دون انقطاع فى الأشهر الأربعة القادمة. واقفاً أمام النافذة وجبهـــتى عـــلى الـــزجاج البارد، أسمعها تصفر فوق أفاريز الأســـطح، رافعة ومسقطة آجرة مقلقة. تتعاقب هبات من تراب عبر الساحة، يضرب التراب بسرعة وتكرار جوانب الأشياء. الســـماء ممتلـــئة بـــتراب ناعم، الشمس تنزلق عالياً فى سماء بـــرتقالية وتغيب فى أحمر– نحاسى. هناك بين آونة وأخرى، هبات من الثلج ترقش الأرض – فى وقت قصير – بالبياض. حصـــار الشـــتاء مستمر. الحقول خالية، لا أحد يمتلك مبرراً لـــلذهاب خارج أسوار البلدة، ما عدا قلة من الذين يعتمدون فى معيشـــتهم عـــلى الصيد. عُلق استعراض الحامية، مرتين فى الأســـبوع. مُـــنح الجنود إجازة لمغادرة الثكنات، إن رغبوا فى ذلـــك، والعيـــش فى البلدة، لأن هناك القليل مما يعملونه غير الشـــرب والـــنوم. عندما أذرع الأسوار، فى ساعة مبكرة من الصباح، أجد أن نصف مواقع الحراسة خالية والحراس نائمون

فى خلال وجبهم، ملتفون بالفراء، يجهدون أنفسهم لرفع أيديهم بالـــتحية. وســـواء بالنســـبة لهم، ان مكثوا فى فراشهم. إذ إن الإمـــبراطورية تكـــون آمنة خلال الشتاء. وخارج نطاق أعين الـــبرابرة أيضـــاً، المزدحمون حول مواقدهم، يصرون أسنانهم تجاه البرد.

لـــم يكـــن هـــناك زوار بربريون خلال هذا العام. كان من المعتاد أن تقوم مجموعات من البدو الرحل بزيارة المستوطنة فى الشـــتاء وأن تقيـــم خيامهـــا خارج الأسوار وترتبط بالبيع والشـــراء، مقايضـــين الصـــوت، الجلود، اللباد، المصنوعات الجـــلدية مقابل بضائع قطنية، شاى، سكر، فاصولياء، طحين. نحـــن نثمن المصنوعات الجلدية للبرابرة وعلى الأخص الحذاء (المـــتين) بالســـاق الطويـــلة. الذى يخيطونه. شجعت أنا فى الماضى التجارة، ولكننى منعت الدفع نقدا. كما حاولت أن أبقى الحانـــات والخانات مغلقة بالنسبة لهم. وفوق كل شىء لا أريد أن أرى مســـتوطنة طفيلية تنمو فى أطراف البلدة، يعيش فيها المتسولون والضالون مستعبدين لمشروبات قوية... كان يؤلمنى فى الزمن السالف، رؤية هؤلاء لناس وهم يقعون ضحايا لمكر الباعة من أصحاب الدكاكين، يقايضون بضائعهم بأشياء تافهة، يستلقون. سكارى فى أقنية البالوعات، معززين بذلك ابتهالات المستوطنين المتحاملة عليهم، عن أن البرابرة كسالى، فاسدون، قـــذرون، بليدون. حيث إن الحضارة كانت خلف إفساد فضائل

البرابرة وخلق أناس من الطفيليين، قررت مقاومة الحضارة، وعلى هذا القرار، اعتمدت فى قيادة إدارتى. (أقول هذا، أنا الذى يحتفظ بفتاة بربرية فى سريرى الآن).

ولكن ستاراً سقط. فى هذا العام على طول الحدود. نحدق إلى الخلف من وراء متاريسنا، نحو الأراضى القفر. لأن كل ما نعرفه أن عيوناً أمضى من عيوننا تتطلع بالمقابل. التجارة وصلت إلى نهايتها. ومنذ أن وصلت الأنباء من العاصمة عن أن أى إجراء، مهما كان، يجب اتخاذه، من أجل حماية الإمبراطورية، دون أى اعتبار للثمن، عدنا إلى عهد الغزوات والاحتراس المسلح. ليس هناك شىء نفعله غير الاحتفاظ بسيوفنا لامعة، نراقب وننتظر.

أمضى وقتى فى وسيلتى القديمة للاستجمام، أقرأ الأعمال لكلاسيكية. أواصل تصنيف مجموعاتى المتعددة. أقارن بين ما عندنا من خرائط إقليم الصحراء الجنوبية. وفى الأيام التى لا تكون فيها الريح قارسةً بشدة، آخذ مجموعة من الحفارين إلى العراء لتنظيف الحُفَر فى الكثبان الرملية، وأسافر، مرة أو مرتين، وحدى، وفى ساعة مبكرة من الصباح لصيد الظباء على طول الخط الموازى للبحيرة.

كانت هناك، قبل جيل مضى، أعداد غفيرة من الظباء والأرانب الوحشية بحيث كان يتعين على عدد من الحراس

وكلابهم حرسة الحقول فى دوريات أثناء الليل، من أجل حماية الحـــنطة فى بدء موسم نموها. ولكن وتحت ضغط المستوطنة؟ بـــالأخص من كلاب برية والصيد بوفرة، تراجعت الظباء إلى الخـــلف، نحو الشرق والشمال، نحو منحدرت النهر والشاطئ البعيد. وعلى الصياد ليوم أن يكون مستعدا للسفر راكباً مسافة ساعة على الأقل قبلى أن يتمكن من مطاردة فريسته.

فى بعـــض الأحيـــان، وفى صباح مناسب، يتاح لى أن أستعيد كـــل طاقـــة وخفـــة وحركة مرحلة شبابى. مثل طيف، نحدر من أجمـــة إلى أجمة. منتعلاً حذائى طويل الرقبة المزيت بزيت عمره ثلاثـــون عامـــاً. أخوض عبر مياه متجمدة. أرتدى فوق معطفى، ردائى الكـــبير من جلد الدب. تتشكل قشرة من الجليد على لحيتى، ولكـــن أصابعى تكون دافئة داخل قفازيها. عيناى هادئتان، سمعى قوى، شُم لهواء مثل كلب صيد، أحس بمتعة خالصة.

اترك حصانى اليوم مقيداً حيث ينتهى حد حشائش المستنقع عـــند الســـاحل الجنوبى الغربى الأجرد، وأبدأ فى شق طريقى عبر حُزَم أدغال القصب. الريح تهب قارسة وجافة عمودية فى عيـــنى، الشـــمس معـــلقة مثل برتقالة فى أفق مخطط بالأسود والأرجوانى. وفى الحال تقريباً، وبحظ جيد غير معقول، أفاجأ بظـــبى ماء، كبش بقرون ثقيلة ملتوية، أشعث بردائه الشتوى، واقـــف على طريق جانبىّ، يتأرجح وهو يمدد جسده للقفز فوق

أعـــالي القصــــب، ومـــن مسافة تقل عن ثلاثين خطوة، أرى اســـتكانة حركة شدقيه الدائرية، أسمع طرطشة حوافره، وأميز حول مفاصله دوائر من حبات الجليد.

أنـــا بالكاد تناغمتُ الآن مع ما يحيط بى، ومع ذلك ، وبينما لكبش يرفع نفسه، طاوياً قائمتيه الأماميتين تحت صدره، أستل البـــندقية عالياً وأوجه خلف كتفه. الحركة هادئة وثابتة، ولكن ربمـــا الشمس ومضت على ماسورة البندقية، لأنه فى ارتفاعه، يدير رأسه ويرانى. حوافره تلامس الجليد بتكتكة، يتوقف شدقاه فى منتصف حركتهما، نتطلع إلى بعضنا البعض.

لا يتســـارع نبضى: بوضوح، موت الكبش، أمر غير مهم بالنسبة لى.

يمضــــغ ثانيـــة بمنجل واحد فى إحدى فكيه، ويتوقف. فى هدوء الصباح التام، أكتشف عاطفة غريبة متوارية خلف حافة وعيى. والظبى أمامى معلق فى جموده، يبدو ان هناك وقتاً لكل الأشـــياء. وقتا كافيا لإدارة نظرتى المحدقة إلى داخلى لأفهم ما هـــو الشىء الذى سلب القنص لذته: الإحساس بأن هذا لم يعد قنصـــاً صباحيا، ولكنها مناسبة إما أن يكون الظبى المتغطرس فيهـــا نازفـــاً حـــتى الموت على الجليد، وإما أن يخسر الرجل العجـــوز هدفـــه. ذلك أنه بسبب امتداد هذه اللحظة المتجمدة، انحبســـت الـــنجوم فى ترتيب تصبح فيه الحوادث ليست نفسها

ولكـــنها ترمز لأشياء أخرى. تحت ستارى التافه أقف محاولاً نفى هذأ الإحساس المثير والخارق للطبيعة، حتى يستدير الظبى وبخفقة من ذيله، وطرطشة قصيرة بحوافره يختفى بين القصب العالى.

أسبر مجهداً بلا هدف لمدة ساعة قبل أن أعود راجعاً.

لـــم يتملكنى من قبل قط إحساس بعدم عيش حياتى الخاصة بحسب شروطى لخاصة .

أقول للفتاة جاهداً فى شرح ما حدث. إنها مضطربة بحديث مـــثل هـــذا، أبـــدو كأنـــنى بذلك المطلب، أريد إكراهها على الاستجابة. تقول، أنا لا أفهم ، تهز رأسها.

ألم ترد إطلاق النار على الظبى؟

يمتد الصمت بيننا مدة طويلة.

تقول بثبات، إن كنت تريد أن تفعل شيئاً، افعله ، إنها تبذل جهداً كى تكون واضحة. ولكنها ربما تعنى إن كنت قررت أن تفعلـــه، كـــان عـــليك أن تفعله . فى اللغة البديلة المؤقتة التى نتقاسمها، لا توجد فوارق دقيقة فى المعنى. ألاحظ ان لها ميلاً لـــلحقائق، للأقـــوال العملية، لا تحب الخيال ، الأسئلة، التأمل، نحن زوجان غير منسجمين. ربما أنها الطريقة التى ينشأ عليها أطفـــال البرابرة: استظهار من غير فهم، بواسطة الحكمة التى تعود إلى الآباء والتى تسلم للأبناء.

أقول، أنت، هل تفعلين كل ما تريدين؟ لدى إحساس بأننى قد أطلقت العنان لنفسى، منسحباً بالكلمات إلى مسافة خطرة.

هل أنت هنا فى لفراش معى لأنه الشيء الذى تريدينه؟

تستلقى عارية، بشرتها المزينة تتقد ذهباً نباتياً تحت وهج النار. هناك لحظات - أشعر ببداية واحدة منها الآن- عندما تكون الرغبة التى أحس تجاهها، غامضة عادة، تترجرج في شكل أقدر على إدراكه. تهتاج يدى، تركت عليها، تكيف نفسها مع محيط ثديها.

إنها لا تجيب عن سؤالى، ولكنى أغوص فيه، محتضنا إياها بشدة، متحدثا بصوت أجش ومكتوم فى أذنها: تعالى، اخبرينى لماذا أنت هنا .

لانه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه .

ولماذا أريدك أنا هنا ؟

تتلوى فى قبضتى، تطبق يدها بين صدرها وصدرى. أنت تريد أن تتكلم طوال الوقت ، تتذمر. بساطة اللحظة تنقضى، نفترق ونستلقى بصمت جنباً إلى جنب. أى طير يمتلك قلبا ليغنى فى أيكة من أشواك؟ عليك بعدم الذهاب إلى الصيد إن كنت لا تستمتع به .

أهز رأسى، ذلك ليس مغزى الرواية، ولكن ما فائدة النقاش؟

أنــا مــثل مدير مدرسة غير كفء، أتصيد بكلاب التسالى(*)، بينما يتوجب على أن املأها بالحقيقة..

تتكلم، إنك باستمرار تسألنى ذلك السؤ ل،، لهذا سأحكى لك الآن. كــانت شوكة، شوكة من ذلك النوع الذى له سِنان. كانت هناك عقد صغيرة فوق السن كى تجعلها مثلومة. يضعونها فى الفحــم حــتى تحــمى. ثم يلمسونك بها، ليحرقوك، لقد رأيت العلامات فى المكان الذى قاموا فيه بحرق الناس .

هــل هــذا هو السؤال الذى وجهته؟ أريد أن أحتج ولكننى عوضًا أستمر فى الإصغاء، مقشعراً.

انهم لم يحرقونى، لكنهم قالوا بأنهم سيحرقون عينى، لكنهم لــم يفعلوا. قربها الرجل جدا من وجهى وأرغمنى على لنظر إليها. أمسكوا بجفنى مفتوحين ولكن لم يكن لدى ما أخبرهم به. كان ذلك كل شيء.

كــان ذلــك عندما حدث لضرر. بعدها لم أعد قادرة على الإبصار جيداً. كانت هناك لطخة فى منتصف أى شيء أتطلع إليه. بإمكانى رؤية ما حول الحافات. إنه أمر يصعب شرحه.

(*) لتســالى: خــاص بالطــريقة لسقراطية القائمة على توجيه الأسئلة لمتعاقبة أو شبيه بهذه الطريقة.

ولكـــنها تتحسن الآن. العين ليسرى أصبحت أفضل. ذلك كل شيء.

أتناول وجهها بين يدى وأتفرس فى مركزى عينيها الميتتين، اللـــتين تـــنعكس عـــنهما صـــورتين مماثلتين لى تتطلعان بكآبة بالمقابل. وهذا؟ أقول، متلمساً الأثر الدودى الشكل فى الزاوية.

ذلـــك لا شـــيء. ذلـــك حيـــث مسنى الحديد. أحدث حرقة صغيرة. انه غير مؤلم. تبعد يدى جانباً.

ماذا تحسين تجاه الرجال الذين فعلوا هذه؟

تســـتلقى مفكـــرة مـــدة طويلة. ثم تقول: أنا قد سئمت من الكلام.

* * *

هـــنالك أوقـــات أخرى عندما أعانى من نوبات غيظ تجاه عبوديـــتى لطقوس التزييت والدلك، النعاس، السقوط فجأة فى اللاوعى. أتوقف عن إدراك أى سعادة استطعت اكتشافها يوماً فى عـــنادها، وفى فتور جسدها، بل اكتشفت فى داخلى دوافع لـــلازدراء. أصبحت منطوياً على نفسى، سريع الغضب. تدير الفتاة ظهرها وتستغرق فى النوم.

فى الحالة النفسية هذه، أقوم فى إحدى الأمسيات، بزيارة إلى غرف الطابق الثانى من الفندق،

وبينما أنا أصعد السلم الخارجي الواهن، يمر بي رجل مسرعا وهو يواري وجهه. أطرق على الباب الثاني في الممر وأدخل. الغرفة هي نفسها، كما أتذكرها: السرير مرتب بإتقان، الرف الذي فوقه، مرصوصة عليه الألعاب والدمى، شمعتان مضيئتان. وهج من الدفء منبعث من مسرب أنبوب الهواء الساخن الممتد على طول الجدار، رائحة زهر البرتقال في الجو. الفتاة نفسها مشغولة أمام المرآة. تجفل لدخولي، لكنها تنهض مبتسمة مرحبة بي ثم تدير رتاج الباب. لا شيء يبدو أكثر طبيعيا من إجلاسها على السرير والبدء بخلع ملابسها. تساعدني هي في تعرية جسدها الرشيق، مع قليل من حركات اللامبالاة والتلوي. تتنهد، كم اشتقت إليك! وأهمس، يا لها من بهجة أن أعود! ويالها من بهجة أن يكذب عليك بمثل هذا الإطراء! أحتضنها، أدفن رأسي فيها. أتيه في تهيجها الناعم كعصفورة. جسد الفتاة الأخرى، مغلق، ثقيل، نائم في سريري في مكان بعيد، يبدو عصيا على الفهم. لا أقدر أن أتصور الآن ما الذي جذبني إلى ذلك الجسد الغريب، وأنا منشغل بهذه المتع الرقيقة. ترتعش الفتاة بين يدي، تلهث، تصرخ عند وصولها إلى الذروة. مبتسما بجذل، منزلقا إلى نوم جزئي متراخ، يخطر لي أنني لا أتمكن حتى من تذكر وجه الأخرى. أقول لنفسي، انها ناقصة! على الرغم من أن الفكرة تبدأ بالعوم بعيداً، فإنني أتشبث بها. تراودني صورتها مغلقة العينين ووجهها المتكتم

المغـطى بطـبقة رقيقة من الجلد. فارغ مثل قبضة تحت شعر مسـتعار أسود. يبرز الوجه خارجا عن الرقبة وخارج الجسد الفـارغ تحـته، ارتعد فجأة من ردة فعل قوية وأنا بين ذراعى أنثاى – العصفورة الصغيرة. أضمها إلى.

فى وقـت متأخر من منتصف الليل، عندما أحرر نفسى من ذراعيها، تتذمر ولكنها لا تستيقظ. أرتدى ملابسى فى الظلمة، أغـلق لباب ورائى، أتلمس طريقى هابطاً السلم، أعود مسرعاً إلى الـبيت و لثـلج ينسحق تحت قدمى بقرقشة وريح زمهرير تحفر فى ظهرى.

أشعل شمعة وأنحنى فوق الشكل الذى ، أنا كما يبدو مستعبد منه بدرجة ما. أتحسس بخفة خطوط وجهها بأطراف أصابعى. أتلمس جفنيها، فكيها الواضحين، عظمتى وجنتيها المرتفعتين، لفم الواسع. أتلمس برقة جفنيها. أنا واثق من كونها مستيقظة، على الرغم من أنها لا تشى بعلامة ما.

أغـلق عيـنى. أتنفس بعمق لتهدئة تهيجى، وأحصر ذهنى تمامـاً فى رؤيتها عبر أصابعى المعتمة. هل هى جميلة؟ الفتاة التى فارقتها قبل قليل، الفتاة التى ربما (أدرك فجأة) أنها ستشم رائحـتها منى، جميلة جداً، لا جدال فى ذلك: حدة نشوتى معها ازدادت بـتأثير قوامها الدقيق، أسلوبها، حركتها. وأما بالنسبة لهـذه الفتاة فلا يوجد شىء أقوله عنها بكل ثقة. لا توجد صلة

يمكن أن ُحددها بين أنوثتها ورغبتى. لا أستطيع حتى أن أقول متأكداً إننى أرغب فيها. كل هذه التصرفات الحسية الخاصة بى غيــر مباشرة: أجوس حولها، متلمساً وجهها، مد عباً جسدها، دون أن أدخل بها، أو أجد لحظة و حدة لاستنطاق شهوتى: إن أرغــب فيهــا كــان يعنى احتضانها و لدخول بها، أن أخترق ســطحها وأهز هدوءها لداخلى فى عاصفة من لنشوة. ثم إن أنسحب، أن ُخمد فى انتظار أن تشكل لرغبة نفسها من جديد. ولكــن بالنســبة لهذه المرأة وكما يبدو، فلا مدخل لها، مجرد سطح أجوس فيه ذهابا وِ يابا باحثاً عن مدخل. هل هذا ما شعر بــه مــن قــاموا بتعذيبها صيداً لإسرارهم، أيا كان ذلك الذى يعــتقدونه؟ أحس وللمرة لأولى بشفقة متحفظة تجاههم، كم هو خطــأ فطــرى أن تصدق أنك تقدر أن تحرق أو تمزق أو أن تفرض سبيلك إلى داخل الجسد المتكتم لآخر! الفتاة مستلقية فى فراشـــى، ولكن لا يوجد سبب مقنع لماذا يتوجب أن يكون هذا فرشــا . أتصــرف أنا فى بعض لحالات مثل عاشق – أخلع عــنها ملابســها، أحممهـــا، امسدها، أنام بجوارها – ولكننى بالدرجـــة نفسها تماما، ُقدر على ربطها إلى كرسى وضربها، ولن يكون ذلك الأمر أقل حميمية.

الأمــر ليــس ُن شــيئاً ما حاصل فى مجرى ما يحدث لى و لــذى يحدث لبعض الرجال فى سن معينة. تطور عكسى من فســق إلى أفعـــال انتقامية لتوق عقيم. ِن كان تغيير ما قد بدأ

يحـــدث فى السلوك الأخلاقى لكينونتى، فإننى كنت سأحس به. ولا كـــنت قد خضت تجربة هذا المساء المجددة للطمأنينة. أنا الرجل عينه الذى كنته دائما، ولكن الزمن قد تهشم، شىء ما قد ســقط مـــن الســماء فوقى، بشكل عشوائى، من لا مكان: هذا الجســد فى فراشـــى، الذى أتحمل مسئوليته أنا، أو هكذا يبدو الأمـــر، وإلا فلماذا أقوم بالاحتفاظ به؟ أنا ببساطة مرتبك، فى الـــزمن الراهن وربما إلى الأبد. يبدو الأمر سواء إن استلقيت عـــلى الفراش بجانبها واستغرقت فى النوم، أو إن طويتها فى داخل ملاءة ودفنتها فى الثلج. ومع ذلك، منحنياً عليها، متلمساً جبهتها بأطراف أصابعى، أكون حذراً أن لا أدلق نوبة غضبى.

* * *

ســـواء أتحزر هى أين كنت أنا، فذلك شىء لا أقدر أنا البت فيـــه، ولكـــن فى الليلة التالية، عندما استكنت للنوم تقريباً عبر تـــناغم مع التزييت والتدليك، أحس أن يدى أبقيت وأحتفظ بها، ووجهت إلى تحت بين ساقيها. تستقر برهة على أنوثتها، أرج بعدئذ المزيد من الزيت الدافئ على أصابعى وأبدأ فى مداعبتها. يـــتجمع الـــتوتر فى جسدها، تتقوس وترتعد وتدفع يدى بعيداً. أستمر فى تدليك جسدها حتى أسترخى أنا أيضاً ويستولى على النوم.

لا أجـــد أى إثارة فى هذا العمل الأكثر تعاوناً الذى قمنا به

حتى الآن. إنه لا يقربني منها أكثر ويبدو أنه يؤثر فيها بعض الشـــيء. ستكشــف وجهها في الصباح التالي: إنه بلا تعبير. تـــرتدي ملابســـها وتمشي مرتبكة نازلة إلى عملها اليومي في المطبخ.

أنا قلق. ماذا يتوجب علي ن أفعله من أجل إثارتها؟ هذه هي لكـــلمات التي أسمعها في أذني في دمدمات خفية و لتي قد بـــدأت تـــأخذ مكان المحادثة بيننا. ألن يثيرك أحد؟ وبانتفالة رعـــب أرى لجواب الذي كان منتظرا طوال الوقت يقدم نفسه لي في صورة لوجه مستتر بواسطة عينين سوداوين زجاجيتين حشـــريتين، لا تـــجيء مـــنها نظـــرة متبادلة، ولكن صورتي المتضاعفة فقط مرتدة نحوي.

أهز رأسي بضراوة لإنكار. لا! لا! لا! أصرخ لنفسي. إنه أنـــا الـــذي أضـــلل نفســـي، بدافـــع لفراغ. نحو هذه المعاني والتطابقات. أي فساد هذا الذي يزحف علي. أبحث عن أسرار وإجابات مهما تكن غرابتها، مثل امرأة عجوز تقرأ في أوراق الشاي. لا يوجد شيء يربطني بأولئك الذين يمارسون التعذيب. أنـــاس يقـــبعون منتظرين مثل خنافس في قبية مظلمة. كيف يمكنني أن أعتقد أن الفراش هو أي شيء ما عدا فراش، جسد امرأة هو أي شيء ما عدا موضع للابتهاج؟ يجب علي أن أؤكد على بعدي عن العميد-جول! لن أعاني أنا بسبب جرائمه!

* * *

أبدأ بزيارة الفتاة فى الفندق بانتظام. هناك لحظات فى خلال الــنهار، فى مكتــبى خــلف قاعة المحكمة، يهيم فيها انتباهى وأنجــرف مـــع أحلام يقظة حسية، أزداد سخونة وانتفاخاً بل باهــتياج، أتريث فوق جسدها مثل شاب حالم شهوانى، ثم على مضض يتوجب على استعادة نفسى إلى ضجر أوراق العمل أو أســير نحو النافذة وأحدق فى الشارع، أتذكر كيف أننى اعتدت فى لأعــوام الأولى لتعييــنى هنا، التجوال فى الأحياء الغربية للبــلدة وقت الغسق، مظللا وجهى بمعطفى الواسع. وكيف فى بعــض الأحــايين، إن زوجــة قلقة، تميل على الباب المفتوح جــزئياً، ونيران الموقد يلتمع من خلفها، تستجيب لنظرتى دون أن تحجم، وكيف كنت أشرع فى محادثة مع فتيات شابات يقمن بنزهة اثنتين.. اثنتين أو ثلاث، اشترى لهن (الشربت)(*)، وقد أقــود بعدئــذ واحدة بعيداً فى الظلام إلى مخزن الحبوب القديم وفراشى من الأكياس. إن كان هناك شىء يمكن إن يحسد عليه فى وظيفــة عــلى الحــدود، أخــبرنى أصدقائى، فهو السلوك الأخــلاقى العفوى للواحات. أمسيات الصيف العطرة الطويلة، ليــن جــانب نسائهن فريدات الأعين. لبست لعدة أعوام مظهر خنزير برى وافر الصحة جدير للفوز بجائزة ما. بعدئذ تعدلت تــلك الاتصــالات غير الشرعية إلى علاقات أكثر تحفظاً مع

(*) شربت (Sherbet): شراب مثلج يعد من عصير الفاكهة المحلى.

مدبرات منازل وفتيات أقمن أحياناً فى مكان إقامتى فى الطابق العــلوى، ولكــن فى الغــالب، فى الطابق الأرضى بمساعدة المطبخ، والى علاقات مع فتيات يقمن في الفندق. اكتشفت أننى احــتجت إلى لنساء بصورة قل تكراراً عن ذى قبل. أمضيت وقــتا أطــول مهــتما بعملى، هواياتى، جمع الآثار، ورسمى للخرائط.

ليس ذلك فحسب: كانت هناك مناسبات غير مستقرة، عندما، فى منتصف لفعل الجنسى، كنت أحس بأننى أضل طريقى مثل راوى قصــة يضــيع مــنه طرف خيط قصته. تذكرت برجفة شخوص الفكاهة أولئك، رجال سمان مسنون تتوقف عن النبض قلوبهم المثقلة بأكثر مما تتحمل، الذين يفارقون الحياة بين أذرع حبيــباتهم مع اعتذار على شفاههم ويتم نقلهم إلى الخارج كى يــلقوا فى زقــاق معتم من أجل انقاذ سمعة الدار. ذروة الفعل نفسها غدت نائية، ضئيلة، شيئاً غريباً. في بعض الأحيان كنت أســاق إلى وقفة، وأحياناً كنت أمضى آلياً حتى النهاية. وكنت لمــدة أســابيع وشُــهر أتقاعس متبتلا. البهجة القديمة فى دفء أجساد النساء وجمالها لم تخذلنى، ولكن كان هنائى لغز جديد. هــل أريــد أنا حقا أن أدخل وأن أدعى امتلاك هذه المخلوقات الجميــلة؟ الرغبة كما تراءت تجلب معها شجن البعد والفراق والذى كان من العبث إنكاره. ولا أستطيع أن افهم دائماً السبب الــذى بجعــل مــن جزء وحد من جسدى، بتوقه غير المبرر

ووعــوده المزيفة، يتوجب الاهتمام به أكثر من أى جزء آخر كمجــرى للرغبة. يتراءى لى فى بعض الأحيان، أن ذكورتى هى كــائن آخر تماما، حيران غبى يعيشٍ متطفلاً علىّ، ينتفخ ويتضاءل بحسب شهيته لمستقلة، مرتكزا إلى جسدى بمخالب لا أســتطيع فكها. لماذا يتحتم على حملك هنا وهناك من امرأة إلى امــرأة، سألت أنا: أببساطة لأنك قد ولدت من غير ساقين؟ هل يعنى لأمر أى اختلاف بالنسبة إليك ان كنت قد زرعت فى قطة أو كلب بدلاً من فىّ؟

هــنالك مــع ذلــك أوقات أخرى، وعلى الأخص فى العام الماضــى مــع فتاة تكنى كببا فى لفندق باسم النجمة، ولكننى فكــرت فيها على الدوام كأنها عصفورة، وقتها أحسست مجدداً بــالقوة المألوفــة للســحر الحسى، انزلقت بعيداً فى جسدها، وانتقلت إلى الحدود السابقة للمتعة. وهكذا فكرت: إن الأمر لا يعــدو كونه مسألة عمر، دورات الرغبة وفتور الإحساس فى جسد والتى تبرد وتموت بتباطؤ. عندما كنت شاباً، كانت مجرد رائحـــة امرأة تثيرنى، واليوم وبوضوح، لا تمتلك تلك القوة إلا ُجملهن وأصغرهن وأحدثهن، وسوف يكون الأمر فى يوم من هــذه الأيــام أولاداً صــغاراً. نظرت ببعض النفور قدما إلى أعوامى الأخيرة فى هذه الواحات المعطاء.

الآن ولــثلاث ليال متتاليات، أزورها فى غرفتها الصغيرة،

حـــاملاً هدايـــا مـــن زيت كانانغا، حلوى، وجرة من البطارخ المدخـــنة، الـــتى أعرف أنها تحب التهامها على نفراد. تغلق عيـــنيها عندما أحتضنها: مرتعشة لما يبدو فرحاً يجتاح كيانها. تحـــدث لصديق الذى زكاها لى قائلاً عن مواهبها: الأمر كله تمثيل بطبيعة لحال، ولكن الاختلافات فى حالتها هو أنها تؤمن بـــالدور الـــذى تقوم به. بالنسبة لى، اكتشفت أننى غير مهتم. مأســـورا بأدائهـــا، فُـــتح عيـــنى فى منتصـــف كل الاهتياج والارتعاش و لتأوه، ثم أغرق فى النهر لمظلم لمتعتى لخاصة. أمضيت ثلاثة أيام فى تراخ حسى، مثقل الجفنين، مستغرقاً فى أحلام اليقظة. أعود إلى مكان إقامتى بعد منتصف لليل وأنزلق إلى لفـــراش، غير مبد أى اهتمام بالشكل المسترسل فى عناده والـــراقد بجـــوارى. وفى الصـــباح، إن استيقظت على صوت استعداداتها، فإنى أتظاهر بالنوم حتى تكون قد ذهبت.

حـــدث ذات مرة و ُنا أجتاز باب المطبخ المفتوح، أن ألقيت نظرة إلى الداخل. ومن خلال أعمدة الدخان، والبخار، أرى فتاة قصـــيرة ممتلئة الجسم جالسة عند مائدة تهيئ الأكل. أفكر فى نفســـى بدهشـــة، أنـــا أعرف من تكون تلك ، ومع ذلك، فإن الصـــورة الـــتى بقيت تلح فى ذكرتى وأنا أعبر لساحة، هى مـــنظر كومة القرع الأخضر ُمامها على المائدة. أحاول وبتأن أن أنقل النظرة التى تكونت فى الذكرة من القرع ثم إلى اليدين اللـــتين تقطعانـــه ومن ليدين إلى الوجه. أعثر فى نفسى على

نفور ومقاومة. يبقى اهتمامى منحصراً بانبهار فى القرع، وفى ومضـــة النور على قشرتها المبللة. لا تتحرك الصورة وكأنما بـــإرادة مـــنها. وهكذا أبدأ فى مواجهة حقيقة ما أنا أحاول أن أفعلـــه، أدرك أننى إن تناولت قلما لتخطيط وجهها فلن أعرف من أين أبدأ، هل هى حقاً بلا ملامح إلى هذا الحد؟ أركز بجهد تفكيـــرى فيها. أرى شكلا يرتدى قبعة ومعطفاً ثقيلاً لا شكل له واقـــف بشـــكل مقلقل، منحن نحو الأمام، مباعد الساقين، يسند نفســـه بعكـــازين. كم هو قبيح، أقول لنفسى بشكل فمى الكلمة البشعة. أنا مندهش للأمر، ولكننى لا أقاوم: إنها قبيحة، قبيحة.

أعـــود فى الليـــلة الرابعة بمزاج سيئ، أضرب فى أرجاء شقتى بصوت عال، غير مهتم بمن هو صاح كان المساء فشلاً فتيار الرغبة المتجدد قد توقف. أرمى حذائى العالى الرقبة على الأرض وأصـــعد إلى الفراش، راغباً فى شجار، أتوق إلى من ألومه، خجلاً أيضا من صبيانيتى. غير قادر على فهم ما الذى تفعلـــه هذه المرأة التى تجاورنى فى حياتى. فكرة لمتعة التى وصـــلت إليهـــا عبر جسدها الناقص، تملؤنى باشمئزاز متحفظ ســـاخر، وكأنـــنى أمضيت ليلى أجامع دمية من قش وجلد. أى شـــىء رأيته منها فى أى وقت مضى؟ أحاول أن أتذكرها كما كـــانت مـــن قـــبل أن يـــبدأ معالجو الألم تقديم خدمتهم. الأمر مســـتحيل لأن نظرتى لم تعبر فوقها وهى جالسة مع البرابرة الآخرين، فى اليوم الذى جلبوا فيه إلى المكان. أنا مقتنع أنه فى

مكان ما فى دماغى المليء بالثقوب، شيء مودع، ولكننى غير قادر على استعادته. أقدر على تذكر المرأة مع الطفل، بلى وحتى الطفل نفسه. أقدر على تذكر كل التفاصيل: الحاشية البالية للشال الصوفى، غشاء العرق تحت خصلات الشعر الجميل للطفل. أقدر على تذكر الأيدى الناتئة العظام للرجل الذى مات، أعتقد أننى حتى قُدر، بجهد، على إعادة تشكيل وجهه. ولكن هناك إلى جانبه حيث يتوجب أن تكون الفتاة، فراغ، فسحة خالية.

أصحو فى الليل والفتاة تهزنى وصدى أنين خافت ما زال عالقاً فى الجو. تقول، كنت تصرخ فى خلال نومك. لقد أيقظتنى .

بماذا كنت أصرخ؟

تدمدم بشيء ما، تدير ظهرها نحوى.

فى ساعة متأخرة من الليل، توقظنى ثانية: كنت تصرخ .

أحاول، وأنا مثقل الرأس، مرتبكا وغاضباً أيضا، أن استكشف ما فى داخلى، ولكننى لا أبصر غير دوامة فى قلب دوامة النسيان.

تقول: أهو حلم؟'

لا أستطيع أن أتذكر أى حلم .

هل الأمر أن حلم الطفلة ذات القبعة التى تبنى قصر الثلج قد بـــدأ يعاودنى؟ إن كان الأمر كذلك، فلابد أن نكهة أو رائحة أو انعكاسات منه ستتخلف معى.

أقول، هناك شىء أريد أن أسألك. هل تتذكرين اليوم الذى جلــبت فيـــه إلى هنا، إلى ساحة الثكنات؟ لقد أرغمكم الحراس عــلى الجــلوس عــلى الأرض. أيـــن جلست؟ أى جهة كنت تواجهين؟

أتمكن عبر النافذة من أن أرى خطوطاً من غيوم تعبر وجه القمـــر، مـــن خلال الظلمة وهى بجوارى، تقول، لقد جعلونا نجلس سوياً فى الظل. كنت إلى جوار والدى .

أســتجمع صـــورة والدها. أحاول فى صمت أن أعيد خلق الحـــر الشـــديد، الغبار، رائحة كل تلك الأجساد المتعبة. أجلس الســجناء فى ظـــل جدار الثكنات، واحداً بعد واحد، أقدر على تذكـــر كـــل شـــىء. أضع المرأة مع الطفل، شالها الصوفى، صدرها العارى. الطفل يبكى، أسمع النحيب، إنه متعب جداً إلى حـــد أنه غير قادر على الشرب. الأم متسخة بالوحل، عطشى، تـــنظر إلى، حائرة فيما إن كنت قادراً على تقديم مساعدة لها. يليها شكلان ضبابيان. ضبابيان، لكنهما حاضران: أعرف ذلك مـــن خـــلال جهـــد نصف ذاكرة، نصف خيال، بإمكانى ملء الفـــراغين. ثـــم يـــأتى والد الفتاة، يداه الناتئتا العظام مطويتان

أمامـــه. طـــرف قبعـــته على عينيه، إنه لا يتطلع إلى الأعلى. والآن أستدير نحو الفراغ بجوره.

على أية جهة من والدك كنت تجلسين؟

جلست إلى يمينه .

الفســـحة على بمين الرجل تبقى خالية. بتركيز مؤلم، أبصر حتى كل حصاة على الأرض بجواره وتركيب الجدار خلفه.

حدثينى عما كنت تفعلين .

لا شيء. كنا جميعاً منهكين. كنا قد بدأنا السير قبل الفجر .

هل رأيتنى؟

نعم، لقد رأيناك جميعاً.

أشبك يدى حول ركبتى مفكراً بتركيز. الفسحة بجوار الرجل تبقى خالية ولكن هناك إحساس ضئيل بوجود الفتاة، أو هالة ما فى الجـــو، تبدأ فى الظهور الآن! ألح على نفسى: الآن سأفتح عينى، وستكون الفتاة هناك. أفتح عينى. فى النور المعتم أميز حجمهـــا إلى جوارى. باندفاعة من أحاسيس أبسط يدى لألمس شـــعرها، وجهها. لا توجد أى استجابة حية. الأمر مثل مداعبة جرو أو كرة، شيء كله سطح.

قُـــول، كنت أحاول أن أتذكرك كما كنت قبل كل ما حدث، أجـــد الأمر صعباً. من المؤسف أنك غير قادرة على إخبارى .

لا أتوقع استنكاراً، وهو لم يصدر.

* * *

وصــلت كتيبة من المجندين الإلزاميين لتسلم أماكن الرجال الذيــن أنهــوا أعوامهــم الــثلاثة الــتى سفحت على الحدود، والمســتعدون للرحيل إلى منازلهم. كانت الكتيبة بقيادة شاب، سينضم إلى مجموع مساعديه.

أدعــوه مع اثنين من زملائه، لتناول العشاء معى فى الفندق. تمضــى الأمســية بشــكل مرض: الطعام جيد، الشراب وفير، وضــيفى لديــه العديــد من القصص عن رحلته، التى تمت فى طقــس قاس وفى إقليم غريب عنه تماماً لقد فقد ثلاثة رجال فى الطــريق، يقــول: غــادر أحدهم خيمته فى الليل استجابة لنداء الطــبيعة ولــم يعــد مطلقاً، اثنان آخران هربا على مرأى من الواحــات تقريــباً، انسابا خارجاً للاختفاء بين القصب. صانعو مشاكل، ينعتهم، وهو لم يتأسف لأنه تخلص منهم. ومع ذلك، لا أعــتقد أن قرارهم حماقة؟ أجيب، حماقة كبيرة، وأسأل إن كانت لديــه فكــرة عن السبب الذى جعلهم يهربون؟ يقول، لا، كانوا يعاملون بشكل جيد، كل واحد عومل بشكل جيد، ولكن هناك بعد ذلــك مجندون... يهز كتفيه. اقترح، كان من الأفضل لهم الفرار فى وقــت مبكر، الريف من حول المكان لا يساعد على العيش، إنهم رجال أموات إن لم يكونوا قد عثروا على ملجأ حتى الآن.

نـتحدث عن البرابرة. يقول، إنه مقتنع بأنه كان، فى جزء مـن طريقه، متبوعاً عن بعد من قبل البرابرة. أسأل، هل أنت مـتأكد مـن انهم كانوا برابرة؟ يجيب، ومن غيرهم يقدر على ذلك؟ يتفق زملاؤه معه.

أعجـب بحيويـة هذا الشاب، اهتمامه بالمشاهد الجديدة فى إقـليم الحدود، وإنجازه فى جلب رجاله إلى هنا فى هذا الموسم الميت، أمر حميد. عندما يلتمس رفاقنا الانصراف بسبب تأخر الوقـت، أضـغط عـليه للبقاء. نجلس معاً بعد منتصف الليل لـلحديث والشـراب. أستمع إلى أحدث الأخبار عن العاصمة، التى لم أرها منذ زمن طويل. أحكى له عن بعض المناطق التى أتذكـرها بحـنين: سـرادق الحدائق حيث يعزف الموسيقيون لـلزوار المتجولين، وكيف أن قدم المرء تخشخش عبر أوراق الكسـتناء المتساقطة فى الخريف. أتذكر جسراً يستطيع المرء وهو فوقه أن يرى انعكاس القمر على الماء الذى يتموج حول مثلثات على هيئة زهرة البارادايس(*).

يقـول، تسرى الأقاويل فى مركز قيادة الفرقة أنه سيكون هـناك هجـوم عام ضد البرابرة فى الربيع لدفعهم عن الحدود نحو الجبال .

أنـا آسـف لقطع قطار الذكريات. لا أريد أن أنهى الأمسية

(*) Paradise: لجنة، لفردوس.

بمشـــاحنة. مع ذلك أستجيب. أنا واثق من أنها مجرد إشاعة: إنهم غير قادرين على القيام بذلك، الناس الذين تنعتهم بالبرابرة هـــم مـــن الـــبدو، إنهـــم يرتحلون كل عام ما بين الأراضى المنخفضـــة والمـــرتفعة، تلك هى طريقتهم فى الحياة. إنهم لن يسمحوا لأنفسهم قط بأن يُحجزوا فى الجبال .

يتطـــلع إلى بغرابة. أحس للمرة الأولى فى هذه الأمسية أن حاجـــزاً ينزل. الحاجز ما بين العسكرى والمدنى، يقول، لكن بالـــتأكيد، إن كنا نريد الصراحة، ذلك هو معنى الحرب. إكراه أحـــد ما على خيار لن يفعله عن طريق آخر . يعايننى بعجرفة شاب متخرج فى الكلية الحربية. أنا متأكد من أنه يتذكر القصة، الـــتى انتشرت الآن حتماً فى الأرجاء، كيف إننى امتنعت عن التعاون مع ضابط من المكتب الثالث. اعتقدت أننى أعرف ماذا يـــرى أمامـــه: موظفاً إدارياً ثانوياً غطس، بعد أعوام، فى هذا الموضـــع الخلفى المنعزل، فى أساليب فطرية، كسولاً، متأخراً فى تفكيـــره، مستعداً للمقامرة على أمن الإمبراطورية فى سبيل بديل مؤقت، سلام متزعزع.

يميل إلى الأمام، متظاهراً بحيرة صبى يراعى الآخرين: أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه يتلاعب بى. يقول، قل لى، سيدى سراً، ما هى الأمور التى يستاء منها البرابرة؟ ماذا يريدون منا ؟

يتوجب على أن أكون حذراً، ولكننى لا أكون. يتوجب على

أن أتــثاءب متملصاً من سؤاله، أن أنهى الأمسية، ولكننى أجد نفسى أصعد إلى الطعم (متى سأتعلم أن أمسك بلسان ماكر؟).

إنهــم يــريدون وضــع نهايــة لانتشار المستوطنات عبر أراضــيهم. إنهــم يــريدون عودة أراضيهم، فى النهاية. إنهم يريدون أن يكونون أحراراً فى التجوال مع قطعانهم من مرعى إلى مــرعى، كمــا اعتادوا . لم يفت الأوان بعد لوضع نهاية للمحاضــرة. بدلاً أسمع صوتى ترتفع نبرته وأتنازل عن نفسى آسفا لثمالة الغضب. لن أقول شيئاً عن لغزوات الأخيرة التى شنت عليهم، بلا أىّ مبرر تماماً، تبعتها أعمال غاية فى القسوة، مــا دام أمــن الإمبراطورية فى خطر، أو هذا ما أخبرت به، سيتطلب الأمر أعواماً من أجل ترقيع الخراب الذى حصل فى تلك الأيام المعدودات، ولكن دع ذلك يمر، دعنى على الأصح، أخــبرك عن الذى أجده مثبطاً لهمتى كموظف إدارى حتى فى أوقــات الســلم، حتى عندما تكون علاقات الحدود جيدة. هناك وقــت فى الســنة، أنــت تعرف، عندما يزورنا البدو للتجارة. حســناً: اذهــب إلى أى كشك لبيع البضاعة وابصر بنفسك من الــذى يستخف به ويغش ويتعرض لصراخ ويخدع. شاهد من الذى يرغم على ترك أهله من النساء خلفه فى الخيمة خوفاً من أن يتعرضــن للإهانــة من قبل الجنود. اشهد بنفسك من الذى يستلقى ثملاً فى قنوات البالوعات، واشهد من الذى يرفسه حيث هــو متمدد. إنه هذا الاحتقار للبرابرة، احتقار يبدو ظاهرا من

قــبل أبسط عامل إلى فلاح فى مزرعة، ذلك أننى كقاض كان عــلى أن أجادل ضد ذلك لعشرين عاما. كيف يمكنك استئصال الاحتقار، خاصة عندما يكون الاحتقار مبنياً على أمر جوهرى لا يعدو كونه اختلافات فى آداب المائدة، اختلافات فى تركيب جفــن العيــن؟ هل أخبرك ما الذى أتمناه أحياناً؟ أتمنى لو أن هــؤلاء الــبرابرة يثورون ويعلموننا درساً، من أجل أن نتعلم احــترامهم. نحــن نفكــر فى هذا البلد وكأنه ملكنا، جزء من إمبراطوريتنا - قاعدتنا الأمامية، مستوطنتنا، مركزنا التجارى. ولكــن هــؤلاء الناس، هؤلاء البرابرة لا يفكرون إطلاقاً بنفس الطــريقة. لقد مضى على وجودنا هنا أكثر من مائة عام، لقد استصــلحنا أراضــى مــن الصــحراء وأنشأنا مشاريع إرواء وزرعــنا حقولاً وبنينا منازل ثابتة ووضعنا سوراً حول بلدتنا، ولكــنهم ما يزالون يفكرون بنا كزوار عابرين. هناك أناس من كبار السن بينهم يتذكرون آباءهم وأمهاتهم يحكون لهم عن هذه الواحــات كما كانت فى يوم من الأيام: مكاناً ظليلاً على ضفة البحيرة فيها وفرة من المراعى حتى فى الشتاء. تلك هى الكيفية التى ما زالوا يتحدثون بها، ربما الكيفية التى ما زالوا يرونها، وكأنما لم يقلب ملء مسحاة واحدة من الأرض ولم توضع أجرة واحدة فرق أخرى. الشك لا يساورهم من أننا فى يوم من هذه الأيــام سنحمل عرباتنا ونرحل إلى حيثما جئنا منه، وأن كافة مبانينا ستصبح بيوتاً للفئران والسحالى، وأن حيواناتهم سترعى

فى هذه الحقول التى قمنا بزراعتها. أتبتسم أنت؟ هل أقول لك شيئاً؟ البحيرة تزداد مياهها ملوحة سنوياً. هناك تفسير بسيط – لا تبال قط به – البرابرة يعرفون هذه الحقيقة. انهم فى هذه اللحظة بالذات يقولون لأنفسهم، كن صبوراً، فى يوم من هذه الأيام، ستبدأ محاصيلهم بالذبول جراء الملوحة، لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم، سيكون لزاماً عليهم الرحيل. ذلك ما يفكرون به. ذلك أنهم يفوقوننا قدرة على الاستمرار .

ولكننا غير مغادرين . يقول الشاب فى هدوء.

هل أنت واثق؟

نحن غير راحلين. ولهذا فإنهم يرتكبون خطأ. لن نذهب حتى إن أصبح ضرورياً تزويد المستوطنة بقوة عسكرية للحماية، لأن هذه المستوطنات هى خط الدفاع الأول للإمبراطورية. كلما فهم البرابرة هذا عاجلاً كان أفضل .

على الرغم من مظهره الخارجى الجذاب فهناك صرامة فى تفكيره لابد أنها مستمدة من دراسته العسكرية. أتنهد. لم أحصل أنا على شيء جراء إطلاق نفسى فى الكلام. لقد تأكدت أسوأ ظنونه بلا شك: ذلك أننى معتل عقلياً، كما أننى من طراز محافظ. وهل أنا حقاً، بعد كل شيء، أؤمن بما كنت أقوله؟ هل أتطلع بلهفة إلى انتصار وجهة نظر البرابرة: خمول ذهنى، قذارة تامة، تسامح تجاه المرض والموت؟ إن قدر لنا أن نختفى

فهل البرابرة سيمضون أمسياتهم فى الكشف عن آثارنا فى خرائبنا؟ هل سيحافظون على وثائقنا الرسمية للإحصاء السكانى ودفاتر تجار حبوبنا فى صناديق زجاجية، أم أنهم سيكرسون أنفسهم لحل نصوص رسائل الحب العائدة لنا؟ هل سخطى تجاه السلوك الذى تنتهجه الإمبراطورية فى أى حال من الأحوال والى حد بعيد ضجر رجل عجوز لا يريد أن تتعكر طمأنينة أيامه الأخيرة على الحدود؟ أحاول أن أوجه المحادثة إلى موضوعات أكثر ملاءمة، إلى الخيول، الصيد، الجو، ولكن الوقت يصبح متأخرا، وصديقى الشاب يرغب فى المغادرة وعلى أن أسدد حساب ضيافة الأمسية.

* * *

الأطفال يلعبون فى الثلج ثانية، فى وسطهم، والظهر نحوى، هو الشكل ذو القبعة للفتاة. وبينما أنا أجهد نفسى نحوها، تكون فى لحظات اختفت عن النظر خلف ستارة من ثلج متساقط. تغوص قدماى عميقاً إلى حد أنى لا أقدر على رفعهما. كل خطوة تستغرق دهراً. إنها أسوأ ثلوج تساقطت فى أحلامى. وعندما أجرى متثاقلا باتجاههم، يتخلى الأطفال عن لعبهم ليتطلعوا إلى. يديرون نحوى وجوههم الرزينة المتألقة، تتدفع أنفاسهم البيضاء منهم بنفثات. أحاول ان أبتسم وألمسهم عندما أمر وأنا فى طريقى إلى الفتاة، ولكن تقاطيع وجهى متجمدة،

الابتسامة لا تظهر، وهناك كما يبدو طبقة من جليد تغطى فمى. أرفـــع يـــداً لأزيلها: أجد ان الهد ترتدى قفازاً ثقيلاً، الأصابع مـــتجمدة فى داخل القفاز، لا أحسن بشيء عندما ألمس وجهي بالقفـــاز. لا أحسن بأى شئ. أشق طريقى بخطوات ثقيلة ماراً بالأطفال.

الآن يمكننى أن أرى ما تفعله الفتاة، إنها تبنى قلعة من ثلج، بـــلدة مســـورة أعـــرفها بكل تفاصيلها: جدار الحصن وأبراج الحراسة الأربعة فيه، البوابة وكوخ البواب بجوارها، الشوارع والبيوت، الساحة الكبيرة ومجمع الثكنات فى أحد الزوايا. وها هى الـــبقعة عينها التى أقف عليها! ولكن الساحة خالية، البلدة بأكمـــلها بيضـــاء وخرســـاء صماء وخالية! أشير إلى مركز الساحة. أريد أن أقول، لابد أن تضعى أناساً هناك! ، لا صوت يخرج من فمى، حيث يرقد لسانى متجمداً مثل سمكة. مع ذلك تستجيب هى. تجلس على ركبتيها وتدير رأسها المغطى بقبعة نحوى. فى هذه اللحظة الأخيرة، أخاف أن تكون خيبة أمل، أن يكون الوجه الذى ستقدمه لى بليداً، زلقاً، مثل عضو داخلى، لم يعد للعيش فى الضياء. ولكن لا، إنها نفسها، نفسها بالرغم من أنـــنى لم أرها مطلقا، طفلة باسمة، يتلألأ الضوء على أسنانها، وتـــلقى نظرة سريعة من عينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أقـــول لنفســـى، إذن هذا هو الشيء الذى يتعين على إدراكه . أريـــد إن أتحدث إليها من خلال فمى المتجمد. أريد ان أقول،

كيف تصنعين كل ذلك العمل الجميل ويداك فى القفاز؟ تبتسم بلطف لدمدمتى. ثم تستدير عائدة إلى قلعتها فى الثلج. أبزغ من الحلم مقروراً ومتصلباً. إنه الوقت الذى يسبق الضياء الأول بساعة، النار منطفئة، جلدة رأسى تحس بالخدر والبرد. الفتاة إلى جوارى، نائمة متجمعة حول نفسها فى كرة. أغادر الفراش، وبمعطفى الواسع ملفوفا حولى، أبدأ فى إذكاء النار ثانية.

الحلم متجذر، أعود، ليلة بعد ليلة إلى رقعة الساحة المترامية الأطراف المكتسحة بالثلج، مجهداً السير نحو الشكل فى مركزها، مؤكداً فى كل مرة، أن البلدة التى تقوم ببنائها الفتاة، خالية من الحياة.

أسأل الفتاة عن شقيقاتها. لديها شقيقتان. الصغرى، كما تقول، جميلة جداً، ولكنها مشتتة الذهن. أسأل ، ألا تودين رؤية شقيقتيك مجدداً؟ الاضطراب يتدل بشكلى منفر فى الجو بيننا. يبتسم كلانا تقول، بالطبع .

أسأل أيضا عن المدة التى أعقبت سجنها، عندما، مجهولة من قبلى، عاشت فى هذه البلدة تحت نطاق سلطتى القضائية. كان الناس رحماء بى عندما أدركوا أننى قد تركت وحيدة. اعتدت النوم فى الفندق حيناً من الزمن فى الوقت الذى بدأت فيه قدماى بالتحسن. كان هناك رجل تولى الاعتناء بى. لقد

ذهـــب الآن. كـــان يقتنى الخيول. كما أنها تتذكر الرجل الذى أعطاهـــا زوجى الأحذيـــة بالرقبة العالية التى كانت ترتديهما عـــندما التقيت بها فى المرة الأولى. أسأل عن رجال آخرين. نعـــم، كان هناك رجال آخرون. لم يكن لدى خيار. كان ذلك كيف وجب أن يكون الأمر .

بعد هذه المحادثة ازدادت العلاقات مع عامة الجنود توتراً. مغـــادراً فى الصـــباح شقتي إلى دار العدالة، أمرُ بأحد مواكب التفـــتيش العسكرية النادرة. أنا متأكد أن من بين هؤلاء الرجال الواقفين فى استعداد، وتجهيزاتهم فى رزمة عند أقدامهم، بعضا ممن نام مع الفتاة. ليس ذلك اننى أتخيلهم بضحكون بتهكم من خـــلف أيديهـــم. لـــم أرهـــم قط واقفين برزانة أكثر فى الريح المتجمدة التى تضرب عبر الساحة. ولم تكن قط ملامحهم أكثر احـــتراما. أعـــرف أن بإمكانهم أن يقولوا لى إن تمكنوا، نحن رجال جميعاً، وإن بإمكان أى رجل أن يفقد عقله بسبب امرأة. ومـــع ذلـــك، أحـــاول المجيء إلى البيت متأخرا فى الأمسيات لتفادى صف الرجال عند باب المطبخ.

هـــناك أخبار ترد عن جنديى الملازم الهاربين. واضع أفخاخ عـــثر عليهما متجمدين حتى الموت فى مخبأ بدائى لا يبعد غير ثلاثين ميلاً شرق مستوطنتنا. وعلى الرغم من أن الملازم ميال إلى تركهم هناك (ثلاثون ميلاً للوصول وثلاثون ميلا للعودة فى

هــذا الجو، أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لرجال لم يعودوا رجالاً، ألا تعــتقد ذلك؟)، أقنعه بإرسال بعثة إلي هناك. أقول، يجب أن تجرى لهم الشعائر، فضلاً من كونه أمراً جيداً بالنسبة لمعنويات رفــاقهم. عــليهم أن لا يتصـــوروا بـــأنهم أيضا سيموتون فى الصحراء ويرقدون منسيين. ما نقدر على عمله من أجل تخفيف رهبــتهم من حتمية مغادرة هذه الأرض الجميلة، يجب أن نفعله. وبعــد كل شيء، فنحن الذين نقودهم إلي هذه المخاطر . وهكذا تغــادر البعثة، وتعود بعد يومين بالجثتين الملتويتين المتصلبتين انجمــاداً فى عربة. ما زلت أجد الأمر غريباً إن رجالاً يتوجب عــليهم ترك منازلهم إلى مسافة مئات الأميال وعلى بعد مسيرة يــوم واحد من الطعام والدفء، ولكننى لا أتتبع الموضوع أبعد مــن ذلــك. واقفا عند حافة المقبرة المتصلبة أرضها جليداً بينما تجــرى آخــر الشــعائر ورفــاق المتوفى الأسعد حظاً يراقبون حاســرى الــرءوس، أكــرر لنفسى إننى بالتأكيد على المعاملة الصــحيحة لــلعظام، أحاول أن أبين لهؤلاء الرجال الشباب أن المــوت غيــر فــان، واننا نبقى أحياء مثل فروع فى ذاكرة من عرفــناهم. مــع ذلــك هل أنا حقا ومن أجل فائدتهم وحدها أقيم المراســم؟ ألا أواســى نفسى أيضا؟ أبدى استعداداً لتولى المهمة الروتيــنية الشــاقة فى الكتابة إلي الوالدين لإعلامهما بمصابهما الشخصى. أقول، إنها أخف وقعاً على رجل مسن .

* * *

تسأل، ألا تحب أن تفعل شيئاً آخر؟

قدماهــا تســتريحان فى حضنى. أنا منذهل، تائه فى إيقاع دعك الكاحل المتورم ودلكه. سؤالها يباغتنى. إنها المرة الأولى الــتى تحدثــت فيها بوضوح تام. لا أبالى بالسؤال، أحاول أن أنــزلق عــائداً إلى غيبوبــتى، غير بعيد عن النوم متمنع عن الانحراف عنه.

تــتحرك القــدم فى قبضتى، تسرى فيها الحياة، تخز بلطف منــبت فخــذى. افــتح عيــنى على الجسد الذهبى العارى فى الفراش. تستلقى هى ورأسها بين يديها، تراقبنى بالطريقة غير المباشــرة التى اعتدتها الآن، مبدية صدرها المتماسك وبطنها الملســاء، تطفــح بصحة جسد شاب. تستمر أصابع قدميها فى الجــس، ولكنها فى هذا السيد العجوز المتراخى الجاثى أمامها بردائه المنزلى الأرجوانى الداكن لا تجد استجابة.

فى مــرة ثانية . أقول ولسانى يلتوى ببلادة حول الكلمات. إنهــا كذبة على قدر ما أعرف، ولكننى أتلفظها. ربما فى مرة ثانيــة . ثــم أرفــع قدمهــا جانبا، وأستلقى بجوارها. الرجال المــتقدمون فى السن، لا يمتلكون عفة كى يحافظوا عليها، ماذا أستطيع أن أقول إذن؟ إنها كذبة عرجاء على نحو هزيل، وهى لا تفهمها. تنزلق تفتح ردائى وتبدأ بمداعبتى، بعد وقت قصير أدفع يدها بعيداً.

تهمــس، 'أنـــت تـــزور فتيات أخريات، هل تعتقد بأننى لا أعرف؟

أشير إليها بشكل قاطع أن تصمت.

تهمس، هل تعاملهن أيضا هكذا؟ وتبدأ فى النشيج.

على الرغم من أن قلبى يتمزق من أجلها، لا يوجد شىء أنا قـــادر على القيام به. ومع ذلك أى إذلال لها! أنها لا تقدر حتى مغـــادرة الشـــقة دون ترنح أو تحسس وهى تقوم وتجلس. إنها ســـجينة الآن بقدرٍ ما كانت قبلاً. أربت على يدها وأغرق فى كآبة عميقة.

إنهـــا الليـــلة الأخيـــرة التى ننام فيها فى فراش واحد. أنقل ســـريراً نقـــالاً إلى غرفة الاستقبال وأنام هناك. الألفة الجسدية تنتهى بيننا. أقول، فى الزمن الراهن. حتى نهاية الشتاء، هكذا أفضل'. تتقبل العذر دون كلمة ما. عندما أعود إلى المنزل فى الأمســـيات تجلب لى الشاى وتجثم عند الصينية لخدمتى. تعود بعدئـــذ إلى المطـــبخ. بعـــد ساعة من الوقت تضرب طريقها صاعدة السلم خلف الفتاة التى تحمل صينية العشاء. نأكل معاً. بعـــد الوجـــبة أخلد إلى مكتبى أو أخرج مساء، مجدداً جولاتى الاجتماعية التى أهملتها: شطرنج فى بيوت الأصدقاء، ورق مع الضـــباط فى الفـــندق. كما أننى أقوم بزيارة أو اثنتين للطابق الـــثانى مـــن الفندق ولكن مع إحساس بالذنب مما يفسد المتعة.

ولدى عودتى أجد على الدوام، الفتاة نائمة، وأضطر إلى السير على أطراف أصابعى كزوج خاطئ.

تتقبل الفتاة الأسلوب الجديد دون تذمر. أقول لنفسى إنها تخضع بسبب من تربيتها البربرية. ولكن ما الذى أعرفه أنا عن التربية البربرية؟ ما أسميه أنا استسلاما قد لا يكون غير عدم مبالاة. ما الذى يهم متسولة، فتاة بلا أب ما إذا نمتِ منفرداً أم غير ذلك ما دامت تمتلك سقفا فوق رأسها وطعاماً فى بطنها؟ لقد أحببت حتى الآن أن افكر فى أنها لا تقدر الكف عن رؤيتى رجلا فى قبضة الرغبة. كيفما كانت الرغبة منحرفة وغريبة الأطوار، ذلك أنها فى الصمت الملىء بالتوتر والقلق والذى يشكل الجزء الكبير من اتصالات، لا تقدر إلا الإحساس بنظرتى المتفرسة تضغط عليها بثقل جسد. أنا أفضل عدم الخوض من أن الإمكانية التى تعلمها التربية البربرية لفتاة قد لا تؤهلها للتكيف مع كل نزوات الرجل، ومن ضمنها نزوة الإهمال، بل أن تنظر إلى الرغبة الجنسية سواء فى حصان أو ماعز أو رجل أو امرأة كحقيقة حياتية مجردة بأوضح وسائلها وأوضح نهاياتها. ولهذا فإن التصرفات المرتبكة لغريب متقدم فى السن يلتقطها من الشوارع ويجلسها فى شقته كى يقدر تارة أن يقبل قدميها، تارة يرهبها بالصياح والعبوس، تارة يدهنها بزيوت غريبة، تارة يتجاهلها، تارة ينام بين ذراعيها طوال الليل، والآن ينام منفردا متقلب المزاج، قد لا تدل إلا على علامات عجز، تردد، انسلاخ، عن رغباته الشخصية. وفى

الوقـت الذى لم أكف عن النظر إليها كجسد معطل، متضرر، يحمـل ندبات، ربما إنها فى هذا الوقت قد نضجت وأصبحت ذلك الجسد الناقص الجديد، غير حاسة بتشوهها أكثر مما تحسه قطة بالتشوه أن امتلكت مخالب بدلاً من الأصابع. سأفعل حسناً إن أخذت هذه الأفكار بجدية. أن أكون اعتيادياً بدرجة أكبر مما أحب أن أعتقد، قد تكون لها وسائلها كى تجدنى اعتيادياً أيضا.

* * *



الهــواء ممتــلئ فى كــل صــباح يخفق أجنحة بينما تطير العصـــافير قادمة من الجنوب محومة فى حلقات فوق البحيرة قــبل استقرارها فى الأطراف الناتئة المالحة للمستنقعات. عند الهــدوء لمؤقــت للرياح، تصل إلينا تنافر نغماتهم، طبطبات، قوقــأة، صيحات حادة، مثل صوت مدينة مزاحمة على الماء: أنواع من سمك نهرى، طيور، بط بأنواع وألوان مختلفة.

يؤكــد وصــول الوجــبة الأولى من طيور الماء المهاجرة العلامات الأولى، الأثر الباهت لدفء جديد فى الريح، الشفافية الــزجاجية لجـليد البحيرة. الربيع فى طريقه، فى يوم من هذه الأيام يكون الوقت مناسباً للزرع.

الوقت الحاضر هو موسم نصب الأفخاخ. قبل الفجر، تغادر فــرق مــن رجـــال إلى البحيرة لوضع شباكها. يعودون عند منتصــف النهار بصيد وفير: طيور ملوية الرقاب تتدلى معلقة مــن أرجلها على أعمدة صفاً بعد صف، أو حشرت وهى حية فى أقفـــاص خشــبية، تصرخ تغضب، يدوس بعضها بعضاً، وأوزة ضــخمة تجثم بينها فى صمت شديد. خصب الطبيعة.: فى الأسابيع المقبلة سيأكل كل واحد منا جيداً.

قبل أن أسافر، هناك وثيقتان على تهيأتهما: الأولى معنونة إلى الحاكم الإقليمى. أكتب، 'من اجل إصلاح بعض الأضرار التى نتجت عن غزوات المكتب الثالث، ومن أجل استعادة بعض النوايا الحسنة التى كانت سابقاً، سأقوم بزيارة قصيرة للبرابرة . أوقع وأختم الرسالة.

لا أعرف حتى الآن شيئاً عن مضمون الرسالة الثانية. شهادة؟ سيرة ذاتية، اعتراف؟ تاريخ ثلاثين عاما على الحدود؟ أجلس طوال ذلك النهار فى غيبوبة على مكتبى محدقاً فى الورقة البيضاء الخالية، منتظراً، أن تأتى الكلمات. يمر يوم ثان بالطريقة نفسها. أستسلم فى اليوم الثالث، أعيد الورقة إلى الدرج وأتهيأ لبعض الاستعدادات للسفر. يبدو الأمر متناسبا فى ان رجلاً لا يعرف ماذا يفعل بامرأة فى فراشه، لا يعرف ماذا يكتب.

اخترت ثلاثة رجال لمرافقتى. اثنان شابان مجندان إلزامياً أنا مسؤول عن عملهما الإضافى. الثالث رجل أكبر منهما ولد فى هذه الأطراف، صياد وتاجر خيول، سأتولى دفع أجوره من جيبى الخاص. أدعوهم معاً إلى فى الظهيرة التى تسبق سفرنا. أقول لهم، أنا أعرف أن الوقت غير ملائم للسفر. إنه وقت غدار، نهاية ذيل شتاء، ربيع لم يبدأ بعد هنا، ولكن إن انتظرنا أكثر فلن نجد البدو قبل أن يبدأوا الشروع بهجرتهم ، لا يطرحون أى سؤال.

للفــتاة أقول ببساطة، سآخذك إلى أهلك، أو إلى أقرب نقطة أتمكن من الوصول إليها. مدركاً أنهم قد تفرقوا الآن . لا تبدى علامـــة فرح ما. أضع إلى جوارها الفراء الثقيل الذى اشتريته لهــا لتســافر بـــه، مع قبعة من جلد الأرنب مزخرفة بحسب الطريقة المحلية وزوجا من الأحذية طويلة الساق وقفازين.

الآن وقد أعددت نفسي لوجهة معينة، أنام بسهولة أكثر، بل حتى أتتبع فى داخلى شيئاً كالسعادة.

نغـــادر فى الثالث من آذار، ترافقنا عبر البوابة ومنحدرين إلى الطريق ثم إلى طرف البحيرة، مجموعة غوغاء من أطفال وكلاب. بعد اجتيازنا سور الإرواء منحرفين عن طريق النهر، مــتخذين الطـــريق إلى اليمين الذى لا يستعمله غير الصيادين وصـــائدى الطيـــور، يـــبدأ عدد مرافقينا بالتضاؤل حتى يبقى صـــبيان عـــنيدان يهرولان خلفنا، قد قرر كل واحد منهما أن يتفوق على الآخر.

الشمس قد أشرقت ولكنها لا تبعث دفئاً. الريح تضربنا آتية عـــبر الـــبحيرة إلى حد تشرق أعيننا بالدمع. سائرين فى رتل الواحـــد خلف الآخر، أربعة رجال وامرأة، أربع دواب محملة، تـــتحمل الخيول بعناد قسوة الريح مع الحاجة إلى توزعها هنا وهـــناك، نلـــتف مبتعدين عن البلد المسورة، الحقول الظاهرة للعيان وبعيدا أيضا عن الصبيين اللاهثين.

٢

خطـتى هى تتبع هذا الطريق حتى نلتف حول البحيرة إلى الجـنوب، ثـم نندفع جهة الشمال الشرقى عبر الصحراء نحو وديان المراعى حيث يشتى بدو الشمال. انه طريق يسلك نادرا. مـنذ أن بـدأ البدو، فى خلال هجرتهم مع قطعانهم، فى تتبع مجـرى النهر القديم فى اجتياح واسع شرقاً وجنوباً. على أى حـال، هذا الطريق يقلل الرحلة من ستة أسابيع إلى أسبوع أو اثنين.

وهكـذا، نكدح فى السير ثلاثة أيام جنوباً ثم باتجاه الشرق. تمتد إلى يميننا أرض شبه مستوية من صلصال نحتتها الرياح، مندمجة فى أقصى أطرافها مع ركام من سحابة غبار أحمر. ثم مع السماء الصفراء المكفهرة. على يسارنا مستنقعات منبسطة، حلقات من القصب والبحيرة حيث طبقة من جليد فى الوسط لم تـذب حـتى الآن. الريح الهابة فوق الجليد تجمد أنفاسنا، إننا نفضـل السـير فى الغـالب أوقاتا طويلة، بدلاً من الركوب، محتمين بخيولنا. تلف الفتاة شالاً حول وجهها عدداً من اللفات، وهى جاثمة على سرجها، تتبع على نحو أعمى من يقودها.

اثـنان مـن الـدواب محملان بحطب الوقود، ولكننا علينا الاحـتفاظ به للصحراء. مرة، ونحن نصف مغمورين فى كتل رمـلية مـندفعة، نفاجـأ بشجرة طرفاء ممتدة مثل أكمة، نقوم بـتقطيعها إربـاً من أجل الوقود. فى الأيام المتبقية كان علينا

الاكـــتفاء بحزم من قصب يابس. الفتاة وأنا ننام جنباً إلى جنب في خيمة واحدة، كل واحد منا محشور في فرائه تجنباً للبرد.

في هذه الأيام الأولى من الرحلة، نأكل بشكل جيد. لقد جلبنا لحمـــاً ممـــلحاً، فضـــلاً عن الطحين، الفاصوليا، فواكه مجففة وهـــناك طـــرائد كـــثيرة للصيد. ولكن كان علينا الاقتصاد في المـــاء. ميـــاه المستنقع الضحلة في الأطراف الجنوبية الناتئة، مالحة جداً لا تصلح للشرب. كان على أحد رجالنا أن يخوض عشـــرين أو ثلاثين خطوة فيها، إلى عمق ربلة ساقيه، من أجل ان يمـــلأ القـــرب، أو الأفضل، لكسر كتل الجليد. ولكن، حتى الميـــاه الجليدية المذابة، مرة جداً ومالحة، بحيث إنها لا تصلح للشـــرب إلا مـــع شاي قوي أحمر. في كل عام تزداد البحيرة ملوحة بينما يقرض النهر من ضفافها ويكنس الملح والشب إلى البحيرة. وبسبب من عدم تدفق المياه في البحيرة، فإن نسبة ما تتضـــمنه مـــن عناصر معدنية، يبقى في ارتفاع، وخاصة في الجنوب، حيث تعزل كمية من المياه سنوياً بفعل حواجز رملية. ويجـــد الصيادون، بعد فيضان الصيف، أسماك شبوط عائمة، بطـــنها إلى أعلى في المياه الضحلة. يقولون إن أسماك الفرخ الـــنهرية لـــم تعد ترى فيها. وما الذي سيحدث للمستوطنة إن تحولت البحيرة إلى بحر ميت؟

بعد يوم من شاي مالح، يبدأ كل واحد منا، ما عدا الفتاة، في

المعانـــاة مـــن الإســـهال. كنت الأسوأ ممن ابتلى. أحس بشدة بمشـــاعر الإذلال للتوقفات المتكررة، خلع الملابس وارتداؤها بأصـــابع متجمدة محتميا بحصان بينما ينتظر الآخرون. أحاول ان أشرب أقل كمية ممكنة من الماء، إلى الدرجة التى يبدأ فيها عقـــلى، وأنـــا راكـــب بطرح صور تعذبنى للماء مقترباً منى ومبـــتعداً. بـــرميل ممتـــلئ عند طرف بئر والماء يتناثر عن المغرفة، نظيف أبيض كالثلج. قيامى أحياناً بصيد البط مستعيناً بصـــقر، معاشـــراتى العابـــرة للنساء (دون هدف)، ممارسات رجولـــتى، قـــد حجـــبت عنى، مدى النعومة التى صار إليها جسدى. عظامى تؤلمنى بعد سير مسافات طويلة، ومع مجىء الـــليل، أحـــس بـــتعب شديد يجعلنى بلا شهية. أمشى مسافات طويـــلة مجهـــداً حتى لا أقدر أن أضع قدما أمام الأخرى، ثم أتســـلق بجهـــد فـــوق السرج، ألف نفسى بمعطفى الفضفاض، وألـــوح لأحد الرجال بالتقدم ليتولى مهمة العثور على الطريق الـــباهت. لا تتركـــنا الـــريح أبداً، إنها تنبح علينا عبر الجليد، تعصـــف من لا مكان إلى لا مكان، مغطية السماء بسحابة من تـــراب أحمـــر. لا مجال للاختفاء من التراب: إنه يتسلل إلى ثيابـــنا، يغلف وجوهنا، يتغلغل فى أمتعتنا، نأكل بأفواه مغلقة، نبصق غالباً، تصر أسناننا، يصبح التراب لا الهواء هو الوسط الذى نعيش فيه. نعوم عبر التراب مثل سمك عبر ماء.

لا تشـــكو الفتاة، تأكل جيداً، لا تمرض، تنام بعمق متكورة

مــثل كـــرة فى جـــو بارد أتمنى فيه أن أحتضن كلباً من أجل الراحة. تسير راكبة طوال النهار دون تذمر. مرة، ملقيا نظرة نحوها، أراها راكبة وهى نائمة، وجهها هادئ كوجه طفلة.

فى اليوم الثالث تبدأ أطراف المستنقعات بالالتواء إلى الخلف نحو الشمال، ونعلم عندئذ أننا قد

درنـــا حـــول البحيرة. نقيم مخيماً فى ساعة مبكرة ونمضى ســاعات الضــياء الأخيرة فى جمع أى فضلة ممكنة من قطع الوقـــود، بيـــنما تـــرعى الخيـــول للمرة الأخيرة فى حشائش المســتنقعات الهزيـــلة. وفى فجر اليوم الرابع، نبدأ بقطع قاع المجـــرى القديـــم للـــبحيرة الممتد أربعين كيلومترا آخر خلف المستنقعات.

أرض الـــبادية أكثر قفرا من أى شئ آخر رأيناه حتى الآن. لا شئ ينبت فى قاع هذه البحيرة الملحية. التى تتبعج فى بعض مناطقها وتندفع إلى الأعلى فى انشقاقات بلورية مثلومة سداسية الأضلاع بعرض قدم واحدة. هناك مخاطر أيضا. الجواد الأول يغوص فجأة فى قشرة الأرض خلال عبوره رقعة ناعمة بشكل غير اعتيادى، ويغطس حتى الصدر فى وحل كدر معشوشب. يقف الرجل الذى يقوده مصعوقاً فى فراغ واه قبل أن يسقط هو أيضا متلوثا برشاش من قذارة. نكافح من أجل سحبهما خارجا، تتشـــظى القشـــرة الملحية تحت حوافر الجواد، تتوسع الحفرة،

تنتشــر الروائح الكريهة للماء الآسن فى كل مكان. ندرك الآن أنــنا لــم نترك البحيرة خلفنا: انها تمتد هنا تحتنا، تحت غطاء يمتد أحياناً عدة أقدام عمقا، وفى أحيان أخرى تحت قشرة رقيقة مــن ملح هش. كم من زمن قد مضى منذ أن أشرقت الشمس آخــر مــرة على هذه المياه الميتة؟ نوقد نارا على أرض أكثر صــلابة، لتدفئة الرجل المرتعش وتجفيف ملابسه. يهز رأسه ويقــول، سمعت على الدوام، احذروا البقع الخضر، ولكننى لم أر مــثل مــا حدث من قبل . إنه دليلنا، الرجل الوحيد الذى قد ســافر عبر شرق البحيرة. ندفع خيولنا، بعد ما حدث، بضغط أشــد، وبسرعة أكبر من أجل الخلاص من هذه البحيرة الميتة، خشــية أن نــتيه فى مادة مائعة أشد برداً من الجليد، معدنية، خفيــة، بــلا هواء. نحنى رؤوسنا ونندفع فى العاصفة، تنتفخ معاطفــنا مثل بالونات خلفنا، ملتقطين دربا فوق القطع الملحية المتكسرة المثلومة، متجنبين الأرض الناعمة. تشع الشمس مثل برتقالة من خلال نهر الغبار الذى يتقدم بمهابة عبر السماء، لا تــدفئ شيئا. عندما يسقط الظلام، ندق أوتاد الخيمة فى شقوق الملح المتصلبة كالحجارة، نوقد نارنا بثمن باهظ، ومثل البحارة نصلى من أجل أرض.

فى اليوم الخامس، نترك، قاع البحيرة خلفنا ونمر عبر حزام مــن الأمــلاح المتبلورة الناعمة التى سرعان ما تستسلم أمام الرمال والحجارة. تشتد عزائمنا جميعاً، حتى الخيول، التى فى

خـــلال عـــبورها الأرض المالحـــة، لم تتناول شيئا غير بضع حفنات من بذر الكتان ودلو من ماء آسن أجاج. حالتها بوضوح متدهورة جداً.

أمـــا بالنسبة للرجال، فإنهم لا يتذمرون. اللحم الطازج ينفد ولكـــن يتبقى لدينا اللحم المملح والفاصوليا المجففة ووفرة من طحين وشاى وهى قوام الطريق الأساسية، نغلى الشاى فى كل اســتراحة وقـــوف ونقـــلى (كتلة متراصة من السمن)، كعكة ضخمة، لقمة لذيذة بالنسبة للجائع. يقوم الرجال بالطبخ: كونهم خجلين من الفتاة، غير واثقين من موقفها، غير واثقين أكثر من أى شـــئ آخـــر، مـــا نفعلـــه فى أخذهـــا للبرابرة، هم بالكاد يخاطبونها، يتجنبون النظر إليها، ولا يسألون، بالتأكيد مساعدة مـــنها فى الطبخ. أنا لا أقوم بالضغط عليها للتقدم نحوهم، آملاً أن تتـــبدد قيـــود الكـــبح فى خلال الطريق. لقد اخترت هؤلاء الـــرجال لأنهـــم شديدو القدرة على التحمل وأمناء، ومستعدون للعمل. انهم يتبعونني بأقصى ما يقدرون من خلو البال فى مثل هذه الظروف، على الرغم من أن الدرع الممتاز الصقيل الذى ارتـــداه كـــل واحـــد من الجنديين الشابين عند اجتيازنا البوابة الكـــثيرة، مربوط الآن علي ظهر الدواب فى حزم بين الأمتعة وغمـــد سيفه ممتلئان رملاً. تبدأ المسطحات الرملية تتغير إلى كثـــبان رملية. يتباطأ تقدمنا ونحن نصعد بكد جوانب الكثبان. إنهـــا أسوأ تضاريس أرضية بالنسبة للخيول والتى تسير بتثاقل

وبطء، بضعة انجات فى كل مرة، منغرزة حوافرها عميقاً فى الــرمل. أتطلع إلى دليلنا ولكن كل ما يقدر عليه هو هز كتفيه: سيســتمر الأمــر هكــذا أميالاً، علينا اجتيازها، لا سبيل آخر أمامــنا". واقفاً فى أعلى كثيب رملى، مغطياً عينية متطلعاً إلى الأمام، لا أستطيع ان أرى غير دوامة من رمال.

فى تلك الليلة، لا يتناول أحد الخيول ما نقدمه له من طعام. وفى الصــباح، وتحــت أقسى السياط، يرفض النهوض. نقوم بإعادة توزيع الأحمال ونتخلى عن قسم من حطب الوقود. أبقى خــلفهم، فيمــا يســير الآخرون. بإمكانى أن أقسم أن الحيوان يعــرف ما سيحدث له. أمام مرأى السكين، تتقلب عيناه، ومع تفجــر الدم من رقبته، يندفع طليقاً من الرمل ويترنح خطوة أو اثنــتين باتجــاه الريح قبل أن يسقط. سمعت أن البرابرة، فى حــالات الشــدة المهلكة، يفرغون عروق خيولهم من الدم. هل سنبقى على قيد الحياة كى نتأسف على هذا الدم المراق بإسراف على الرمل؟

فى اليــوم الســابع، والكثبان قد أصبحت خلفنا أخيراً، نميز قــبالة المــنظر الطــبيعى الخالى الممل بلونه الرمادى البنى، شــريطا مــن الرمادى الغامق. من مسافة أقرب نجد أنه يمتد شرقاً وغرباً عدة أميال. بل هناك أيضاً أشكال سوداء لأشجار. يقول دليلنا، نحن سعداء، من المؤكد وجود ماء هنا.

مـــا تعــثرنا به هو قاع مجرى قديم لمستنقع. قصب أبيض وهش عند الملمس، يحدد ما كان ضفافه. الأشجار هى الحور، وهى أيضا ميتة منذ زمن طويل. لقد ماتت منذ أن تراجع الماء الموجــود تحــت الأرض إلى مسافة أبعد مما يمكن لجذورها الوصول إليه قبل أعوام وأعوام.

نـــنزل حمولـــة الحيوانـــات ونبدأ بالحفر. نصل عند مسافة قدميـــن عمقاً إلى طبقة سميكة من صلصال كثيف أزرق. تحت هـــذه الطـــبقة رمال أيضاً، ثم طبقة أخرى من صلصال ظاهر الـــلزوجة. عـــند عمق سبعة أقدام، وقلبى يخفق بشدة وأذناى تطـــنان، اضطر إلى رفض دورى مع المعول. يستمر الرجال الـــثلاثة فى الكدح، رافعين التراب المخلخل من الحفرة بقطعة من قماش خيمة بعد ربط زواياها.

على عمق عشر أقدام، يبدأ الماء بالتجمع حول أقدامهم. إنه حـــلو، لا يوجد أثر للملوحة فيه، نبتسم بفرح لبعضنا البعض، ولكـــنه يـــتجمع ببطء شديد كما أن جوانب الحفرة تحتاج إلى اســـتخراج مـــا يتقوض منها باستمرار. فى ساعة متأخرة من العصـــر فقـــط، ننتهى من إفراغ آخر ما لدينا من ماء البحيرة الآســـن الأجاج ونملأ القرب الجلدية ثانية. وقبل حلول الظلمة تماماً، ندلى البرميل إلى بئرنا ونسمح للخيول بشرب الماء.

فى ذلـــك الوقـــت نفسه، وبعد توفر خشب الحور لدينا، قام

الـــرجال بحفـــر فـــرنين صــــغيرين فى الصلصال، ملتصقين بظهريهما وعززوا ناراً مزمجرة على قمة كل واحد منهما من أجل طبخ الصلصال وتجفيفه. عندما تتضاءل النيران، سيكون بإمكـــانهم جرف الفحم وإعادته إلى الفرن والبدء بأعداد الخبز. تـــرقب الفـــتاة واقفة كل ما يحدث، مستندة إلى عكازيها اللذين قمـــت بتثبيت قرصين خشبيين عليهما من أجل مساعدتها على الوقوف. ويتدفق الكلام فى غمرة هذه العلاقة الحميمة والسهلة مـــع راحـــة موعودة. مازحين معها، يبدأ الرجال بإبداء أولى عـــروض الصـــداقة: تعـــالى وأجلسى معنا وتذوقى ما يخبزه الـــرجال! تبتسم مستجيبة لهم، رافعة ذقنها فى حركة ربما أنا وحـــدى أعـــرف أنها محاولة منها للنظر. بحذر تجلس وتتخذ لنفسها مكانا على الأرض بجوارهم لتنغمر فى وهج الفرنين.

أنـــا نفســـى أجلس فى مكان أبعد، محتمياً من الريح بفتحة مقدمـــة خيمـــتى، أحـــد القناديل الزيتية يومض بقربى. أدون يوميـــات العمـــل فى السجل الخاص، مصغياً أيضاً فى الوقت نفسه. يتواصل المزاح والهزل بلغة الحدود المبسطة المفهومة، وهى تتحدث دون ارتباك. أندهش لطلاقة لسانها، خفتها، ثقتها بنفسها. بل إننى أنتبه لنفسى، متوهجاً بالفخر: إنها ليست مجرد أنـــثى الرجل العجوز، إنها ذكية، امرأة شابة جذابة! لو أننى قد عـــرفت كيفيـــة استعمال لغة المزاح التى تبعث السعادة لكانت علاقة بعضنا ببعض قد غدت أكثر صميمية ودفئاً. ولكننى مثل

مغفل، بدلاً من منحها وقتاً طيباً، ضغطت عليها بالهموم. حقاء إن العالم يجب أن يخص المغنين والراقصين! مرارة غير ذات جــدوى، كآبــة لا قيمة لها، ندم أجوف! أطفئ القنديل، أجلس مزنقنى على قبضتى محدقاً فى النار، أصغى إلى قرقرة معدتى.

* * *

أنـــام نوم الانهماك المطلق. وعندما أكاد أبزغ إلى الصحو، تــرفع طــرف فــراء الدب الكبير وتدنو منى التماساً للدفء. 'الطفــل يستبرد فى الليل – هذا ما أفكر فيه وأنا فى حالة من التشوش عقب الصحو، أشدها نحو انحناءة ذراعى، متسللاً إلى نعـــاس. ربمـــا أســتغرق مدة من زمن فى النوم ثانية. بعدئذ، صاحياً تماماً، أحس بيدها متحسسة تحت ملابسى، لسانها يلحس أذنى، موجة من بهجة حسية صياح كل كيانى، أتثاءب، أتمطى، وأبتسم فى الظلمة. تعثر يداها على ما تبحث عنه، ماذا بشأنه؟ أفكــر. ماذا إن فنينا فى منتصف اللامكان؟ دعنا على الأقل لا نمــوت محرومين تعساء! . كانت عارية تحت قميصها، بدفعة كــنت فوقها، إنها دافئة، مفعمة بعاطفة قوية، مستعدة لى، وفى دقيقــة، يزول تردد فارغ استمر أشهراً خمسة وأنا أطفو عائداً إلى حالة من سلوان حسى سلس.

عندما أستيقظ يكون ذلك بذاكرة ممسوحة خالية تماماً بحيث إن الفزع يتصاعد فى. لا أقدر إلا بعد بذل جهد متأن من إعادة

نفسى إلى الزمان والمكان: إلى فراش، خيمة، عالم، جسد يمتد شـرقاً وغرباً، وعلى الرغم من كونى منبطحاً عليها بثقل ثور ميت، فإن الفتاة نائمة، ذراعاها ملتفان باسترخاء حول رقبتى. أرخى نفسى عنها، أعيد ترتيب غطائنا وأحاول تهيئة نفسى. لا أتخيـل ولـو للحظة واحدة أننى سأقدر يوم غد على تقويض مخيـم، أن أسـير عـائداً إلى الواحـات، وفى منزل القاضى المشمس، أستقر وأعيش ما تبقى من حياتى مع عروس شابة، أنـام فى سكون إلى جوارها، أكون أباً لأولادها، أرقب تعاقب الفصـول. لا أشـعر بالخجل من فكرة أنها لو لم تكن أمضت الأمسية مع رجال شبان حول نار المخيم، فمن المحتمل أنها لم تكـن قد وجدت أى حاجة إلى. ربما إن الحقيقة هى أن واحداً مـنهم كانت تحتضنه هى عندما أمسكتها بين ذراعى. أصغى مرتاعاً إلى ترددات تلك الفكرة فى داخلى، ولكننى لا أقدر على كشـف غصـة للقلب تقول لى إننى قد جرحت. تنام هى، تمر يدى إلى الأمام ووراء بطنها الناعمة مربتة على فخذيها. لقد تم الأمـر، أنـا مرتاح البال. وفى الوقت نفسه، أنا على استعداد للاعتقاد انه لم يكن سيتم ما لم أكن فى خلال أيام مفارقاً إياها. ولا إن توجب على أن أكون صريحاً، كانت المتعة التى وجدتها فيهـا، المـتعة التى ما يزال غصن غارى يستشعر انعكاساتها الـبعيدة، تسرى عميقا. قلبى لا يثب إليها أكثر من ذى قبل ولا يخفـق دمى عـند ملمسها. أنا معها ليس من أجل أى نوع من

نشـــرة قـــد تعذنى بها أو تمنحها، ولكن لأسباب أخرى والتى ســتبقى غامضـــة بالنسبة لى كما أبداً. ما عدا أنه لم يغب عن ذاكرتى أنه فى الفراش فى الظلام تنسى بسهولة العلامات التى تـــركها عليها من قاموا بتعذيبها، القدم الملتوية والعينان نصف العميـــاوين. هــل أن القضية إذن أنها المرأة الكاملة هى التى أريـــد، وأن متعـــتى فيها تسلب ما لم تمح عنها هذه العلامات وتعـــود كما كانت، أم إن القضية (لست بأبله، دعونى أقل هذه الأمـــور) ان هذه العلامات عليها هى التى جذبتنى إليها ولكن لخيـــبة أملى، أكتشف أنها لا تمتد إلى عمق كاف؟ كثير جداً أو قليل جداً: هل هى التى أريد أم آثار تأريخ يحمله جسدها؟ أبقى مستلقياً مدة طويلة محدقاً فى ما يبدو منحدر سواد، على الرغم مـــن أنـــنى أعرف أن سقف الخيمة لا يبعد غير ذراع فقط. لا فكـــرة أنعـــم الـــنظر فيها، لا لفظ، إلى أى هدى كان مناقضاً، لمصدر رغبتى يبدو مقلقاً بالنسبة لى. أفكر، لابد أننى متعب. أو ربما مهما يكن الملفوظ واضحاً فإن التعبير عنه يكون زائفاً، تتحرك شفتاى بصمت، مشكلة ومعيدة تشكيل الكلمات. أو ربما إنها القضية الوحيدة إلى حد بعيد التى لم تلفظ بل التى تجب أن تعاش بكل ما فى الكلمة من معنى. أتفرس فى هذا الافتراض دون ان أســـتبين فى نفســـى أى نزعة استجابة نحو موافقة أو معارضة. تصبح الكلمات أكثر وأكثر غموضاً أمامى. سرعان مـــا تكـــون قـــد فقدت معناها. أتنهد فى نهاية يوم طويل، فى

منتصــف ليــلة طويلة. ثم أستدير إلى الفتاة، أحتضنها، أشدها بقوة إليّ تخرخر فى نومها، حيث سرعان ما انضممت إليها.

* * *

نـــرتاح فى اليوم الثامن، إذ إن الخيول الآن فى حالة يرثى لهـــا. وهى تـــلوك بجـــوع أنسجة بلا عصارة لسيقان القصب الميتة. إنها تنفخ بطونها بالماء وتخرج ريحاً بقوة. لقد أطعمناها آخر ما لدينا من بذر الكتان وحتى جزء من خبزنا. وما لم نجد مرعى لها فى خلال يوم أو يومين، فإنها ستنفق.

* * *

نـــترك خلفاً بئرنا، والرابية التى قمنا بحفرها، نحث السير شـــمالاً. كل واحد منا ماشٍ ما عدا الفتاة. لقد تخلينا عن كل ما فى اســـتطاعتنا من أجل تخفيف أحمال الخيول، ولأننا لا نقدر الـــبقاء على قيد الحياة من غير نار، فما زال عليها نقل حمولة ثقيلة من الخشب.

أسأل دليلنا، متى سنرى الجبال؟

يـــوم واحد أو يومان. من الصعب القول. لم أسافر فى هذه الأرجاء من قبل. لقد مارس الصيد على طول الساحل الشرقى للبحيرة والحدود الخارجية للصحراء دونما حاجة إلى اجتيازها. انتظر أنا، مانحاً إياه كل فرصة لشرح ما يدور فى ذهنه، ولكنه

لا يــبدو قلقاً، وهو لا يعتقد أننا فى خطر. ربما يومان قبل أن نصـــلها، ثـــم يوم آخر من السير قبل الوصول إليها . يغمض عيـــنيه نصف إغماضه، متطلعاً فى الضباب البنى الذى يغلف الأفق، إنه لا يسأل عما سنفعله عند وصولنا الجبال.

نصـــل نهاية الأرض المسطحة الحصباء ونصعد سلسلة من أخـــاديد صـــخرية إلى سهل فسيح، حيث تبدأ نتوءات لحشائش ذابـــلة تظهـــر لـــلعيان. تعدو الحيوانات إليها باندفاع وحشى. رؤيتها تأكل، أمر نقابله بارتياح كبير.

أســـتيقظ مجفـــلاً فى منتصـــف الليل، ممتلئاً بإحساس مليح بوجود خطأ ما. تجلس الفتاة بجوارى، تقول، ما الأمر؟

أصغى، لقد توقفت الريح .

حافية، ملتفة بالفراء، تزحف خلفى إلى خارج الخيمة. الثلج يتســـاقط بنعومة. الأرض مستلقية بيضاء فى كل الجهات تحت بـــدر مضبب. أساعدها فى الوقوف على قدميها وأقف ممسكاً إياهـــا، متطلعاً فى الفضاء الذى تتساقط منه الندف الثلجية، فى صـــمت محسوس بعد أسبوع من رياح تدوى دونما توقف فى آذانـــنا. ينضم إلينا رجال الخيمة الثانية. نبتسم ببلاهة لبعضها البعض. أقول، ثلج الربيع، آخر ثلوج العام . يهزون رؤوسهم إيجاباً. حصان يهز نفسه بالقرب منا، يجعلنا نجفل.

محتجزان بسبب الثلج فى الخيمة الدافئة، أمارس الحب معها. إنها سلبية، تكيف نفسها لى.

عندما نبدأ أكون واثقاً من أن الوقت ملائم: أحتضنها بأشد وأكثف رغبة وبزهو الحياة. ولكن فى منتصف طريقى أبدو فاقداً الإحساس بها، ويتلاشى الفعل فى فراغ. بديهيات بوضوح عرضة للخطأ. ومع ذلك، فإن قلبى يستمر فى التوهج محبة تجاه الفتاة والتى سرعان ما تنام عند انحناءة ذراعى. ستكون هناك فرصة أخرى، وان لا تكن، فلا أعتقد بأننى سأهتم.

* * *

صوت ينادى عبر شق مدخل الخيمة: سيدى، يجب أن تستيقظ!

انتبه بارتباك إلى أننى قد نمت أكثر مما يجب. إنه السكون، أفكر مع نفسى: يبدو الأمر وكأنما قد هدأنا فى السكون'.

أبزغ من الخيمة إلى ضوء النهار. يقول الرجل الذى أيقظنى، مشيراً نحو الشمال الشرقى، انظر سيدى، جو سيئ فى الطريق!

متدحرجة نحونا فوق السهل الثلجى، موجة سوداء هائلة. إنها ما تزال على مبعدة أميال عنا ولكنها بوضوح تبتلع الطريق فى اقترابها. قمتها ضائعة فى الغيوم المضببة. أصرخ،

عاصـفة! . لـم أر من قبل شيئاً مخيفاً مثلها. يسرع الرجال لـتقويض خيمهم. اجلبوا الخيول إلى الداخل، قيدوها هنا بحبل طويـل، فى الوسـط! أولى الهبات تصلنا تواً، الثلج يبدأ يدوم ويرفرف فى الهواء.

الفتاة بجوارى على عكازيها. أقول، هل بإمكانك رؤيتها؟ . تـنظر بطريقـتها الملتوية وتومئ برأسها. يبدأ الرجال العمل مقوضين الخيمة الثانية. الثلج بعد كل ذلك لم يكن علامة طيبة. لا تجيـب. على الرغم من معرفتى بوجوب تقديم مساعدتى، فإنـنى لا أستطيع أن انتزع عينيى من الجدار الأسود المزمجر القادم نحونا بسرعة حصان يجرى عدواً. تعلو الريح، مسقطة إيانا أرضاً، الولولة المعهودة ثانية فى آذاننا.

اسـتحث نفسى. أصيح، بسرعة، بسرعة! ، مصفقاً بيدى. يجلس أحد الرجال على ركبتيه يطوى الخيمة، يلف قطع اللباد، يـرص أغطية الفراش. ينهمك الاثنان الآخران بجلب الخيول إلى الداخـل. اجلسى! أصرخ بالفتاة، وأتدافع لتقديم المساعدة فى الرزم. جدار العاصفة لم يعد بلون أسود بل دوامة مشوشة مـن رمـل وثلج وتراب. ثم ومرة واحدة تتصاعد الرياح فى صـرخة، تطيـر قبعتى عن رأسى، وتضربنا العاصفة. أسقط منـبطحاً عـلى ظهرى. ليس بفعل الرياح بل من قبل حصان يـتحرر مـن قيده ويتخبط هنا وهناك، أذناه منبسطتان وعيناه تتقلبان. أصيح، امسكوا به. كلماتى هى لا شىء غير همسة،

لا أستطيع أنا نفسى سماعها. يتلاشى الحصان عن البصر مثل شـبح. تدور الخيمة فى اللحظة نفسها، عاليا فى السماء. أقذف بنفسـى فـوق حزمة اللباد، ممسكا بها أرضاً، مهمهماً بغضب لنفسـى. ثم على يدى وقدمى، ساحباً اللباد، أعود ببطء باتجاه الفـتاة. الأمر أشبه بالزحف ضد تيار مائى جار. قد سدت تواً، بالرمال عيناى، أذناى، فمى، ألهث كى أتنفس.

تقـف الفـتاة ويداهـا مبسوطتان مثل جناحين فوق رقبتى حصـانين تـبدو كأنها تتحدث معهما: وعلى الرغم من توهج مقلتيهما، فانهما ساكنان.

ذهبت خيمتنا! أصرخ فى أذنها، ملوحاً بذراع تجاه السماء. تسـتدير: وجهها تحت القبعة ملفوف بوشاح أسود، مغطياً حتى عينيها. أصيح ثانية، خيمة قد ذهبت! . تومئ برأسها.

نجثم خمس ساعات خلف خشب الوقود والخيول بينما تجلدنا الـريح بالثـلوج، الجليد، المطر، الرمل، الحصى. نتوجع برداً حـتى العظام تماماً. خواصر الخيول التى تواجه الريح، مغطاة بطـبقة من جليد. نحتشد معاً، إنساناً وحيواناً، متقاسمين دفئنا، محاولين الصمود.

بعدئذ فى منتصف النهار تنسحب الريح فجأة وكأنما بوابة قد أغلقت فى مكان ما. ترن آذاننا فى الهدوء غير المألوف. يجب علينا تحريك أطرافنا الخدرة، تنظيف أنفسنا من الأتربة، تحمل

الحيوانات، وأن نعمل لجعل الدم يجرى فى عروقنا، ولكن كل ما نريده هو ان نستلقى مدة أطول فى مكمننا. خمول منحوس! ينقشط صوتى عن بلعومى، تعالوا أيها الرجال، دعونا نحمّل .

ارتفاعات محدبة فى الرمال تدل على أماكن متاعنا المبعثر المدفون. نبحث مع اتجاه الريح لكننا لا نجد علامة ما تدل على خيمتنا المفقودة. نساعد الخيول الصارة على الوقوف ونحملها. بـــرودة العاصفة تعد صفراً قياساً للبرودة التى أعقبتها، والتى تســتقر علينا مثل حجاب كثيف من جليد فوقنا. تتحول أنفاسنا إلى قشـــرة جـــليدية، نرتعش فى داخل أغطيتنا الواقية. ينهار الحصــــان الأول بعـــد ثلاث خطوات مرتبكة متأرجحة، يسقط عـــلى جـــزئه الخلفى: نرمى جانباً وقود الخشب الذى يحمله، نوقفه على قدميه بقائم، نضربه بالسياط. أشتم نفسى، ليس للمرة الأولى، لخـــروجى للسفر فى رحلة شاقة مع دليل غير موثوق فى موسم غدار.

* * *

اليـــوم العاشر: جو أدفأ، سماءات أصفى، رياح أعذب. نغذ الســـير عـــبر أراض منبســـطة، عندما يصرخ دليلنا ويشير. الجبال!' أنعم النظر ويثب قلبى. ولكنها ليست الجبال تلك التى يـــراها. البقع التى يشير إليها فى البعد هم رجال، رجال على ظهـــور الخيل: من غير البرابرة! أستدير نحو الفتاة، التى أقود

مطيــتها البطيئة الحركة. أقول، لقد وصلنا تقريباً. هناك أناس أمامنا، سنعرف سريعاً من هم . غم الأيام الماضيات يرتفع عن كاهــلى. متحركاً إلى المقدمة، مسارعاً خطواتى، أدير مسيرتنا تجاه الشخوص الثلاثة الضئيلة فى البعد.

نشــد السير نحوهم قرابة نصف ساعة قبل أن ندرك أننا لا نقــترب البــتة مــنهم. كــلما نــتحرك يتحركون أيضاً. انهم يتجاهلونــناً. أفكر فى ذلك وأرى اللجوء إلى إيقاد نار. ولكننى عــندما أطلب توقفاً، تتوقف البقع الثلاث، وعندما نعاود سيرنا، يــبدأون هم بالحركة. أتعجب، هل هم انعكاسات لنا، هل إنها خدعــة الضياء؟ لا نقدر على سد الفراغ بيننا. كم مضى على تعقبهم إيانا؟ أم تراهم يعتقدون بأننا نتعقبهم؟

أقول للرجال، توقفوا، لا فائدة من ملاحقتهم، دعونا نر إن أرادوا مقابلة واحد منا على انفراد . وهكذا أمتطى حصان الفتاة وأســير منفرداً نحو الغرباء. لوهلة قصيرة يبدون ساكنين بلا حراك، يراقبون وينتظرون. يبدأون فى التراجع بعدئذ يومضون عــلى حافــة الغبار الضبابى. حصانى ضعيف جدا غير قادر الأعــلى الســير خبــباً عــلى الرغم من حثى إياه أتخلى عن المطاردة، أنزل عن الحصان، وأنتظر وصول رفاقى إلىّ.

من أجل المحافظة على قوة الخيول بدأنا نجعل سيرنا أقصر وأقصر. لا نقطع فى سيرنا أكثر من ستة أميال فى عصر ذلك

اليـــوم عبر تضاريس أرض منبسطة صلبة، وباستمرار يحوم راكـــبو الخيول الثلاثة ضمن مدى رؤيتنا، قبل أن نقيم مخيما. أمام الخيول ساعة من الزمن للرعى على الحشائش المنخفضة الضئيلة التى قد توجد، بعدها نقوم بربطها فى حبل طويل إلى الخيمـــة ونقيـــم حارساً عليها. يسقط الظلام، تبزغ النجوم فى ســـماء مضـــببة. نســـتلقى حـــول نار المخيم نلتمس الدفء، مســـتمتعين بآلام الأطراف المتعبة، متحاشين التجمع فى خيمة واحـــدة. بوسعى أن أقسم، متفرساً شمالاً على استطاعتى رؤية وميـــض نـــار أخرى، ولكننى عندما أحاول تحديدها للآخرين، يكون الليل حالك السواد غير قابل للنفاذ.

يـــتطوع الـــرجال الـــثلاثة للـــنوم خارج لخيمة، متناوبين المراقـــبة. أتأثـــر لما بدر منهم. أقول، بعد بضعة أيام، عندما يكون الجو أدفأ . ننام ملء جفوننا، أربعة أجساد محشورة معاً فى خيمة واحدة تكفى اثنين، الفتاة باحتشام فى الطرف الأبعد.

أســـتيقظ قـــبيل الفجر متفرساً صوب الشمال. بينما تتحول الألوان الحمراء – الوردية والبنفسجية الزاهية لشروق الشمس إلى الـــلون الذهبى، تتجسد البقع مرة أخرى على الوجه الأسود للســـهل، ليـــس ثلاثاً منها ولكن ثمان، تسع، عشر، ربما اثنتى عشرة.

بعمـــود وقطعـــة من قميص كتانى أبيض، أعمل راية وأسير

عــلى حصــان متوجها نحو الغرباء. لقد توقفت الريح، الهواء صاف، أعد وأنا في طريقي: اثنا عشر شكلاً صغيراً على جانب مــرتفع وعلى مسافة بعيدة خلفهم الأساس الباهت الشبحي لزرقة الجــبال. وبينما أرقب أنا، تبدأ الأشكال بالتحرك. يتجمعون في خط الواحد خلف الآخر ومثل نمل يتسلقون المرتفع. عند الحافة يتوقفون. تحجبهم موجة من غبار ثم يظهرون مجدداً. اثنا عشر راكــباً عند خط السماء. أغذ السير، والراية البيضاء تخفق فوق كــتفي. ومع أنني أبقي بصري ثابتاً على الحافة، فإنني أفشل في الانتباه إلى اللحظة التي اختفوا فيها.

أقــول لمجموعــتي، علينــا ببساطة إهمالهم . نحمل ثانية ونعــاود السير نحو الجبال. يحز قلوبنا اللجوء إلى السياط من أجــل تحميل حيواناتنا الضامرة، مع أن الأحمال تزداد خفة في كل يوم.

تــنزف الفتاة، ذلك الوقت من الشهر قد حل عليها. لا تقدر عــلى إخفاء الأمر، لا خصوصية تمتلكها، وليست هناك مجرد شــجيرة للاختفاء خلفها. إنها مرتبكة والرجال مرتبكون. إنها القصــة القديمة: تدفق دم من المرأة فأل سيئ، سيئ للحصاد، سيئ للصيد، سيئ للخيول. يزدادون كآبة: يريدون إبقاءها بعيداً عــن الخيــول، الأمر لا يمكن لا يريدونها أن تلمس طعامهم. خجــلة، تبقى وحدها طوال النهار لا تنضم إلينا لطعام العشاء.

.

بعــد أن أنتهى من طعامى، آخذ إناء من الفاصوليا وكمية من لقمة القاضى إلى الخيمة حيث تجلس.

تقــول، ألا يتوجب عليك لقيام بخدمتى، وعلى أن لا أبقى حتى فى الخيمة. ولكن لا يوجد مكان آخر للذهاب إليه . إنها لا تجادل فى أمر استثنائها.

أقــول لها، لا بأس عليك . ألمس بيدى خدها. أجلس برهة من الزمن أرقبها وهى تأكل.

انـــه عبث فى إقناع الرجال بالنوم فى الخيمة معها. ينامون فى الخـــارج، محتفظين بالنار مشتعلة، متناوبين الحراسة. فى الصباح، من أجلهم، أمر عبر طقوس تطهير مختصرة مع الفتاة (لانـــنى لـــم أعـــد طاهراً بعد نومى معها فى خميمة واحدة): بواســـطة عصـــا أرسم خطاً على الرمال، أقودها لتعبر عليه، أغســـل يديهـــا ويدى، ثم أقودها عائداً، عبر الخط إلى الخيمة. تدمدم، يجب عليك أن تفعل الشىء نفسه ثانية صباح يوم غد . فى الأيام الاثنى عشر للطريق، ازددنا قرباً أكثر من العيش معاً فى مكان واحد أشهراً.

لقــد وصــلنا التل عند سفح الجبل. الفرسان الغرباء يكدون السير على مسافة بعيدة عنا أعلى القاع الملتوية لجدول جاف. لقــد توقفنا عن محاولة اللحاق بهم. ندرك الآن أنهم فى تتبعهم لنا، يقومون أيضاً بإرشادنا.

كـلما ازدادت التضـاريس صـخرية، ازداد بـطء تقدمنا وتباطأت سرعتنا. عندما نتوقف للراحة، أو نفقد مرأى الغرباء فى التواءات الجدول، لا يساورنا الخوف من اختفائهم.

فمـا بعـد، متسـلقين أخدوداً، متملقين الخيول، نجهد وندفع ونشـد، نجـد أنفسنا فجأة فوقهم. من مكان خلف الصخور، من خارج أخدود غير ظاهر، يظهرون للعيان، رجال يمتطون جياداً صـغيرة شـعثاء، اثنا عشر أو أكثر، يرتدون معاطف من جلد خـروف، سـمر الوجوه، برونزية بفعل تأثير العوامل الجوية، ضيقو العيون، البرابرة بلحمهم على أرضهم. أنا قريب إلى الحد الـذى أشـمهم فيه من حيث أنا واقف: عرق جياد، دخان، جلد نصـف مدبـوغ. أحدهم يشير إلى صدرى ببندقية قديمة يطول رجل تقريباً، بمسند ذى ركيزتين مثبتة قريباً من الفوهة. يتوقف قلـبى. أهمـس، لا : وبحـذر متقن. أسقط عنان الحصان الذى أقـوده، وأعـرض يدين خاليتين. بينما أدير ببطء ظهرى أتسلم العـنان، ومـنحدراً ومـنزلقاً على ركام الحجارة أقود الحصان الخطوات الثلاثين نازلاً إلى سفح الأخدود حيث ينتظر رفاقى.

الـبرابرة، واقفون والخطوط الخارجية لإشكالهم تبرز قبالة السـماء فرقـنا. هناك ضربات قلبى، لهاث الخيول، تأوهات الريح، ولا صوت آخر. لقد تجاوزنا حدود الإمبراطورية. انها ليست اللحظة التى يتعامل معها بسهولة.

أســـاعد الفتاة فى النزول عن حصانها. أقول، أصغى جيداً، ســآخذك إلى أعــلى المــنحدر وبإمكانك التحدث إليهم. خذى عكــازيك، الأرض رخوة، لا يوجد طريق آخر للصعود، بعد انــتهاء كلامك معهم، بإمكانك أن تقررى ما تريدينه. إن أردت الذهاب معهم، إن أرادوا إعادتك إلى عائلتك، اذهبى معهم. إن قــررت العودة معنا، بإمكانك العودة معنا. هل تفهمين؟ اننى لا أرغمك. تومئ. إنها متوترة جداً.

بذراع واحدة حولها، أساعدها فى صعود منحدر الحصباء. لا تــبدر حــركة ما من البرابرة. أعد ثلاثا من البنادق ذوات الماســورة الطويــلة، وما عدا ذلك يحملون الأقواس القصيرة المألوفة بالنسبة لى. وعندما نصل القمة يتراجعون قليلاً.

أقول لاهثاً، هل بإمكانك رؤيتهم؟

تدير رأسها بتلك الطريقة الغريبة غير المحفزة، تقول، ليس جيداً.

عمياء: ما هى الكلمة المرادفة لعمياء؟

تخبرنى. أخاطب البرابرة. أمل، عمياء ، متلمساً جفنى. لا تصــدر عــنهم استجابة ما. البندقية المستقرة بين أذنى الجواد الصــغير مــا تزال مسددة نحوى. عينا صاحبها تتألقان فرحاً. يطول الصمت.

أقول لها، تحدثى إليهم، قولى لهم لماذا نحن هنا. احكى لهم قصتك. قولى لهم لحقيقة .

تتطـــلع جانبياً نحوى وترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة. هل تريدنى حقا أن أقول لهم الحقيقة؟

قولى لهم الحقيقة. ماذا هناك غيرها للقول؟

الابتسامة لا تفارق شفتيها. تهز رأسها، تحتفظ بصمتها.

قــولى لهــم ما يعجبك. لكن. الآن وقد عدت بك إلى أبعد مســافة أســتطيع الوصول إليها، أود أن أسألك وبوضوح تام العــودة إلى البلدة معى. حسب لختيارك المحض . أقبض على ذراعها وأضيف، أهل تفهمين؟ ذلك ما أريده .

لمــاذا؟ الكلمة تسقط من بين شفتيها بنعومة مميتة. تعرف أنهــا تزعجــنى، وقــد أزعجتنى منذ البداية. يتقدم الرجل ذو البــندقية ببطء حتى يكاد يصل إلينا. تهز رأسها. لا. إننى لا أريد أن أعود إلى ذلك لمكان .

أندفـــع نـــازلاً المنحدر. أقول للرجال، أوقدوا النار، اغلوا الشـــاى، ســـنتوقف هنا ، من فوق يصلنى حديث الفتاة المتدفق الـــناعم المـــتقطع بفعـــل لريح. تنحنى على عكازيها، الرجال يـــنزلون عن خيولهم ويتجمعون حولها. لا أقدر أن أفهم كلمة واحـــدة. أفكـــر، يـــا لمضـــيعة الوقت، كان بإمكانها تمضية

الأمسيات الطويلة الخالية بتعليمي لغتها! الآن قد فات الأوان .

* * *

مـــن خرج السرج، أخرج الطبقين الفضيين الكبيرين اللذين حملـــتهما معي عبر الصحراء. أخرج قطعة ملفوفة من قماش حريـــري طولهـــا ٤٠ يـــاردة(*)، أقـــول، أود أن تتقبلي هذه الحاجيات . أرشد يدها كي تقدر على تلمس نعومة الحرير، ثم متلمســـة الطـــبقين، المحفور عليهما اسمان وأوراق شجر. كما جلـــبت أيضاً رزمتها الصغيرة. لا أعرف ماذا تحوي. أضعها على الأرض. هل سيأخذونك كل الطريق؟

تـــومئ برأسها، يقول مع حلول منتصف الصيف. يقول إنه أيضاً يريد حصاناً، لي .

قولي له بأن أمامنا طريق طويل وصعب. واسأليه، إن كان في استطاعتنا شراء جياد منهم بدلها. قولي إننا سندفع بالفضة .

تـــترجم لـــلرجل العجـــوز بينما أنتظر أنا ينزل رفاقه عن جيـــادهم ولكـــنه ما يزال جالساً على حصانه، البندقية الكبيرة القديمـــة في حمالتها فوق ظهره. ركاب السرج، السرج، اللجام الزمام: غير معدنية، بل من عظم وخشب مقسى بالنار قد خيط

(*) Bolt : ٤٠ باردة.

بأوتـــار أمعـــاء وثــبت بأسيرة جلدية. أجساد مغطاة بالصوف وجــلود حيوانـــات قد تغذت منذ طفولتها على اللحم والحليب، غريبة على رقة ملمس الكتان، مزايا الحبوب والفوكه: هؤلاء هم الناس الذين أرغموا على لدفع بعيداً عن السهول إلى الجبال مــع اتســاع الإمبراطورية. لم ألتق أنا من قبل بشماليين على أرضـــهم على أسس متكافئة: البرابرة الذين أعرفهم هم أولئك الذين يزورون الواحات من أجل المقايضة، والقلة التى تقيم فى مخيم على طول النهر وأسرى حول البائسين. أى مناسبة وأى عـــار أيضاً أن أكون هنا فى هذا اليوم! فى يوم ما سينظم من يخلفوننى مجموعات من نتاج مصنوعات هؤلاء الناس: رؤوس ســهام، مقابض سكاكين محفورة، أوانى خشبية، للعرض إلى جوار بيوض طيور، وأحجية خطية. وها أنا هنا أرفع العلاقات بين رجال المستقبل ورجال الماضى، عائدا بأعذار، جسد قمنا بامتصاصه حتى الجفاف – وسيط، ثعلب إمبراطورية فى ثياب نعجة!

يقول لا .

أتــناول واحداً من القضبان الفضية من كيسى وأمسكه عالياً لــه. قولى هذا مقابل حصان واحد . ينحنى إلى الأمام، يتناول القضــيب اللامــع، ويحذر يعض عليه، ثم يختفى القضيب فى داخــل جيــبه. يقــول لا. الفضة فى مقابل الحصان الذى لن يــأخذه. إنـــه لــن يأخذ حصانى، يأخذ الفضة بدلاً عنه . أفقد

أعصـــابى تقريباً، ولكن ماذا ستفيد المماحكات؟ إنها ذاهبة، لقد ذهــبت تقريــباً. هذه هى المرة الأخيرة للنظر جلياً إليها وجهاً لوجه، ن أتفحص ميول قلبى، محاولاً أن أفهم من تكون حقاً. وبعدها، عرف أنى سأبدأ بإعادة تشكيلها من خلال ذخيرة من ذكريات على وفق رغباتى المشكوك فيها، ألمس خدها، أتناول يدهـــا. عـــند أطراف هذا التل المنحدر البارد جداً فى منتصف الصـــباح لا أقدر العثور فى داخلى على أى أثر من تلك الآثار الحســية المخـــدرة الـــتى اعتادت على جذبى ليلة بعد ليلة إلى جسدها أو حتى مشاعر رفقة الطريق. هناك فراغ فقط وحزن بســبب حتمية وجود مثل هذا الفراغ. عندما أشدد قبضتى على يدهـــا، لا أجـــد استجابة. أبصر فقط بوضوح تام ما أراه: فتاة ممتلـــئة الجسم بفم عريض وشعر ذى قصة على الجبين تتطلع مـــن فوق كتفى نحو السماء، غريبة، زائرة من مناطق غريبة فى طريقها الآن إلى بيتها بعد زيارة لا يمكن وصفها بالسعيدة. أقـــول، مع السلامة . تقول، مع السلامة . لا حياة فى صوتها اكثر من تلك التى فى صوتى. أبدأ النزول منحدراً، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى السفح كانوا قد أخذوا العكازين منها وأخذوا يساعدونها فوق متن جواد صغير.

* * *

بقـــدر مـــا يكون المرء متأكداً، فإن الربيع قد أقبل، الهواء

عليل. الأطراف الخضراء لحشيش جديد بدأ يبرز هنا وهناك، هبات من طيور السمان تتطارد أمامنا. لو كنا قد غادرنا اليوم الواحـــات بـــدلاً من أسبوعين ماضيين لكنا قد سافرنا بصورة أســـرع ولـــم نكن قد خاطرنا بحياتنا. من جهة أخرى، هل كنا محظوظيـــن بما فيه الكفاية للعثور على البرابرة؟ أنا واثق من انهـــم فى هذا اليوم بالذات يطوون خيامهم، يحمّلون عرباتهم، يجمعون مواشيهم تحت تأثير السياط من أجل هجرة الربيع. لم أكـــن مخطئاً فى تحمل المخاطرة، على الرغم من معرفتى بأن الـــرجال يلومونـــنى. (أن يجلبـــنا إلى هنا فى الشتاء أتخيلهم يقولـــون. كـــان علينا عدم الموافقة بتاتاً! وما الذى يجب أن يفكـــروا به الآن بعد أن أدركوا أنهم لم يكونوا جزءاً من بعثة إلى البرابرة كما ألمحت ولكنهم وببساطة حماية لامرأة، سجينة بربـــرية كـــانت تـــركت خلفاً، مخلوق لا أهمية له، مومـــس القاضى؟)

نحـــاول إعادة تتبع أثر طريقنا القديم بالدقة الممكنة، اعتماداً على المعرفة بالنجوم. لقد كنت دقيقا فى تعيين مواقعها. الريح خلفنا، الجو أدفأ، أحمال الخيول أخف، نعرف المكان الذى نحن فيه، ليس هناك من سبب يحتم علينا عدم السفر بسرعة. ولكن عند استراحة الليلة الأولى تقع انتكاسة. أستدعى إلى موقع نار المخيـــم حيث يجلس أحد الجنود الشباب مهموماً واضعا رأسه بين يديه. كان قد خلع حذائيه، رباطى قدميه غير مشدودين.

يقول دليلنا، انظر إلى قدميه، سيدى .

القـــدم اليمـــنى متورمة وملتهبة. اسأل الفتى، ما الخطأ؟ . يرفع قدمه ويرينى كعباً مغطى بقشرة متصلبة من دم وصديد. بل وحتى أشم رائحة تلوث فى رباط القدم وأتبين رائحة تعفن.

أصـــيح، مـــنذ متى وقدمك على هذه الحالة؟ يخفى وجهه. لمـــاذا لـــم تقل شيئاً؟ ألم أوصكم جميعاً بوجوب الحفاظ على أقدامكم نظيفة، وأن تغيروا جواربكم بين يوم وآخر وأن تقوموا بغسلها، ان تضعوا مرهماً على البثور وتربطوها؟ لقد أعطيت تـــلك التعـــليمات لســـبب مـــا! كيف يمكننا لسفر وقدمك بهذا الوضع؟

الفتى لا يجيب يهمس أحد رفاقه، إنه لم يرد إعاقتنا .

أصـــيح، انه لم يرد ٍعاقتنا ولكنه الآن فى حاجة إلى عربة لـــنقله طـــوال طريق العودة. اغلوا ماء، راقبوا قيامه بتنظيف قدمه ولفها بضماد!

أنـــا عـــلى حـــق. فى اليوم التالى، عندما حاولوا مساعدته لارتـــداء حذائـــه طويـــل الرقبة، لم يستطع إخفاء ألمه. بقدمه المضـــمدة الموضـــوعة والمربوطة بكيس، لم يقدر على السير عرجاً فوق الأرض الممهدة ولكن كان عليه الامتطاء فى معظم مراحل الطريق.

ســنكون جميعــنا سعداء عند انتهاء هذه الرحلة. لقد سئمنا رفقة بعضنا لبعض.

فى اليــوم الــرابع نخترق قعر البحيرة الميتة ونتتبعها نحو لجــنوب – الشــرق عــدة أميــال قبل أن نصل بئرنا القديمة ومجموعة أشجار الحور اليابسة عندها. نرتاح هناك مدة يوم، لنســتجمع قوانا للمرحلة الأصعب. نقلى زاداً من كعكة دهنية ونسلق آخر إناء مملوء من فاصوليا طعاماً للخيول.

ابــقى مــنعزلاً. يتحدث الرجال بأصوات منخفضة وعندما أقترب منهم، يخيم الصمت عليهم. الإثارة المنبثقة من البعثة قد زالت برمتها، ليس فقط لأن ذروتها كانت مخيبة للآمال – هذر فى الصــحراء ســالكين الطريق نفسه – بل لأن حضور الفتاة كان قد استحث الرجال إلى عرض مظاهر الذكورة، فى منافسة أخوية أخذت تزول الآن متحولة إلى تهيج واكتئاب موجه طوعاً أو كــرهاً ضدى لأخذى إياهم فى رحلة متهورة، ضد الخيول بســبب حرونــتها، ضد رفيقهم صاحب القدم المتقيحة لإعاقته إيــاهم، ضــد المعوقــات التى عليهم تحملها، بل وحتى ضد أنفسهم. أضرب لهم مثلاً بمد فراشى الملفوف بالقرب من النار تحــت النجوم مفضلاً برودة الهواء الطلق على الدفء الخانق لخيمــة مــع ثلاثــة رجال ساخطين. فى الليلة التالية، اختار الجميع، دون تفكير طويل ترك الخيمة، ونمنا جميعاً خارجها.

مــع حلول اليوم السابع نشق طريقناً عبر قفار ملحية. نفقد حصـــاناً آخــر. الرجال منهكون من رتابة الفاصوليا والطحين المســمن، يســألون ذبحه للطعام، أوافق على طلبهم ولكننى لا أنضــم إليهــم. سأمضى قدماً مع الخيول ، أقول لهم. لأدعهم يستمتعون بوليمتهم. دعنى لا ُمنعهم من تخيل أنها رقبتى التى يقطعونها، وأحشائى التى يمزقونها، وعظامى التى يكسرونها. ربما سيكونون بعد ذلك أكثر مودة.

أتذكــر بحــنين الــروتين المـــألوف لواجباتى، مع قترب الصــيف، والقيلولات الطويلة الحالمة، محادثاتي مع الأصدقاء ســاعة لغســق تحــت أشجار الجوز، وفتيان يجلبون الشاى وعصير الليمون المسكر والفتيات الجديرات بالإعجاب يتنزهن أمامنا فى الساحة اثنتين معاً أو ثلاث وهن بملابسهن الأنيقة. لم تمــض غيــر أيام فقط على مفارقتى الفتاة الأخرى، وأجد أن وجهها يتصلب أكثر فى ذاكرتي، يصبح كامداً غير نافذ، وكأنها تفرز محارة فرق نفسها. سائراً بتثاقل عبر المملح أنتبه لنفسى فى لحظة اندهاش كيف أننى تمكنت من حب واحدة من مملكة بعيدة جداً. كل ما أريده الآن هو أن أعيش بقية حياتى فى راحة واطمئنان فى عالم مألوف، أن أموت فى فراشى وأن أشيع إلى القبر من قبل أصدقائى القدامى.

* * *

من مسافة بعيدة تقارب عشرة أميال، نستطيع تمييز نتوءات أبراج المراقبة تواجه السماء، في الوقت الذى ما زلنا فيه على الطريق الجنوبى للبحيرة فإن اللون الأصفر للجدران يعزلنا عن الخلفية لرمادية للصحراء. ألقى نظرة سريعة على الرجال من خلفى. إنهم أيضا يسارعون الخطى، يكادون غير قادرين على إخفـــاء انفعـــالهم. نحـــن لم نغتسل أو نغير ملابسنا منذ ثلاثة أســـابيع، رائحتـــنا قـــذرة، بشرتنا جافة متغضنة بالسواد بفعل التعرض للريح والشمس، نحن مجهدون، ولكننا نسير كالرجال، حتى الفتى الذى يمشى الآن متثاقلاً على قدمه المضمدة وصدره يسبقه.

ربمـــا، كان من الممكن أن يصبح الأمر أفضل، ولكن كان من الممكن أن يصبح أسوأ. حتى الخيول، التى انتفخت بطونها بحشائش المستنقعات، تبدو وكأنها عادت إلى الحياة.

براعم الربيع بدأت تظهر فى الحقول، الألحان الواهنة لبوق تصل أسماعنا، فريق الترحيب من راكبى الجياد يتقدمون عبر الـــبوابة، الشمس تنعكس عن خوذهم. نبدو مثل فزاعات: كان الأمر سيبدو أفضل لو كنت أخبرت الرجال أن يرتدوا دروعهم فى هـــذه الأميال القليلة المتبقية. أرقب راكبى الجياد فى خببهم نحونا، متوقعا منهم فى أى لحظة التغيير إلى الغدر، أن يطلقوا بـــنادقهم فى الهواء وأن يصيحوا. ولكن سلوكهم يبقى نظاميا،

انهــم ليسوا بفريق ترحيب على الإطلاق. أبدأ بالإدراك، ليس هناك أطفال يتراكضون خلفهم: ينقسمون قسمين ويحيطون بنا، لا يوجــد بينهم وجه واحد أعرفه، أعينهم خالية من التعبير، لا يجيــبون عن أسئلتى ولكنهم يسيرون بنا عائدين كسجناء عبر البوابة المفتوحة.

آخــر الأمــر حيــن نظهر للعبان فى الساحة ونرى الخيام ونســمع الــلغط نفهــم: أن الجيش هنا، الحملة الموعودة ضد البرابرة تمضى فى التقدم.

* * *

٤

يجلس رجل إلى منضدتى فى المكتب خلف قاعة المحكمة. لــم أره من قبل مطلقاً ولكن علامة على سترته الأرجوانية – الزرقاء تقول لى انه ينتمى إلى المكتب لثالث للحرس المدنى. كميــة مــن الملفات البنية مرزومة بأشرطة وردية تستقر عند مرفقه، أحدها مفتوح أمامه. أتعرف على الملفات: انها تتضمن تقارير عن الضرائب والجباية، تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. أيقــدر هو حقاً على القيام بتدقيقها؟ ما الذى يبحث عنه؟ أتكلم: هل هناك من أمر ما أستطيع مساعدتك فيه؟

يتجاهلنى هو والجنديان المتصلبان اللذان يقومان بحراستى، يــبدو كأنهما مصنوعان من خشب. لا أتذمر البتة. لا يمكن أن يعــد وقــوفى مهملاً، بعد أسابيعى فى الصحراء، أمراً صعباً. إضــافة، أتحســس رائحـــة خفيفة لبهجة بسبب التوقع ان تلك الصداقة الزائفة بينى وبين المكتب الثالث قد تصل إلى نهاية.

أقــول، أيمكنــنى الــتحدث إلى العميد جول؟ إطلاقة فى الظلام: من سيقول إن جول قد عاد؟

إنـــه لا يجيــب، يواصل تظاهره بقراءة الوثائق. إنه رجل وســيم، ذو أســـنان بيضاء متناسقة وعينين زرقاوين جميلتين.

أعــتقد أنه فارغ. أتصوره جالساً فى سرير بجوار فتاة، ممرناً عضـــلاته لها يقتات على إعجابها. ذلك النوع من الرجال الذى يسير جسده مثل ماكينة. أتخيله جاهلاً أن له إيقاعاته الخاصية له. عندما سيتطلع إلى، كما سيفعل فى خلال لحظة، سينظر من خــلف ذلــك الوجــه الوســيم الثابت ومن خلال تلكما العينين الصافيتين، كما ينظر ممثل من خلف قناع.

يــرفع بصــره عن الورقة. الأمر تماما كما توقعت. يقول، أين كنت؟

كنت مسافراً فى رحلة طويلة. يؤلمنى أننى لم أكن هنا عند قدومــك لتقديم واجبات الضيافة لك. ولكن الآن وبعد عودتى، فكل ما يعود لى هو لك .

علامــته تقول إنه ضابط صف. ضابط صف. فى المكتب الــثالث: ما الذى يعنى ذلك؟ فى ظنى، خمسة أعوام من ركل الــناس وضــربهم، الاحــتقار للشرطى النظامى وللإجراءات القانونية المطلوبة، للكلام النبيل الناعم الذى يشبه كلامى. ولكن ربما أظلمه أنا – لقد كنت بعيداً عن العاصمة مدة طويلة.

يقــول، لقد كنت تقوم بمفاوضات تنطوى على الخيانة مع العدو .

لقــد اتضــح الأمر إذن. مفاوضات تنطوى على الخيانة :

عــبارة مأخوذة من كتاب. أقول، نحن فى سلام هنا، لا أعداء لـــنا. صمت هناك. أقول، ما لم أكن مخطئاً. ما لم نكن نحن الأعداء .

لســت واثقــاً من أنه يفهمنى. يقول، لسكان المحليون فى حرب معنا .

أشك فى أنه قد تطلع يوماً إلى بربرى فى حياته. لماذا كنت تتفاوض معهم؟ من سمح لك بمغادرة موقعك؟

لا أبـــالى بالاستفزاز. أقول، إنها مسألة شخصية، عليك أن تـــثق بكلامى حول الأمر. لا أنوى مناقشته، فيما عد القول إن قاضـــى المقاطعـــة ليس بموقع يمكن أن يتخلى عنه مثل موقع بواب .

هـــناك حيوية فى مشيتى بينما أقاد بين حارسى إلى السجن. أقول، آمل أن تسمحا لى بالاغتسال. ولكنهما يتجاهلاننى. لا بأس.

أنا مدرك لمصدر زهوى: تحالفى مع حراس الإمبراطورية قـــد انـــتهى فقد وضعت نفسى فى المعارضة، القيد انكسر. أنا رجـــل ســـعيد، مـــن ذا الذى لا يبتسم؟ ولكن ما أخطرها من فرصـــة! الحصول على لخلاص يجب ان لا يكون سهلا جدا. وهل هناك مبدأ ما خلف معارضتى؟ ألم أستثر أنا ببساطة إلى

ردة فعــل لمشـــهد أحد البرابرة الجدد وهو يغتصب منضدتى وينبش فى أوراقى؟ فيما يتعلق بهذه الحرية التى أنا فى الطريق لطرحها جانبا، أى قيم تعنيها بالنسبة لى؟ هل أنا قد تمتعت حقا بالحرية المطلقة لهذا العام المنصرم الذى كانت فيه حياتى اكثر مــن أى وقــت مضــى يخصنى تشكيلها أثناء احتجازى لها؟ أضرب مثلا: حريتى فى أن أجعل من الفتاة أى شىء اعتقدت أنه يعجبنى، زوجة أو محظية أو ابنة أو عبدة كلها مرة واحدة أو لا شـــىء، فى نزوة، ذلك لأننى لم ألتزم بأى واجب تجاهها مــا عدا ما خطر ببالى أن أتحسسه من لحظة إلى لحظة: من اضطهاد لحرية مثل هذه من ذا الذى لا يرحب بحرية السجن؟ لا شـــىء بطولى فى معارضتى – دعونى لا أنسى ذلك لحظة واحدة.

إنها الغرفة نفسها فى الثكنات التي استخدموها لتحقيقاتهم فى العــام الماضـــى. أقــف جانباً بينما تسحب بسط الجنود الذين يــنامون ومرتباتهم هنا إلى الخارج وتكوم عند الباب. رجالى الــثلاثة ما زالوا قذرين بملابسهم الرثة، يخرجون من المطبخ للتحديق. أصيح، ما هذا الذى تأكلونه؟ اجلبوا لى شيئاً منه قبل أن يســجنونى! يأتيــنى أحدهــم مهرولاً بإناء فيه حصته من عصــيدة الدخــن الســاخنة، يقول، خذه. يومئ لى الحراس بــالدخول. أقــول، لحظـــة واحدة فقط، دعهم يجلبون لى لفة فراشـــى، ولــن أزعجكم بعدها ثانية. ينتظرون بينما أقف فى

بقعـــة مشمســـة أغـــترف العصيدة كرجل مشرف على الموت جوعـــاً. الفتى ذو القدم الملتهبة يقف مبتسماً بالقرب من مرفقى ومعـــه طاسة من الشاى. أقول، شكراً ولا تقلقوا، لن يؤذوكم، كنـــتم تنفذون ما أمرتم به لا غير . مع لفة فراشى وفراء الدب القديـــم تحت ذراعى أدخل زنزانتى. علامات السخام ما تزال عـــلى الجدار حيث كانت المجمرة توضع. ينغلق الباب ويسقط ظلام.

أنـــام طيلة النهار والليل، نادراً ما أزعج من ضربات فأس خـــلف الجـــدر عـــند رأسى أو من أصوات كركبة عربات يد ونـــداءات عمـــال. فى أحلامى، أنا فى الصحراء ثانية، أسير متـــثاقلاً عـــبر مساحات لا نهاية لها نحو هدف مجهول. أتنهد وأبـــلل شـــفتى. أســـأل حينما يجلب الحارس طعامى، ما هذا الصوت؟ يقول لى، إنهم يهدمون البيوت التى بنيت فى مواجهة الجـــدار الجـــنوبى للثكنات، وهم عازمون على توسيع الثكنات وبناء زنزانات مناسبة. أقول، آه، نعم، إنه أوان ازدهار الوردة السوداء للحضارة . لا يفهم.

لا نافذة فى المكان، مجرد فتحة فى أعلى الجدار. ولكن بعد يوم أو يومين بدأت عيناى فى التكيف مع العتمة. يتوجب علي أن أحـــمى عيـــنى مـــن النوم عندما ينفتح الباب وأطعم صبحاً ومساءً. الصباح المبكر هو الساعة الأفضل، عندما أستيقظ من

الــنوم وأستلقي مصغياً إلى أول تغريد لعصفور، مراقباً فتحة الضــباب الــرقيق فى اللحظة التى تستسلم فيها الظلمة للضياء الأول الأبيض– الرمادى.

أطعــم أنا من حصة أرزاق الجنود الاعتياديين نفسها. تغلق بوابة الثكنات ساعة من الزمن، ويسمح لى فى خلالها بالخروج للاغتســال و لتريض. هناك على الدوام وجوه منضغطة على قضــبان البوابة، تتفرج على مشهد سقوط من كان فى يوم ما عظيماً. أتعرف على الكثير منها، ولكن لا أحد يسلم علي.

فى الــليل، عــندما يهــدأ كــل شيء، تخرج الصراصير للاستكشاف. أسمع أو ربما أتخيل، الطقطقة الخشنة لأجنحتها، عدو أقدامها عبر الأرضية المرصوفة، تغويها رائحة الدلو فى الــزاوية، كسر الطعام على الأرض، وبلا شك جبل اللحم الذى تفــوح مــنه روائح متنوعة للحياة والتفسخ. وأصحو ذات ليلة على خطوات فى خفة ريشة لواحد منها يعبر بلعومى. بعد ذلك اليــوم، أصحو مرتجاً خلال الليل، منتفضاً بقوة، نافضاً منظفاً نفسى، متحسساً وهم سبر مجساتها على شفتى، على عينى. لقد حذرت: من مثل هذه البدايات تنمو الوساوس.

أحــدق طــوال الــنهار فى الجدران الخالية، غير قادر أن أصــدق أن طبعات كل الآلام و لمهانة التى تحويها لن تتجسد يوماً تحت نظرة مركزة تماماً، أو اننى اغلق عينى محاولاً أن

أضــبط حاسة سمعى إلى تلك الدرجة اللامتناهية من الضعف، التى لابد أن عندها تواصل صرخات من تعذبوا هنا، دوما من جدار إلى جدار. أتمنى مجىء ليوم الذى فيه تهدم هذه الجدران وتقدر آنذاك الترددات المضطربة أن تحلق أخيرا، على الرغم مــن صعوبة تجاهل صرت أجرة توضع فوق أجرة أخرى فى الجوار.

أتطـــلع بـــتوق لرياضة الصباح، عندما أتمكن من تحسس الريح على وجهى والأرض تحت أخمص قدمى، أرى وجوهاً أخــرى وأســمع حديــث البشر، بعد يومين من الوحدة، تحس شــفتاى بــرخاوتهما وبعــدم فائدتهما، ويبدو كلامى أنا غريباً بالنســبة لى. حقاً إن الإنسان لم يخلق كى يعيش وحيدا. أعزز يومى بشكل غير معقول على مدار الساعات حول الوقت الذى أطعــم فيــه. ألتهم طعامى مثل كلب. حياة بهيمية تحولنى إلى بهيمة.

وعــلى الــرغم من ذلك فإننى فى الأيام الخالية فقط عندما أنصب كليًّا على نفسى وفيها أنصرف جدياً باستحضار أرواح وقعت فى الشرك بين هذه الجدران لرجال ونساء لم يعودوا بعد زيــارة واحدة لهذا لمكان يحسون بأنهم راغبون فى الحمل أو قادرون على لسير درن مساعدة من أحد.

هناك باستمرار فى مكان ما، طفل يضرب. أفكر فى واحدة

كانت على الرغم من عمرها ما تزال طفلة، التى جلبت إلى هنا وأونيــت أمـــام عينى والدها، الذى راقبته وهو يهان أمامها، وأدركت أنه قد علم بما رأته هى.

أو ربمـــا أنهـــا فى ذلك الوقت لم تعد قادرة على الإبصار، وكـــان عـــليها الإدراك بوسائل أخرى: النبرة التى ظهرت فى صوته عندما توسل إليهم أن يتوقفوا لحظة واحدة.

أجــد فى نفســـى على الدوام هذه اللحظة من الانكماش من تفاصيل ما جرى هنا.

بعــد ذلـــك لم يعد لها أب. والدها كان قد أفنى نفسه، كان رجـــلاً ميـــتاً. لابد أن الأمر قد حدث فى هذه المرحلة، حينما أغلقت نفسها عنه، لأنه رمى نفسه على مستجوبيه، إن تضمنت قصـــتها شـــيئاً من الحقيقة، وهجم عليهم بأصابعه مخمشاً مثل حيوان جامح حتى أسقط أرضاً ضرباً بالهراوات.

أغلق عينى عدة ساعات بلا انقطاع، جالسا فى وسط أرضية الزنـــزانة، فى الضـــياء الـــباهت للنهار، أحاول أن أستحضر صـــورة ذلك الرجل الذى يذكر بالكثير من السوء. كل ما أراه شكل يسمى أب قد يكون شكل أى أب يعرف أن طفلة تتعرض للضرب ولا يقدر هو على حمايتها. لا يستطيع أن يفى بواجبه تجـــاه من يحب. يعرف أنه من أجل هذا لن يغفر له أبداً. هذه المعرفة بخصوص الآباء، هذه المعرفة بخصوص الإدانة، هى

أكبر من أن يقدر على تحمله. فلا عجب ان رغب فى أن يموت.

منحت الفتاة حمايتى، مبدياً بطريقتى المراوغة أن أكون والدها. ولكننى جئت بعد فوات الأو ن. بعد أن كانت قد توقفت عن الإيمان بالآباء. أردت أن أفعل ما كان صواباً. أردت أن أحقق تعويضاً: لن أنكر هذا الدافع الكريم، كيفما امتزج بدوافع مشكوك فيها أكثر: يجب أن يكون هناك على الدوام فرصة مناسبة للكفارة والتعويض، مهما يكن، كان على ألا أسمح قط لبوابات البلدة أن تفتح لأناس ممن زعموا أن هناك اعتبارات أرفع من تلك التى تتعلق بآداب لسلوك. لقد عرضوا والدها أمامها عارياً وجعلوه يهذر ألماً: لقد كمموهاولم يستطع هو إيقافهم (فى يوم أمضيته مشغولاً بدفتر الحسابات فى مكتبى) بعد ذلك لم تعد إنسانا كاملا، أختا لكل واحد منا. مشاركات وجدانية معينة ماتت. نزعات معينة للقلب لم تعد ممكنة بالنسبة لها. أنا أيضاً، إن عشت زمناً طويلاً كافياً فى تلك الزنزانة مع أشباحها ليس فقط للأب وللابنة ولكن للرجل الذى لا يرفع عن عينيه القرصين الأسودين حتى فى ضوء مصباح والتابع الذى كان عمله أن يغذى الموقد باستمرار، سأكون متأثراً بالعدوى ومتحولاً إلى مخلوق لا يؤمن بشىء.

وهكذا أستمر فى الانقضاض والدوران حول شخص الفتاة المتعذر تحويله إلى وضع سرى، أرمى شبكة من معان فوق

أخـــرى. إنها تتوكأ على عكازيها تتطلع نحو الأعلى فى نظرة كليـــلة. مـــا الذى تراه؟ الجناحان الحافظان لطائر القطرس(*) الحـــارس أو الشكل الأسود لغراب جبان يخاف أن يهاجم بينما ضحيته ما تزال تتنفس.

* * *

عـــلى الرغم من أن لدى الحراس أوامر بعدم الدخول معى فى مناقشات، فليس من الصعب أن أخيط أجزاء إلى بعضها فى قصـــة متماســكة مـــن نتف أحاديث أسمعها عند خروجى إلى الساحة. كل الأحاديث الأخيرة هى عن حريق على طول ضفة الـــنهر. قبل خمسة أيام، كان الحريق مجرد لطخة سوداء تجاه الضباب فى الشمال الشرقى. وهو بعد ذلك الوقت كان قد التهم كل ما فى طريقه منحدرا ببطء مع مجرى النهر، متلاشيا أحيانا ولكنه منتعش باستمرار، وهو يرى الآن بوضوح من البلدة مثل كفن بنى فوق الدلتا حيث ينضم النهر إلى البحيرة.

أســتطيع أن أخمـــن الذى حدث. أحد ما قد قرر أن ضفاف الـــنهر تمـــنح غطاء واقياً أكثر مما ينبغى للبرابرة، وأن النهر يشـــكل خطـــا دفاعيـــاً أقوى ان أخليت جوانبه. وهكذا أشعلوا النيران فى الدغل. وبمساعدة الريح الهابة من الشمال، انتشرت

(*) القطرس : طائر بحرى كبير

لــنيران عبر الوادى المنخفض الضحل بأكمله. لقد رأيت من قــبل حرائق عاصفة. تتسابق النيران فى خلال القصب، تتأجج أشــجار لحور كالمشاغل، تهرب الحيوانات التى تمتلك سرعة مناسبة – وعول، أرنب برية، قطط، أسراب من طيور تطير فى فزع، وكل شيء عدا ما ذكرت يفنى. الأ ان هناك مساحات كثيرة جداً، من إمدادات قاحلة على طول النهر نادراً ما تنتشر فيهــا الــنيران. فمن الواضح فى هذه الحالة إذن أنه لا بد من جماعــة تقــوم بمــتابعة الحريق على النهر وتراقب ضرورة تطوره. وهم لا يبالون من أن الأرض متى ما أصبحت جرداء كــل يــوم فإن الريح تبدأ بفرض التربة وتتقدم الصحراء إلى الأمــام وهكذا تستعد قوات البعثة لمحاربة البرابرة، ومن أجل حملتها، نخريب الأرض، تبديد الميرث.

* * *

الأرفف قد أخليت، نظفت وجليت. يشع سطح المكتب بطلاء عميــق، أجــرد إلا من طبق لكرات زجاجية بمختلف الألوان. الغرفة نظيفة للغاية. على المنضدة فى الزاوية وضعت مزهرية فيهــا زهور الخبازى تملأ الهواء بالعطر. هناك سجادة جديدة على الأرض. لم يبد مكتبى أبداً أكثر جاذبية.

أقــف بجــوار حارسى، بالملابس نفسها التى سافرت بها. غســلت ملابسى الداخلية مرة أو مرتين الا أن سترتى ما تزل

تفـوح بـرائحة دخـان الخشب، منتظراً. أراقب تلاعب أشعة الشمس عبر براعم اللوز خارج النافذة، وأنا قانع.

يدخل بعد مدة طويلة، يلقى بحزمة من أوراق على الطاولة، ثـم يجلس. يحدق فىّ دون أن يتكلم. وهو يحاول مع شيء من الأداء المسرحى المبالغ فيه، أن يترك لدى انطباعاً معيناً. إعادة التـنظيم المعتـنى بـه لمكتبى من أشياء كانت مركومة عليه وتنظيفه من الغبار إلى هذه الدرجة من النظافة المتبطلة، مشية الاختيال البطيئة التى يقطع بها الغرفة، الوقاحة المدروسة التى يعاينـنى بها، مقصودة كلها لتقول شيئاً، ليس فقط إنه المسؤول الآن (كيف يمكننى تفنيد ذلك؟) ولكنه إلى حد كبير يعرف كيف يتصرف فى مكتب، يعرف حتى كيف يقدم ملاحظة بخصوص فعاليـة رائعـة. لماذا يجدنى مستحقا عنا، هذا العرض؟ لأننى على الرغم من ملابسى النتنة ولحيتى الغليظة، ما زلت أنتمى إلى فصـيلة متمرسة كيفما اضمحلت بوضاعة حتى العدم هنا خلف الآخرة؟ هل يخشى اننى سأستهزئ به ما لم يحصن نفسه بزخارف داخلية انتقاها، دون شك، عن ملاحظة متأملة لمكاتب مـن هم أعلى منه درجة فى المكتب الثالث؟ وهو لن يصدقنى إن قلت له إن الأمر لا يهم. يجب أن أكون حذراً كى لا أبتسم.

ينظف حنجرته. يقول، سأقرأ عليك الشهادات الخطية التى قمنا بجمعها، أيها القاضى، كى تتكون عندك فكرة عن خطورة

التهم الموجهة إليك . يشير بيده ويغادر الحرس الغرفة؟

مــن الأولى: ســلوكه فى المكتب تخلى عن كثير مما هو مطلوب. أحكامه اتسمت بالاعتباطية، كان على طالبى الالتماس عــند بعــض الحالات الانتظار أشهراً من أجل الاستماع إلى الحجــج، وهــو لم يمسك نظام حسابات قانونى للمال . يضع الورقــة على الطاولة. قد أشير إلى أن معاينة لحساباتك أكدت على عدم قانونيتها . على الرغم من كونه موظفاً إداريا رئيساً لهذه المقاطعة، فإنه أنشأ علاقة غرامية مع مومس استولت على معظــم طاقته وأدى ذلك إلى الإضرار بواجباته الرسمية. كان للعلاقة تأثير محبط على هيبة الإدارة الإمبراطورية لأن المرأة المعــنية كــانت قــد أقامت علاقات مع جنود عاديين وكانت موضوعاً للعديد من القصص الداعرة . لن أعيد تلك القصص.

دعــنى أقــرأ عليك تلك من الشهادة الثانية . فى الأول من آذار ، قــبل أســبوعين مــن وصول البعثة، أعطى أوامر لى ولجــنديين آخــرين (ذكــرت أسماؤهم) للاستعداد فوراً لرحلة طويــلة. وهــو لم يقل فى ذلك الوقت إلى أين كنا ذاهبين. لقد أصابتنا الدهشة عندما اكتشفنا أن الفتاة البربرية ستكون مسافرة معنا. ولكننا لم نطرح أسئلة. لقد دهشنا أيضاً للسرعة التى تمت فيها الاستعدادات. لم نفهم لماذا لا يتوجب علينا الانتظار حتى ذوبان الثلوج فى الربيع. لم نفهم إلا بعد عودتنا أن غرضه كان

تحذيـــر البرابرة من الحملة القادمة... لقد أجرينا اتصالات مع الـــبرابرة وبالـــتحديد فى الـــثامن عشـــر من آذار. كانت لديه مـــداولات مطولة معهم، والتى أبعدنا عنها. كما تم تبادل هدايا أيضاً. لقد تناقشنا فى هذا الوقت فيما بيننا عن ما يمكننا أن نقوم بـــه إن أمرنا أن نذهب إلى حيث البرابرة. وقررنا أننا سنقوم بـــرفض عرضه ونجد طريقنا نحو الوطن... عادت الفتاة إلى أهلها. كان مسلوب العقل من قبلها، ولكنها لم تأبه به .

وهكـــذا . يضـــع الأوراق عـــلى الطاولة بعناية ويساوى زواياهـــا. الـــتزم الصـــمت. قرأت مقتطفات فقط. كى يكون بإمكـــانك فهـــم أبعـــاد الأمور. يبدو الأمر سيئاً عندما نضطر للتدخل وتطهير الإدارة المحلية، والأمر حتى ليس واجباً .

سأدافع عن نفسى فى محكمة قانونية .

وهل ستفعل؟

لســـت مندهشـــاً مـــا يفعـــلون. أنـــا أعرت جيداً وزن تلك المؤسســـات والفروقات الضئيلة فى المعنى التى يمكن اللجوء إليها كى تقبل، أو كيف أن سؤالاً يمكن أن يطرح بطريقة معينة كى تملى على الشخص الجواب عنه. سيستغلون القانون ضدى إلى أبعـــد مدى يخدمهم. ثم سيستديرون إلى طرق أخرى. ذلك هو أسلوب المكتب الثالث. بالنسبة لأشخاص لا يعملون فى ظل نظـــام أساسى، تعتبر الإجراءات القانونية ببساطة أداة من بين أدوات كثيرة.

أتحــدث، لن يجرؤ أحد على التفوه في تلك الأمور أمامي. من المسؤول عن الشهادة الأولى؟ يهزّ يداً ويستند إلى الخلف. لا بأس. ستنال فرصتك للإجابة .

وهكــذا يتأمل واحدنا الآخر فى سكون الصباح، حتى يحين الوقت المناسب له كى يصفق بيديه للحراس كى يبعدونى.

أفكــرِ فيه كثيراً فى وحدة زنزانتى، محاولاً أن أفهم حقده، محــاولاً أن أرى نفسى كما هو يرانى. أفكر فى الاهتمام الذى أبــداه تجاه مكتبى. إنه ببساطة لم يجمعٍ أوراقى فى زاوية ولم يضع حذاءه فوق طاولتى، ولكنه عوضاً عن ذلك يتحمل عناء اســتعراض مفهومه للذوق السليم. لماذا؟ رجل ذو خصر فتى وعضــلات مقاتــلى شــوارع محشو فى الزى الأرجوانى – الأزرق الذى ابتدعه المكتب الثالث لنفسه. فارغ، جائع للمديح، أنا واثق من ذلك. مفترِس نساء، غير راض، غير مرض. هو الذى قيل له إن امرءاً ما لا يستطيع الوصول إلى القمة إلا عن طــريق تسلق هرم من الأجساد. هو الذى يحلم من أنه فى يوم مــن هــذه الأيام سيضع قدمه على رقبتى ويكبس. وأنا؟ أجد الأمــر صعباً أن أكرهه فى المقابل. الطريق إلى القمة لابد أن يكــون صــعبا لــرجال شباب بلا مال، بلا وساطة، مع تعليم ضــئيل، رجــال يدخــلون عالم الجريمة بالسهولة نفسها التى ينضمون فيها إلى خدمة الإمبراطورية (ولكن أى شعبة أفضل

للخدمة يمكن أن يختاروها أفضل من المكتب الثالث!).

ومـــع ذلـــك، أنا غير مقبلٍ على تحمل ذلّ السجن. أحياناً، جالســاً على حصيرتى متفرساً فى ثلاث بقع على الجدار. أجد نفســى تتســاق للمرة الألف تجاه الأسئلة، لماذا هى فى صف واحــد؟ من وضعها هناك؟ هل هى تشير لشىء ما؟، أو أجدنى وأنا أذرع المكان أعد واحد – اثنين – ثلاثة – أربعة – خمسة – ســتة – واحــد– اثنين– ثلاثة...، أو أحك وجهى بلا تفكير بيــدى، أدرك كيف سمحت لهم أن يجعلوا عالمى صغيراً جداً، إلى أى مدى أصبح يوماً بعد يوم أكثر شبيهاً بالبهيمة أو ماكينة بســيطة،. عجــلة دوارة لطفــل، على سبيل المثال، مع ثمانية شـــخوص ضـــئيلة يقدمون أنفسهم على الإطار: أب، عاشق، فــارس، ســارق... ثم أستجيب بحركات فزع دوارة أندفع فى خلالهــا حــول الزنـــزانة راجّاً يدى هنا وهناك، ناتفاً لحيتى، أضـــرب الأرض بشدة بقدمى. فاعلاً أى شيء لمباغتة نفسى، لتذكير نفسى بعالم فى الخلف، يتصف بالتنوع وبالوفرة.

هـــناك أيضـــاً أشـــكال أخرى من الذلّ. التماسى من أجل الحصـــول على ملابس نظيفة تم تجاهله. لا أمتلك شيئاً أرتديه غير ما جلبته معى. فى كل يوم تريض، تحت بصر الحارس، أغســل قطعة واحدة، قميصاً أو زوجاً من السراويل الداخلية، بـــرماد ومـــاء بارد، وأعيدها إلى زنزانتى كى تجف (القميص

الذى تركته فى الساحة ليجف اختفى بعد يومين). فى خياشيمى على الدوام رائحة ملابس لم تر الشمس.

وأسوأ. تحت ظل النظام السائد لممل للحساء والعصيدة والشاى، أصبح أمر إطلاق أمعائى يسبب لى ألماً مبرحاً – أتردد عدة أيام حاساً بالتصلب والانتفاخ قبل أن أقدر على حمل نفسى على الجلوس مفرفصاً على الدلو وتحمل طعنات الألم، تمزق الأغشية التى تصاحب مثل هذا لنوع من الإفراغ.

لا أحد يضربني، لا أحد يجوعنى، لا أحد يبصق على. كيف أعد نفسى ضحية الاضطهاد فى حين

أن معاناتى خفيفة هكذا. ومع ذلك فإنهم جميعاً أكثر انحطاطاً بسبب تفاهتهم. أتذكر مبتسماً عندما أغلق الباب خلفى فى المرة الأولى ودار لمفتاح فى القفل، بدا الأمر ليس بعقوبة كبيرة فى الانتقال من عزلة الوجود اليومى إلى عزلة زنزانة فى حين أن بإمكانى أن أحمل معى عالماً من الأفكار والذكريات. ولكننى الآن أبدأ فى إدراك كم بدائية هى الحرية. أى حرية قد تركت لى؟ حرية أن آكل أو أموت جوعاً، أن أحتفظ بصمتى أو أثرثر لنفسى أو أضرب على لباب أو أصرخ. إن كنت الهدف لظلم، ظلم طفيف، عندما أغلقوا الباب على هنا، فإننى الآن لست أكثر من كومة غير سعيدة من دماء وعظام، ولهم.

طعام عشائى يجلب من قبل الحفيد الصغير للطباخة. أنا

واثق من أن الأمر يحيره إن القاضى القديم قد سجن وحده فى غرفة مظلمة، ولكنه لا يطرح أى سؤال. يدخل منتصب القامة ومحـــترماً نفســـه، حاملا الصينية، بينما الحارس يمسك الباب مفـــتوحا. أقـــول، شكراً، أنا سعيد لقدومك. كنت بدأت أحس بجوع شديد... أريح يدى على كتفه، املأ الفراغ بيننا بكلمات إنســـانية، بيـــنما ينتظر برصانة إجابتى كى أتذوق وأستحسن. وكيف حال جدتك اليوم؟

إنها بخير، سيدى.

والكـــلب؟ هـــل الكـــلب قد عاد الآن؟ (من الجهة الأخرى للساحة يصل نداء جدته).

لا، سيدى'.

أنـــت تعـــرف، إنه الربيع، موسم المزاوجة. تذهب الكلاب لـــزيارات، تـــبقى مدة من الوقت، ثم تعود إلى أماكنها دون أن تقول أين كانت. عليك ألا تقلق، سيعود'.

نعم، سيدى.

أتـــذوق الحساء، كما يريدنى أن أفعل وأتلمظ بشفتى. أقول لجدتك، شكراً على العشاء، إنه لذيذ.

نعـــم، سيدى. النداء ثانية: يرفع عن الأرض قدح الصباح وإنائه ويستعد للمغادرة.

قل لى أيضا: هل الجنود قد عادوا الآن؟ أسأله بسرعة.

لا سيدى .

أبــقى الباب مفتوحاً وأقف فى مدخل الباب أصغى إلى آخر زقزقات العصافير فى الأشجار تحت السماء البنفسجية الواسعة بينما يعبر الغلام الساحة بصينيته. لا أملك شيئا كى أعطيه ولا حتى برعماً. بل إننى لا أملك وقتاً كى أريه كيف يجعل مفاصله تطقطق أو كيف يمسك أنفه بقبضته.

إنــنى أنســى الفــتاة، منجرفاً نحو النوم، تخطر على بالى بوضوح باهت، ذلك أن يوماً بأكمله قد مر دون أن أفكر بها فى خلالــه. الأســوأ، أنــنى لا أقدر أن أتذكر، بالتأكيد كيف تبدو تقريــباً. مــن عيــنيها الفارغتين، كان يبدو باستمرار ما يشبه ضبابًا ينتشر، فراغا يستبد بأجمعها. أتفرس فى الظلمة منتظراً تشــكل صورة ما، ولكن الذكرى الوحيدة التى أسكن إليها كلياً هى يــداى المزيتتان تنزلقان على ركبتيها، على ربلة ساقيها، كاحــليها. أحــاول أن أتذكــر اتصالاتنا الحميمة القليلة ولكنى أشوشها بذكريات كل الأجساد الدافئة الأخرى التى غمدت نفسى فيها عبر مسيرة حياتى بأكملها. إننى أنساها، وأنساها، أعرف أنــا، عــامداً. ليس من تلك اللحظة التى وقفت فيها أمامها عند بوابــة الثكــنات وانتقيتها كنت قد عرفت جوهر حاجتى إليها، والآن أنا مشغول بانتظام فى دفنها فى النسيان. يدان تعوزهما

العاطفـــة، قـــلب ميـــت: أتذكر المثل السائر: أضع راحتى إلى خدى. أتنهد فى الظلام.

فى الحـــلم هناك شىء ما يركع فى ظل جدار. الساحة خالية تمامـــاً، الــــريح تســـوق الغبار نحو الغيوم، تربض خلف ياقة معطفها، تسحب قبعتها نحو الأسفل لتخفى سكينيها.

أقف مشرفاً عليها. أقول، 'أى مكان يؤلمك؟ أحس بالكلمات تتشـــكل فى فمى، ثم أسمعها تنبعث واهية، بشكل غير عادى، مثل كلمات نطقت من قبل شخص آخر.

تقـــدم ســـاقيها نحو الأمام فى ارتباك وتلمس كاحليها. إنها صغيرة الجسم إلى حد كبير بحيث إنها تكاد تضيع فى معطف الـــرجل الـــذى ترتديه. أجلس، أفك شريط الجوارب الصوفية، أحـــل الأربطـــة. تـــتمدد القدمان أمامى فى التراب، طليقتين، فظيعتين، سمكتين جانحتين، حبتى بطاطا كبيرتين.

أرفـــع إحداهما إلى حضنى وأبدأ فى تفريكها. تسيل الدموع مـــن خـــلف جفنيها، منهمرة على خديها، إنها ملتهبة! تنوح بصوت واه. أقول، إننى سأدفئك أرفع القدم الأخرى وأحتضن الاثنـــتين معاً. تسكب الريح غباراً فوقنا، حبيبات رملية خشنة عـــلى أسنانى. الليل ساكن، القمر أسود. أستلقى مدة من الزمن محدقا فى الظلمة، ثم أنسل عائدا إلى الحلم.

أدخــل قــوس بوابة الثكنات وأواجه ساحة لا نهاية لها كأنها صحراء. لا أمل هناك للوصول إلى الجانب الآخر، ولكننى أسير بتــثاقل، أحمــل الفتاة، المفتاح الوحيد الذى أملكه للمتاهة، يتدلى رأسها على كتفى، قدماها الميتتان تتدليان فى الجهة الثانية.

هناك أحلام أخرى يتغير فيها، شكل ما أسميه الفتاة، حجماً، جســماً، هيئة: فى واحد من الأحلام هناك هيئتان تثيران الفزع فى: كبيرتان وفارغتان، تكبران وتكبران حتى تملأ كل المكان الذى أنام فيه. أصحو مختنقاً، صارخاً، حنجرتى منتفخة.

إن نسيج الأيام، من جهة أخرى، ممل مثل عصيدة. لم يحتك أنفى قط من قبل بالأمور اليومية.

إلى هــذا الحــد الذى يحدث الآن. تلفق الأحداث فى العالم الخــارجى، الأبعــاد المعــنوية لقضيتى، إن يكن الأمر كذلك، قضــية، بــل حتى احتمالات الدفاع عن نفسى فى المحكمة فقد فقــدت عنصر التشويق، تحت ضغط الشهية والوظائف البدنية، وضــجر العيــش ســاعة بعد أخرى. لقد تعرضت لبرد، كل وجــودى منشــغل فى التنشــق والعطس، إنه لبؤس أن تكون ببساطة جسداً يحسّ بنفسه معتلاً ويريد استعادة صحته.

* * *

فى أصــيل يــوم، الأصوات الضعيفة غير المتناسقة لكشط

وصلصـــلة مسحاة عمال بناء الآجر لتسوية الجانب الآخر من الجـدار تـتوقف فجأة. مستلق فوق حصيرتى، أرهف السمع: هـناك فى الجـو دوى فى الـبعد، باهت و ذو خاصية مثيرة بالنسـبة إلى سكون ساعة الأصيل الذى يخذل فى تبذير نفسه إلى أصـوات مميزة ولكنه يتركنى متوتراً وقلقاً. أهى عاصفة؟ على الرغم من أننى أضغط بأذنى على الباب فإننى لا أستطيع أن أميز شيئاً. ساحة الثكنات خالية.

يعاود عمال بناء الآجر خشخشاتهم.

قـرابة المسـاء يفتح الباب ويدخل صديقى الصغير بعشائى. أسـتطيع أن أدرك أنـه يكـاد يتفجر لإخبارى بشيء ما، ولكن الحـارس يدخـل معـه ويقف ويده على كتفه. ولهذا فإن عينيه وحدهمـا تتكلمان معى: متوقدتان بالانفعال، باستطاعتى أن أقسم انهما تقولان إن الجنود قد عادوا. فى تلك الحالة لماذا لا ينفخون فى الأبواق ولا يطلقون صيحات التهليل؟ لماذا لا تجتاز الخيول الساحة الكبيرة خبباً، لماذا لا تعلو أصوات الاستعدادات للوليمة؟ لمـاذا يقـبض الحـارس على الولد بشدة إلى هذا الحد ويدفعه مسـرعا إلى الخـارج قبل أن أتمكن من منحه قبلة على رأسه الحـليق؟ الجـواب الواضح هو أن الجنود قد عادوا ولكن ليس بانتصار. إن كان الأمر كذلك، يتوجب علىّ التزام الحذر.

فى المسـاء، بعدئـذ، هـناك تفجر مفاجئ لصوت قادم من

الساحة وهمهمات أصوات. أبواب تفتح وتغلق بقوة. أقدام تروح وتــجيء. أســتطيع ســماع بعــض مما قيل، أستطيع سماعه بوضوح: لا تتحدثوا عن الستراتيجية أو جيوش البرابرة ولكن عن أقدام متألمة وتعب، ومناقشة حول رجال مرضى فى حاجة ماســة إلى أفرشــة. فى غضــون ساعة يهدأ كل شيء ثانية. الســاحة خاليــة. لا ســجناء هناك إذن. ذلك على الأقل سبب الابتهاج.

* * *

إنـــه منتصف النهار وأنا لم أتناول الإفطار. أذرع غرفتى، معــدتى تقرقــر كمعــدة بقرة جائعة. يسيل لعابى عند التفكير بالعصيدة المالحة والشاى الأسود. لا أستطيع أن أمنع نفسى عن ذلك.

لا توجــد علامة ما تدل على أنهم سيسمحون لى بالخروج، على الرغم من أنها ساعة الترييض.

عمال بناء الآجر يعاودون عملهم، وتصل من الساحة أصوات فعاليــات يوم عادى، بل إننى حتى أسمع الطباخة وهى تنادى عــلى حفيدهــا. أضــرب على الباب، ولكن لا أحد يبدى أى اهتمام.

بعدئذ، وفى منتصف ما بعد الظهيرة، يدور المفتاح فى القفل

ويفـــتح الباب. يقول حارسى، ماذا تريد؟ لماذا كنت تدق على الـــباب؟ لا بد أنه يمقتنى إلى حد ما! أن يمضى امرؤ أياماً من حياته مستمراً فى مراقبة باب مغلق وقديم خدمات للاحتياجات الـــبهيمية لـــرجل آخر. لقد سرقت منه أيضاً حريته. ويعتقدنى السارق.

ألـــن تسمحوا لى اليوم بالخروج؟ لم أحصل على أى شيء آكله.

أمـــن أجـــل هذا ناديت على؟ ستحصل على طعامك. تعلم بعض الصبر. على أى حال، إنك بدين جداً.

انتظر، لابد أن أفرغ دلوى. رائحة كريهة تنبعث منه هنا. أريـــد أن أغســـل الأرضية. أريد أن أغسل ملابسى أيضاً. لا أســـتطيع أن أظهـــر أمام العميد بملابس لها مثل هذه الرائحة الكريهة. إنها ستجلب الخزى لحراسى. أريد ماء ساخنا وقطعة من صابون وخرقة. دعنى أفرغ دلوى بسرعة وأن أجلب ماءً ساخناً من المطبخ.

حدســـى حول العميد كان مصيبا ، لأنه لم يناقضنى. يوسع فتحة الباب ويقف جانباً يقول، أسرع .

لا أحـــد فى المطـــبخ غيـــر خادمة غسل الصحون. تفاجأ بدخولنا، معاً، بل فى الحقيقة تبدو كأنها موشكة على الهرب من

المكان. أى نوع من قصص يتناقلها الناس عنى؟

يأمـــر الحارس، أعطيه بعض الماء الساخن. تحنى رأسها وتستدير نحو الموقد حيث يوجد باستمرار مرجل ماء يغلى.

مـــن فـــوق كتفى أقول للحارس، دلو- سأجلب دلواً للماء. بخطوات واسعة قليلة، أجتاز المطبخ إلى الخلوة المعتمة حيث، مع أكياس الطحين والملح والدخن المسحوق و لبازلاء لمجففة والفاصولياء، تحفظ ماسحات الأرضية والمكانس. على مسمار بعلو الرأس يوجد مفتاح القبو حيث تعلق أطراف لحم الضأن. فى لحظـــة أضـــعه فى جيبى. عند عودتى أحمل فى يدى دلواً خشـــبياً. أرفعـــه بينما تغرف الفتاة ماءً مغلياً فيه. أقول، كيف حالك؟ ترتجف يدها إلى حد كبير الأمر الذى يدفعنى إلى تناول المغـــرفة منها. هل بإمكانى الحصول على قطعة من صابون وخرقة قديمة، رجاءً؟

بعـــد عـــودتى إلى زنزانتى أتجرد من ملابسى وأغتسل فى المـــاء الســـاخن الـــترف. أغســـل قطعة من ملابسى الداخلية الإضـــافية، والـــتى تفوح منها رائحة بصل متعفن، أعصرها، أعـــلقها عـــلى مسمار خلف لباب، وأفرغ الدلو على أرضية الغرفة المرصوفة. ثم أستلقى على الفراش منتظرا حلول الليل.

* * *

المفتاح يدور بنعومة فى القفل. كم من الناس غيرى يعرفون أن مفـتاح القبو يفتح الباب المؤدى إلى غرفة سجنى، كما أنه يفتح أيضا الخزانة الكبيرة للأطباق فى القاعة الرئيسة للثكنات، وأن المفـتاح الخاص بجناح الغرف فوق المطبخ هو نسخة من المفـتاح لـباب مسـتودع الأسلحة، وأنّ المفتاح لمدخل البرج الشمال- غرب يفتح أيضاً مدخل برج الشمال- شرق، وخزانة الأطـباق الصـغيرة فى القاعة، والفتحة الصغيرة فوق أنبوب الميـاه فى الفـناء؟ المـرء لا يمضى ثلاثين عاماً غاطساً فى التفصيلات المتعلقة بحياة مستوطنة صغيرة عبثاً .

تـبرق الـنجوم فى سماء صافية سوداء. تبدو عبر قضبان بوابة الساحة، ومضة من نار فى الساحة التى وراءها. بجوارِ البوابة، أستطيع إن أجهدت بصرى، أن أتبين هيئة داكنة، رجلاً يجلس مستنداً على الجدار أو متكوراً وهو نائم. هل يرانى فى مدخـل زنزانتى؟ أقف دقائق منتبها. إنه لا يتحرك، بعدها أبدً السير مع حافة الجدار، تصدر قدماى العاريتان أصواتا هامسة على المساحات الصغيرة المفروشة بالحصى.

أسـتدير حـول الزاوية وأجتاز باب المطبخ. الباب التالى يـؤدى إلى سلم شقتى القديمة. إنه مغلق. الباب الثالث والأخيرِ مفـتوح، إنـه الباب إلى لغرفة الصغيرة التى تستعمل أحياناً كمستشفى، وببساطة أحياناً لإيواء الرجال فيها. منحنياً، متحسساً

بيـــدى ما أمامى، أزحف نحو المربع الأزرق للنافذة المزلجة، خائفاً من التعثر فوق الأجساد التى أسمع أنفاسها فيما حولى.

خيط واحد يبدأ فى الانسحاب من خصلة لخيوط: الشخص لـــنائم عـــند قـــدمى يتنفس بسرعة، وفي كل زفير يصدر أنة واهنة. أيحلم هو؟ أتوقف قليلاً على مسافة بضعة إنجات عنه، مـــثل ماكينة، يستمر فى اللهات والأنين فى الظلام. ثم أزحف مجتازا إياه.

أقف عند النافذة وأتطلع منها إلى ساحة البلدة، نصف متوقع نيران مخيم، خطوطاً من خيول مربوطة وحزماً من تشكيلات بـــنادق، صـــفوفاً من خيام. ولكن لا يوجد شىء يمكن رؤيته تقريـــباً: جمـــرات نـــار وحيدة خامدة، وربما ومضة خيمتين بيضاوين بعيداً تحت الأشجار. إذن لم تعد قوات البعثة! أو هل مـــن الممكن أن النفوس لقليلة التى هنا هى كل ما تبقى منها؟ يتوقف قلبى للفكرة عن لخفقان. ولكن هذا غير ممكن! هؤلاء الرجال لم يذهبوا إلى حرب: فى أسوأ الأحوال كانوا يتجولون فى البلدة الواقعة عند أعالى النهر، يطاردون رعاة مواشى غير مسلحين، يغتصبون نساءهم، ينهبون بيوتهم، يبعثرون قطعانهم، وفى أفضـــل الأحـــوال، لم يقابلوا أحدا على الإطلاق- بالتأكيد ليس القبائل البربرية المحتشدة، التى لضرواتها قد غدا المكتب الثالث متورطا بالدفاع عنا.

أصابع بخفة أجنحة فراشة تلمس كاحلى. أجثو على ركبتى. صوت يفضى لى بما فى نفسه، أنا عطشان. إنه الرجل الذى كــان يــلهث. إذن فهــو لم يكن نائماً. أهمس، بهدوء يا بنى متفرســاً، أســتطيع أن أتبين بياض عينيه المرفوعتين نحوى، ألمس جبهته: إنه محموم. ترتفع يده وتمسك بيدى. يقول كنت عطشاناً إلى حد كبيراً!

أهمــس فى أذنـــه، سأجلب لك ماء، وعليك بعد ذلك التزام الصمت. هناك رجال مرضى فى المكان، يجب أن يناموا.

الظل بجوار البوابة لم يتحرك. ربما لا يوجد شيء ما هناك، ربما كيس قديم أو حزمة من حطب الوقود. أسير على أطراف أصـــابعى عبر الحصى إلى حوض الماء حيث يغتسل الجنود. المـــاء غير نظيف ولكننى لا أقدر على تحمل غلق الماسورة. من طرف الحوض يتدلى قدر قديم، أملؤه وأعود على أطراف أصابع قدمى.

يحـــاول الفتى أن يجلس ولكنه لا يقدر بسبب ضعفه الشديد. أسنده بينما يشرب.

أهمـــس، ما الذى يحدث؟ يتحرك واحد من النائمين. هل جـــرحت أم أنـــك عليل؟ أحس بحرارة شديدة! يئن يريد دفع الـــبطانية عنه ولكننى أمنعه. أهمس، يجب أن ترشح السخونة خارجـــا. يهز رأسه ببطء من جهة إلى أخرى. أمسك برسغه

حتى يغوص ثانية فى النوم.

هناك ثلاثة قضبان قائمة فى إطار خشبى: كل نوافذ الطابق السفلى مغلقة بقضبان. اضغط بقدمى على الإطار، أمسك بالقضيب الأوسط وأدفع. أعرق وأتعب، هناك وخزة ألم فى منتصف ظهرى. ولكن القضيب لا يتزحزح. ثم وعلى حين غرة، ينكسر الإطار وتوجب علىّ التشبث كى أمنع نفسى من السقوط إلى الخلف. يبدأ الفتى بالتأوه ثانية، نائم آخر يتنحنح. أنا أوشك أن أصيح مباغتاً بالألم الذى يصيبنى عندما أضع كل ثقلى على قدمى اليمنى.

النافذة وحدها مفتوحة. رافعا القضبان بقوة إلى جهة واحدة، أدس رأسى وكتفىّ عبر الفتحة، شاقاً طريقى إلى لخارج، وأكبو على الأرض فى النهاية خلف صف من شجيرات قلمت أعاليها على طول السور الشمالى للثكنات.

كل ما أقدر على التفكير به هو الألم، كل ما أرغب فيه هو أن أترك لأستلقى فى أفضل وضع أجده مناسباً لى، على جنبى وركبتاى مرفوعتان نحو ذقنى. مدة ساعة على الأقل، أستلقى هنالك بينما كان بإمكانى متابعة هربى، أسمع عبر النافذة المفتوحة أنفاس النائمين، صوت الفتى وهو يدمدم لنفسه. تخمد الجذوة الأخيرة للنار الموقدة فى الساحة. الكل نائم، إنسان وحيوان. إنها الساعة التى تسبق الفجر، الساعة الأقسى برداً.

أحس ببرودة الأرض تدخل عظامى. إن استلقيت مدة أطول هنا سأتجمد وأدحرج خلفاً إلى زنزانتى صباحاً بعربة يد. مثل حلزون مجروح أبدأ الزحف فى موازاة السير باتجاه مدخل الشارع الأول الذى يمتد بعد لساحة.

لبوابة المؤدية إلى لفسحة الصغيرة الواقعة خلف الفندق، تقع فى الخلف، وهى رديئة المفاصل. المنطقة بأجمعها تشى بالتفسخ، قشور، عظام، فضلات طعام، رماد، كلها ترمى هنا من المطبخ كى تذرى فى الأرض، ولكن الأرض قد غدت متعبة، المذراة التى تطمر هذا الأسبوع ترفض تقليب ما طمر فى لأسبوع الماضى. الهواء فى خلال النهار ممتلئ بالذباب، وعند الغسق تستيقظ الخنفساء السوداء والصرصار.

تحت السلم الخشبى الصاعد إلى الشرفة وأقسام الخدم يقع موضع منعزل حيث يخزن الحطب وحيث تهجع القطط عندما تمطر السماء. أزحف إلى الداخل وأنطوى على نفسى فوق حقيبة قديمة. تفوح منها رائعة بول، وهى بالتأكيد مليئة بالبراغيث، أشعر ببرد شديد تصطك له أسنانى، ولكن كل ما يشغلنى فى هذا الصباح هو تهدئة الألم فى ظهرى.

* * *

صحوت من النوم على طقطقة أقدام على السلم. انه ضياء نهار. مرتبكاً، مشوش الرأس، أجلس جاثياً على ركبتىّ فى

خلوتي. أحدهم يفتح باب المطبخ. دجاجات من كل الزوايا تأتى عدواً. الأمر مسألة زمن فحسب قبل أن أكتشف.

بأكـــبر جـــرأة امتلكها، ولكن مجفلا على الرغم من نفسى، أصـــعد السـلم. لا بـــد أن منظرى يبدو فظيعا للعالم بقميصى وبنطـــلونى القذريـــن، قدمى الحافيتين، ولحيتى الشعثاء؟ مثل خـــادم، أرجو ذلك، سائس خيل يعود إلى البيت بعد ليلة أسرف خلالها بالشراب.

الممـــرّ خال، الباب المؤدى إلى غرفة الفتاة مفتوح. الغرفة نظيفـــة ومرتبة كما فى السابق: الجلد والصوت الناعم بجوار الفـــراش ا الســـتارة ذات المربعات الحمر منسدلة على النافذة، صـــندوق الأدوات الشخصية مدفوع إلى الجدار الأبعد وأعلى منه شماعة للملابس. أدفن رأسى فى عبير ملابسها وأفكر فى الولـــد الصغير الذى جلب طعامى، وكيف عندما استقرت يدى عـــلى كـــتفه، كنت أشعر بالقوة الشافية لتلك اللمسة تسرى فى جسد قد أُصبح متصلبا بفعل عزلة غير اعتيادية.

الفـــرش قد رتب. عندما أمررّ يدى بين الشراشف، أتخيل أنـــنى قـــادر على الإحساس بأثر ضئيل متخلف من دفئها. لا شيء سيسعدنى اكثر من أن ألتف على نفسى فى فراشى، أضع رأسى على مخدتها، أنسى أوجاعي وآلامى، متجاهلا المطاردة الـــتى لا بد أنها قد بدأت الآن بحثاً عنى، ومثل الفتاة الصغيرة

فى القصة أهوى فى النسيان. كم بترف أحس جاذبية النعومة، الــدفء، أريج هذا الصباح. بتنهيدة أركع وأدفع جسدى تحت الفــراش. وجــهى نحــو الأسفل، منضغطاً بشدة بين الأرض والشــرائح الخشــبية للســرير، بحيث إننى عندما أحرك كتفيّ يــرتفع الســرير، أحاول أن أشكل نفسى كى أبقى مختفياً يوماً واحداً.

أنــام نومــا خفيفا وأصحو، منجرفاً من حلم لا شكل له إلى آخــر. عند منتصف النهار يصبح الجو ساخنا يتعذر فيه النوم. أتمــدد أطــول مــدة ممكنة، أتصبب عرقا فى المأوى السرّى المغــبر. ثــم، وعلى الرغم من تأجيلي الأمر، فإن الزمن- قد حــان لوجــوب إراحــة نفسى. متألماً أدفع نفسى إلى الخارج وأقــرفص فوق مبولة غرفة النوم. مرة أخرى الألم، التمزق. أمســح نفســى بمنديل أبيض مسروق، أراه بعدئذ ملوثاً بالدم. تنتشر رائحة قذرة فى الغرفة: حتى أنا، الذى كنت أعيش لعدة أســابيع مــع دلو القذارة فى الزاوية، أشعر بالاشمئزاز. أفتح الــباب وأسير حجلا فى الممر. تطل الشرفة على صفوف من أســقف، وخلفها فوق السور الجنوبى تمتد الصحراء، فى رقعة منبسطة. لا يوجد أحد يمكن أن يقع عليه البصر غير امرأة فى الجــانب الآخــر مــن الزقاق تكنس عتبة دارها. وخلفها طفل يزحف على يدين وركبتين يدفع شيئا ما فى التراب، لا أستطيع أن أميــز ما هو. عجزه الأملس الناعم يتكور نحو الأعلى فى

لهــواء. عندما تستدير لمرأة بظهرها ُخطو مبتعد عن الظل وأفرِغ محتويات المبولة فى كومة النفايات تحت. إنها لا تلاحظ شيئا.

سبات قد بدأ الآن يستقر فوق البلدة، انتهت أعمال الصباح: مــتقوقعين طــوال مدة حرارة منتصف النهار، يبدأ لناس فى العــودة إلى باحـــاتهم المظللة، أو إلى غرفهم لدخلية الباردة. بلبلة الماء فى أخاديد لشوارع تخمد وتتوقف. كل ما أتمكن من ســماعه هو تكتكة مطرقة البيطرى، سجع طيور لقمرية، وفى مكان ما بعيد جداً، صوت نحيب طفل.

متنهداً ألقى نفسى على الفرش فى الشذا لعذب للزهور التى أتذكرها. كم يبدو الأمر مغرياً أن أشارك بقية البلدة نوم قيلولتها! فى هــذه الأيــام، ُيام لربيع، الساخنة هذه كأن الصيف فيها قد أقبل فعلا- كم أجد سهلاً أن أتسلّل إلى مزاجهم الذى يبعث على التراخى! كيف يمكننى ُن ُتقبل المصيبة التى باغتت حياتى إلى هــذا الحــد بيــنما لعالم ما يزال يواصل الحركة- بهدوء عبر دوراته؟ لا يتطلب لأمر جهداً كى أصدق أنه عندما تبدأ الظلال تســتطيل والهــبة الأولى لــلريح تــبدُ بتحريك أوراق لشجر، سأصــحو وأتثاءب وأرتدى ملابسى وأنزل لسلم وُجتاز الساحة إلى مكتــبى، محيياً الأصدقاء والجيران لذين أمر بهم بهزة من رُســى، وإننى سأمضى هناك ساعة أو ساعتين، أرتب مكتبى،

أقفلــه، وأن كــل شيء سيمضى متواصلاً كما كان على الدوام.
عــلىّ فى الواقــع أن أهز رأسى وأن أجعل عينىّ تطرفان كى
أدرك أنـــنى مســتلق هكــذا فى هذا المكان رجل مطارد، وأن
الجــنود وضمن سياق واجبهم سيأتون إلى هنا ويقودوننى خارجاً
ويســجنوننى ثانية بعيداً عن مشهد السماء وعن الكائنات البشرية
الأخـــرى. لمـــاذا؟ أئـــن للوسادة: لماذا أنا؟ لم يكن هناك أبدا
شـــخص فى العـــالم مرتبكاً إلى حد كبير وبريئاً مثلى أنا. طفل
حقيــقى! ومـــع ذلك إن استطاعوا فسيسجنوننى بعيدا كى أبلى،
أخضع جسدى لاهتماماتهم الدنيئة، ثم يوما بعد يوم بدون تحذير
يجلبونـــنى خارجـــا ويدفعونـــنى بسرعة عبر إحدى المحاكمات
المغـــلقة التى يجرونها بموجب سلطات الطوارئ، ويقوم العميد
لصـــغير المتصـــلب بترؤسها ويقرأ تابعه الاتهامات واثنان من
الضـــباط أقل رتبة كمساعدين من أجل إضافة جو من الشرعية
عــلى الإجــراءات فى قاعة محكمة خالية بطريقة ما، وبعدئذ،
عـــلى الأخـــص، إن كـــانوا قـــد عانوا من أمور معاكسة، على
الأخـــص إن كـــان الـــبرابرة قد أهانوهم، سيجدوننى مذنبا بتهمة
لخيانـــة- هل أحتاج إلى الشك فى ذلك؟ من قاعة المحكمة إلى
الجـــلاد سيســـحلوننى رافساً نائحاً، متحيرا مثل اليوم الذى ولدت
فيـــه، متشبثاً حتى النهاية بالإيمان من أن لا مكروه يحصل لمن
لا ذنـــب له. إنك تعيش فى حلم! أقول لنفسى: انطق بالكلمات
عاليـــاً، أحـــدق فيها، أحاول أن أفهم معانيها: "يجب أن تصحو!

عمـــداً أذكّـــر نفسى بصور لأبرياء قد عرفتهم: الولد لمتمدد فى ظــل مصـــباح ويــداه تضـــغطان على ملتقى فخذيه، البرابرة الســجناء، يقرفصـــون فى الترب يظللون أعينهم تقاء لشمس، ينتظرون أى شيء سيأتى لاحقاً. لماذ يكون الأمر غير مقنع من أن لبهيموث(*) الذى داسهم بأقدامه سيدوسنى يضاً؟ أعتقد بحق أنـــنى لا أخشى الموت. لشيء الذى أنكمش منه. كما أعتقد، هو العار من الموت غبياً ومشوشاً كما أنا.

هناك هبّات من أصوت لرجال ونساء، تأتى من أسفل حيث لساحة. بينما أتجمع فى مخبئي أسمع صوت أقدام على السلم. إنهـــا تتراجع نحو لطرف لأقصى من الشرفة، ثم تعود ببطء متوقفة عند كل باب. الجدران لتى تفصل المهاجع لصغيرة فى الطابق العلوى حيث ينام لخدم هى مجرد شرائح خشبية مغطاة بورق جدران: أستطيع أن أسمع بوضوح صوت كل باب يفتحه من يطاردنى بالتتابع. أضغط بنفسى تجاه الجدار. آمل ألاّ يشمّ رائحتى.

الخطوات تدور حول الزاوية وتبلغ الممر. يفتح بابى، يبقى مفتوحاً عدة ثوان، يغلق ثانية. لقد اجتزت إذن امتحاناً واحداً.

هـــناك خطـــوات أســـرع وأخف: أحدهم يركض فى الممر

(*) لبهيموث: فرس لبحر ُو شخص أو حيوان ضخم قوى.

ويدخـل الغرفة. رأسى يستدير نحو الوجهة المخالفة، لا أقدر حـتى عـلى رؤيـة قدميها، ولكننى أعرف أنها فتاة. هذه هى الـلحظة التى يتحتم على فيها الخروج من مخبئى، أتوسل إليها أن تخفيـنى لحيـن حلول الظلام وباستطاعتى أن أجد سبيلى لـلخروج مـن البلدة متوجها نحو الجنوب إلى ضفة البحيرة. ولكـن كيف أفعل ذلك؟ فى ذلك الوقت الذى يكون فيه السرير مـتوقفاً عـن الانتفاخ وأكون أنا قد خرجت من مكانى، فإنها ستكون قد هربت وهي تصيح فى طلب المساعدة. ومن ذا الذى يقول إنها ستقدم ملاذاً لواحد من الرجال الكثيرين الذين أمضوا وقـتاً فى هذه الغرفة، واحد من رجال عابرين كثيرين، ترتزق مـنهم، رجـل فى موقف مخز، هارب من العدالة؟ وهل أنها سـتقدر حتى التعرف على وأنا فى هذه الحالة؟ قدماها تخفقان فى أرجـاء الغـرفة، متوقفة هنا، متوقفة هناك. لا أستطيع أن أضـع مخططاً لحركتهما. أتمدد ساكناً، متنفساً بنعومة، عرق يتسـاقط مـنى. فجـأة تكون قد غادرت: يطقطق السلم، يحل الصمت.

سكون مؤقت يسقط علىّ أيضاً، نوبة من بعد نظر، أرى فى خلالها كم هو سخيف هذا الأمر، كل هذا الركض والاختباء، ما أسخفه من أمر أن أكون مستلقياً تحت سرير فى ظهيرة حارة، منتظراً فرصة للهرب بعيداً إلى اجمات القصب، وأعيش هناك عـلى بيوض الطيور وسمك أصيده بيدىّ، نائماً فى حفرة فى

الأرض، مـــتحملاً زمنى لحالى حتى تتطحن هذه المرحلة من لـــتاريخ منصرمة وتعود المناطق الحدودية إلى نعاسها الأول. الحقيقة هى أننى لم ُعد أنا، لقد أصبت بد ء الخوف، أدرك ُننى مـــنذ تـــلك اللحظة فى زنزانتى لما رأيت أصابع لحارس تشد على كتف لولد الصغير لتذكيره بألا يتحدث معى، وعرفت أنه مهمـــا كـــان لأمر لذى قد حدث فى ذلك ليوم، فإن علي أن أتحمل اللوم بسببه. سرت إلى داخل لزنزانة رجلا سليم لعقل، واثقـــاً من عدلة قضيتى، مهما كنت غير كفء، فإننى أوصل الحكـــم عـــلى نفسى لوصف ماذا يجب أن تكون تلك لقضية، ولكـــن بعد شهرين بين الصرصير دون شيء تقع عليه عيناى غيـــر أربعة جدران وبقعة سخام مبهمة، ولا شيء أشمه غير نتانة جسدى، ولا أحد أتكلم معه غير شبح فى حلم، تبدو شفتاه مختومتان، ُنا ُقل ثقة بنفسى إلى حد كبير. التوق إلى أن ألَمس مـــن قبل جسد إنسان آخر يستولى على أحياناً بتلك القوة التى تدفعـــنى إلى لأنيـــن. كـــم تطلعت توقاً إلى الاتصال لوحيد لقصيرٍ لأمد لذى كان كل ما قدرت لحصول عليه مع الولد، صباحاً، مساء! أن أستلقى بين ذراعى امرأة فى فراش جيد، أن يتوفر لدى طعام جيد أتناوله، أن أسير تحت الشمس- كم تبدو هـــذه الأمور أكثر ُهمية من لحق فى اتخاذ قرار دون نصيحة مـــن الشـــرطة الذيـــن يجب أن يكونوا لى ُصدقاء والذين هم أعدئى! كيف يمكننى أن أكون على صواب عندما لا أجد نفساً

فى البــلدة تؤيــد فــرارى مع الفتاة البربرية أو من لا يحس بالمرارة تجاهى إن قتل شباب من هنا من قبل البربرى المحمى مــن قبــلى؟ ومــا هدف المعاناة على أيدى الرجال المرتدين الأزرق إن لــم أكــن صلباً بمتانة الحديد فى يقينى؟ لا يهم أن أخــبرت المحققين بالحقيقة أو سردت كل كلمة تفوهت بها عند زيــارتى للــبرابرة، لا يهم أيضاً أن مالوا إلى تصديقى، إنهم سيواصلون لضغط بأعمالهم البشعة، لأنه بند من إيمان بالنسبة إليهــم مــن أن لحقيقة الأخيرة لا تُقال إلاّ فى أقصى درجات الألــم. أنــا أبــتعد مهرولا من الألم والموت. لا أمتلك خطة لــلهرب. إن اخــتفيت فى أدغــال القصب فسأموت جوعاً فى غضون أسبوع، أو أتلاشى إلى لا شيء. أنا ببساطة أبحث عن راحة البال، إن كان لابد من قول الحقيقة، أفرّ فقط إلى الفراش الناعم والأيدى المحبّة الوحيدة التى بقيت لى.

خطــوات أقدام ثانية. أميز خطوات الفتاة السريعة، إنما فى هــذه المــرة ليست بمفردها ولكن مع رجل. يدخلان الغرفة. أستدل من صوته أنه ليس إلاّ فتى. يقول بحدة، يجب عليك أن لا تسمحى لهم بمعاملتك بذلك الشكل! أنت لست عبدة لهم.

تجيــب، أنــت لا تفهم، على أى حال، لا أريد التحدث عن الأمر الآن. يسود الصمت برهة ثم مزيد من أصوات حميمية.

يشــيع الدم فى وجهى. إنه أمر غير محتمل أن أضطر إلى

لــبقاء بســبب هــذ . وعــلى الرغم من ذلك مثل لديوّث فى مســرحية هــزلية ساخرة أكتم أنفاسى، غاطسا ُكثر وأكثر فى الخزى.

أحدهمــا يجلس على لسرير. ترمى لأحذية على الأرض، تخشخش أثواب، جسدان يمددان أنفسهما على مسافة انج واحد فــوقى. شــرئح لسرير تتحنى، ضاغطة على ظهرى. أغلق اذنى، خجــلا مــن سماع لكلمات لتى يقولها أحدهما للآخر، ولكننى لا أقدر ُنٍ أمنع نفسى من سماع الارتعاشات ولتأوهات التى أتذكرها جيداً عن لفتاة عندما تستحوذ لبهجة عليها، الفتاة لتى اعتدت أن أكنْ محبتى لها.

ضغط الشرئح يشتد علىّ ُنٍ أبسط نفسى أقصى ما ُستطيع، يبدأ لسرير بالطقطقة. متعرقاً، متوهج الوجه أشمئز لإحساسى بمــدى اســتثارتى عــلى الرغم من نفسى، أتأوه فى لحفيفة: التنهيدة الطويلة المنخفضة تلتوى فى حنجرتى وتختلط دون أن ينتبه إليها أحد مع أصوت أنفاسهما اللاهثة.

ثــم ينــتهى الأمــر. يتنهدان ويخمدن، تتوقف الارتعاشات والحركات الخفيفة، يتمددان فى راحة جنبا إلى جنب مستغرقين فى النوم، بينما أنتظر أنا، تعيساً، متوتراً، متيقظا لِى أبعد حد، فرصــتى للهرب. نها الساعة التى ينام فيها الجميع نوماً خفيفاً حتى الدجاج، الساعة التى يوجد فيها إمبراطور وحد، الشمس.

دفعـــاً بقــدمى تجاه الجدار، أندفع تدريجياً حتى أتمكن من الجــلوس بحــذر شديد. الألم فى ظهرى، ألم رجل مسن، يعلن عــن نفسه مرة أخرى. أهمس، أنا آسف: إنهما نائمان بعمق، كطفــلين، ولــد وبــنت، عاريان، يد بيد، حبات عرق عليهما، وجهاهمــا مــرتاحان وغــافلان. مــدّ الخزى يكتسحنى بقوة مضــاعفة. جمالها لا يوقظ فيّ أىّ رغبة، لكن الأمر بدلاً من ذلــك، يــبدو أكثر فحشاً من قبل فيما لو أن هذا الجسد العجوز الــثقيل الرخو ذا الرائحة القذرة (كيف تمكنوا من عدم الانتباه لــلرائحة؟) كــان ينبغى له فى أي وقت مضى احتضانها بين ذراعيه. ما الذى كنت أفعله طول هذا الوقت، ضاغطاً بنفسى عــلى أطفال مثل زهور ذات تويجات ناعمة- ليس عليها فقط، على الآخر أيضاً؟ كان على البقاء بين البدناء والمتفسخين حيث أنتمى: نساء سمينات ذوات آباط لاذعة وأمزجة سيئة، مومسات بمؤخــرات كبيرة ورخوة. أخرج على أطراف أصابع قدمى، أحجل نازلاً السلم فى وهج الشمس لذى يكاد يعمى العين.

بــاب الجــناح العــلوى للمطبخ مفتوح.. إمرأة عجوز، بلا أســنان، منحنية، تأكل وهى واقفة من إناء معدنى قديم. تتلاقى أعينــنا، تتوقف عن الأكل، الملعقة فى منتصف الطريق، فمها مفتوح. تتعرف علىّ.

أرفــع يــدى وأبتســم- أندهــش للســرعة التى تعود فيها

لابتسامة. تتحرك الملعقة، تنغلق لشفتان عليها، تروغ نظرتها، أجتازها.

البوابة الشمالية مغلقة ومزلّجة. أصعد لسلم إلى برج المراقبة فوق زوية لسور وأتطلع إلى الخارج بتوق شديد للمنظر الطبيعى الحبيب بالنسبة لى: حزم الخضرة الممتد على طول لنهر، قد سود الآن فى مساحات صغيرة، لأخضر الأفتح لوناً للمستنقعات حيث لقصب الجديد يبدً فى لظهور، وسط لبحيرة لذى يخطف البصر.

لابد َن هناك خطأ ما. كم قد مضى على حجزى عن لعالم، شهرن أم عشرة أعوم؟ القمح الطالع حديثاً فى لفدين تحت السور كان ينبغى أن يكون الآن قوياً بارتفاع ثمانية عشر إنجاً. ولكنه ليس كذلك. ماعدا عند ُقصى التخم لغربى للمنطقة المرويّة حيث لنباتات الجديدة الصفراء المعتلة والتى قد توقف نموها. هناك الكثير من المناطق الجرداء بالقرب من لبحيرة وصف من سيقان نباتات رمادية بجانب سور الأروء.

أمام عينى الحقول لمهملة، لساحة التى تسفعها الشمس. الشوارع الخالية تتحول إلى هيئة جديدة منحوسة. لبلدة تهجر– ماذا هناك من شيء آخر لأفترضه؟– والأصوات التى سمعتها قبل ليلتين، كانت حتماً أصوات رحيل لا وصول! يترنح قلبي (خوفاً؟ أم امتناناً؟) للفكرة. ومع ذلك يجب أن ُكون مخطئاً.

عـــندما أحـــدق باهتمام أكبر فى الساحة، أستطيع رؤية ولدين يلعـــبان بهـــدوء بكرات زجاجية صغيرة تحت أشجار التوت، ومما رأيته فى الفندق أيضاً، الحياة تتواصل كالمعتاد.

فى البرج الجنوبي- الغربى يجلس حارس على مقعد مرتفع بلا مسند محدقاً ببلادة فى الصحراء. لا ينتبه إليّ ولا يجفل إلا بعد أن أصبح على مسافة خطوة منه.

يقـــول بصوت منخفض، انزل، غير مسموح لك بالصعود هنا. لم أره هنا مطلقاً. أدرك أننى منذ غادرت زنزانتى، لم أر واحـــداً مـــن الجنود الذين كانوا يؤلفون الحامية القديمة. لماذا يوجد غرباء فحسب في هذه الأرجاء؟

أقول، ألا تعرفنى؟
انزل.'

سأفعل، ولكن قبل ذلك لديّ سؤال مهم جدا أسألك إياه. كما تـــرى، لا أحد غيرك كى أسأل- كل واحد آخر يبدو إما نائماً وإمـــا بعيداً. الذى أريد أن أسأله هو: من أنت؟ أين جميع من كنت أعرفهم؟ ما الذى حدث بعيدا هناك فى الحقول؟ يبدو كأن اجـــتياحا قـــد حصل. ولكن لماذا يكون هناك اجتياح؟ تضيق عيـــناه بيـــنما اســـتمر فى الثرثرة. أنا آسف لتوجيه مثل هذه الأســـئلة الحمقاء، ولكننى كنت مصابا بالحمّى، وكنت التزمت الســـرير - تـــأتى العبارة الغريبة دون أن أسأل- واليوم هو

اليوم الأول الذى سمح لى فيه بالنهوض. ذلك هو...

يقــول، يجــب أن تحذر من شمس منتصف النهار، أبتى . أذناه تبرزان من تحت قبعة واسعة تماما عليه. ستكون أفضل حالاً إن ارتحت فى هذا الوقت من النهار . 'أجل... هل تسمح أن أتــناول بعض الماء؟ يناولنى دورقه وُشرب الماء الفاتر، محــاولاً أن لا ُظهر مدى ضراوة عطشى. 'ولكن ُخبرنى، ما الذى قد حدث؟

الــبرابرة. لقــد اقــتطعوا جزءاً من السد هناك فى الجانب لآخــر وأغــرقوا الحقول. لم يرهم أحد. جاءوا فى الليل. فى ليــوم التالى بدا الأمر مثل بحيرة ثانية. كان قد حشا غليونه، يقدمه لى الآن. ُرفضه مجاملا (سأبدأ فى السعال آخر الأمر، وذلــك أمــر سيء بالنسبة لى.). أجل، لفلاحون غير سعداء بالمرّة يقولون ن المحصول قد دمر وإن لوقت أصبح متأخرً جداً للزرع ثانية.

ذلك أمر سيء. إنه يعنى أن شتاء قاسياً أمامنا. وأن علينا أن نشد علينا أحزمتنا بقوة شديدة.

نعــم، إنــنى لا أحســدكم أيها لناس. بإمكانهم أن يكرروا الكرة، أليس هم بقادرين، لبرابرة. بإمكانهم إغراق هذه الحقول فى أى وقت يختارونه.

ندخــل فى نقــاش حول البرابرة وغدرهم. إنهم لا يقاتلون

مواجهـــة، يقـــول ثـــم يضيف: طريقتهم هى أن يزحفوا خلسة صاعدين من خلفك ويغرزوا سكينا فى ظهرك. لماذا لا يمكنهم تركنا وحدنا؟ لهم مقاطعاتهم الخاصة أليس كذلك؟ أدير المناقشة نحو وجهة أخرى إلى الأيام الخوالى عندما كان من المعتاد أن يكون كل شيء هادئا على الحدود. يناديني، أبتى ، والتى هى طريقـــته الفلاحيـــة لإظهار الاحترام، يصغى إلىّ كما يصغى أحدهم إلى رجل مسن مختل عقلياً من العامّة، أى شيء يكون، ذلك أفضل، كما اعتقد من التحديق خارجا فى فراغ كلّ النهار.

أقـــول، أخبرني، سمعت قبل ليلتين أصوات خيّالة وتوقعت أن الحمـــلة الكـــبيرة قدعادت. يضحك لا، كانوا أولئك مجرد بضـــعة رجـــال أرســـلوهم إلى هنا. أرسلوهم فى إحدى تلك العـــربات الكـــبيرة. حـــتماً كـــان ذلك ما سمعته. لقد أصيبوا بالمـــرض من جراء الماء- الماء سيئ هناك، هذا ما أسمعه- ولهذا فقد أعادوهم إلى هنا.

هكـــذا إذن! لم أستطع أن أفهم ماذا كان الأمر. ولكن متى تتوقع عودة القوة الرئيسية؟

سريعاً، لابد أن يكون ذلك سريعاً. إنك لا تقدر العيش على فاكهة الأرض الموجودة هنا، هل تقدر؟ لم أر من قبل مثل هذا البلد القاحل.

انـــزل درجات السلم. تركتنى محاورتنا حاسّاً بكوني موقرا

تقريـباً. من الغريب أن أحداً لم ينبهه إلى الاحتراس من رجل سـمين عجوز في ملابس رثة! أو ربما وُضع هناك منذ الليلة الأخيـرة دون أن يجد أحداً يكلمه؟ من كان يتصور أنني قادر على الكذب بهذا الشكل اللطيف! الوقت منتصف العصر: ظلي يـنزلق بجـواري مثل بركة حبر. أبدو كأنني المخلوق الوحيد الذي يتحرك ما بين الأسوار الأربعة. أنا منتبه بنفسي إلى الحد الـذي أشعر فيه بالرغبة في الغناء. حتى ظهري المتألم لم يعد يهمني.

أفـتح البوابة الجانبية الصغيرة وأجتازها. صديقي في برج المراقبة ينظر نحوي. ألوح له ويلوح راداً. ينادي، ستكون في حاجة إلى قبعة! أربت على رأسي العاري، أهز كتفي، أبتسم. الشمس تضرب أشعتها إلى الأسفل.

قمـح الـربيع قـد خرّب بالتأكيد. طين دافئ ضارب إلى الصفرة ينسحق بين أصابع قدميّ. لم تزل بقع من ماء الأمطار عالقة في بعض الأماكن. الكثير من المزروعات الحديثة النمو قـد اسـتنزفت واقتـلعت. وهي بأجمعها ذات أوراق مصفرّة، المنطقة الأقرب إلى البحيرة هي الأكثر تضرراً. لم يُترك شيء مـا واقفـاً، إن المـزارعين، بالتأكيد، قد بدأوا الآن في جمع النـباتات الميتة من أجل حرقها. بزوغ عدة أنجات في ارتفاع، قـد أحدث كل الاختلاف. لربما إذن يكون بالإمكان إنقاذ ربع المزروعات.

أعمال الحفر الهندسية نفسها، الجدار الطينى المنخفض الذى يمتد إلى نحو ميلين يُخضع مياه البحيرة للمراقبة عند ارتفاعها إلى مستوى منسوبها الصيفى، قد أعيد إصلاحه، ولكن النظام المعقد للقنوات والبوابات التى توزع المياه حول الحقول، قد أزيل بأكمله تقريباً. السد والناعور القريب من ضفة البحيرة لم يتضررا، على الرغم من عدم وجود أثر ما للحصان الذى يدير الدولاب. أستطيع أن أقدر أن أسابيع من عمل شاق بانتظار المزارعين. وفى لحظة، يمكن أن تذهب جهودهم سدى من قبل عدد ضئيل من رجال مسلحين بمعاول! كيف يمكننا أن ننتصر فى حرب كهذه؟ ما فائدة كتب مدرسية عن عمليات عسكرية، اندفاعات وحملات تأديبية فى قلب أرض العدو، بينما يمكن أن ننزف حتى الموت فى موطننا؟

أتخذ الطريق القديم الذى ينحرف خلف السور الغربى قبل أن يتلاشى إلى درب لا يؤدى إلى مكان غير الخرائب المملوءة بالرمال. هل ما زال يسمح للأطفال باللعب هناك، أتساءل بعجب، أم أن آباءهم يبقونهم فى البيوت عن طريق قصص عن البرابرة الذين يتربصون فى التجاويف؟ ألقى نظرة سريعة على السور، ولكن يبدو أن صديقي فى البرج قد استغرق فى النوم.

كافة الحفريات التى قمنا بها فى العام الماضى قد أهملت كفعل تراكمات الرمال. أعمدة الزوايا هى وحدها التى تبرز هنا

وهـناك فى المكان القفر، حيث على لمرء أن يصدق أن أناساً عاشـوا هـنا فى زمن مضى. أهيّء حفرة لنفسى وأجلس كى أرتـاح. أشـك فى مجـيء أحد ما للتفتيش عنى هنا. بإمكانى الاتكـاء عـلى هـذا العمود القديم بزخارفه لمحفورة لدلافين وأمواج كى تقرضنى الشمس وتجففنى الرياح وأتجمد فى نهاية المطـاف بفعل الصقيع، ولن يعثر على إلا فى بعض الأزمنة البعيدة للسلام، عندما يعود أطفال الواحات إلى ملعبهم ويلاقون الهيكل العظمي، المكشوف بفعل الريح، لساكن صحراء مهجور مكسو بأسمال بالية لا يمكن التعرف عليها.

أسـتيقظ مثـلجاً. الشـمس تستقر فى الأفق الغربى كبيرة وحمراء. الريح تتصاعد: رمال مندفعة فى الهواء بدأت توّاً فى إقامـة سـد إلى جنـبى. وعيى يتركز على عطشى بالدرجة الأولى. الخطـة الـتى لهـوت بها، فى تمضية الليل هنا بين الأشـباح، أرتجـف بـرداً، منتظراً أن تتجسد ثانية للعيان من الظـلمة، الجدران وقمم الأشجار المألوفة، هى غير محتملة. لا شيء لى هناك خارج الأسوار غير الموت جوعاً. اركض من حفـرة إلى حفـرة مثل فأرة وأخسر حتى مظهر البراءة. لماذا أحـوّل عمـل أعدائى لمصلحتهم؟ إن أرادوا سفك دمى، دعهم على الأقل يتحملون وزر ذلك. الحزن القاتل لليوم الفائت قد فقد قوتـه. ربمـا لـم تكن هذه المغامرة بلا طائل لو تمكنت من استعادة روح التمرد، مهما كان باهتاً.

* * *

أقعقــعُ بوابة ساحة الثكنات، ألا تعرفون من هنا؟ لقد نلت اجازتي، والآن دعوني أدخل!

يــأتي أحدهــم راكضاً صوبي: ينظر أحدنا إلى الآخرِ في لعــتمة عــبر القضــبان: إنــه الرجل الذي عيّن حارساً لي. اصــمت ، يهمــس لي من بين أسنانه ويسحب الأقفال، خلفه أصوات تدمدم وأناس يقتربون.

قابضــاً عــلى يدي يأخذني راكضاً عبر الساحة. من هو؟ ُحدهــم ينادي. الإجابة على طرف لساني كي أرد، أن أخرج المفتاح وألوّح به، عندما يخطر على بالي أن هذا العمل قد يعد طائشــاً. وهكــذا أنتظر أمام باب زنزانتي القديمة حتى يفتحه حارسي، يدفعني إلى الداخل، ويغلقه على كلينا. يصلني صوته عــبر الظلمة شديد الغضب: اسمع، إن تحدثت لأي واحد عن خــروجك ســأجعل من حياتك شقاء! هل تفهم! سأجعلك تدفع الثمن! لا تقل شيئاً لأي واحد يسألك عما حدث هذا المساء، قل إنني قد أخذتك للتريض، للسير، لا أكثر. هل تفهمني؟

أفكّ أصابعه عن ذراعي وأنزلق بعيداً عنه. أدمدم، !هل ترى كــم أن الأمر سيكون سهلاً عليّ للهرب والبحث عن مخبأ عند الــبرابرة، لماذا في اعتقادك قد عدت؟ إنك مجرد جندي عادي، يمكــنك فقط إطاعة الأوامر. مع ذلك: فكر في المسألة. يقبض عــلى رســغي ومــرة ثانية أحل أصابعه. فكر في السبب الذي

دفعـــنى للعودة وماذ كان الأمر سيعنى إن لم ُكن قد فعلت ذلك. ليس بإمكانك أن تتوقع تعاطفاً من قبل الرجال المرتدين الأزرق، أنا واثق من أنك تعرف ذلك. فكر فيما سيحدث إن خرجت ثانية. ُمســك أنا لآن بقبضته. وليكن لا تقلق، لن أتحدث: رتب أى قصـــة تــريدها وسأزيدك. ُعرف كيف يبدو الأمر عندما يكون المرء خائفا! يحل بيننا صمت متوتر طويل. أقول: على تعرف ُكثر شيء أرغب فيه. ُريد شيئاً آكله ، شيئا أشربه. أحس بجوع شديد. لم أتناول شيئاً طو ل النهار.

وهكذا يعود كل شيء إلى ما كان عليه. ويستمر هذا لحجز للامعقــول. ُتمــدد على ظهرى أراقب بقعة الضوء من فوقى تــنمو أقــوى ثم تضعف يوما بعد يوم. أصغى إلى الأصوات لبعيدة لمسحاة عمال البناء، ومطرقة لنجار وهى تصلنى عبر الجدار. آكل وأشرب ومثل أى فرد آخر، أنتظر.

* * *

هــناك، أولاً صـــوت بنادق من بعيد خافت كصوت بندقية أطفال. ثم يأتى من مسافة أقرب من لمتاريس نفسها، وابل من إطلاقـــات مجيبة. هناك عبر الساحة ُصوات خطوت جماعية قويـــة. أحدهـــم يصـــيح، "البرابرة ولكننى أظن أنه مخطئ. لجرس الكبير يبدأ بالجلجلة متعالياً على لضجيج بأكمله. جاثماً ورأسى على شق الباب، أحاول أن أفهم ما يجدى.

يــتعاظم الصوت القادم من الساحة من الهرج والمرج إلى صخب ثابت لا يمكن تمييز صوت منفرد فيه. لا بد أن المدينة بأكمــلها تــتدافع خارجــاً للترحيب، ألوفا من النفوس المنتشية ســروراً. إطلاقات الفرسان تتواصل مفرقعة. ثم تتغير درجة الصخب مرتفعة فى انفعال. وأخيراً تعلو عليها النغمة النحاسية للأبواق.

الإغــراء كــبير جداً، ما الذى لدّى لأفقده؟ أفتح الباب. فى وهج يعمى البصر يتحتم علىّ أن أحوّل عينى وأظللهما. أعبر الســاحة، اجــتاز الــبوابة وأنضم إلى مؤخرة الحشد. تستمر الإطلاقــات وصــخب التهــليل. المرأة العجوز ذات الملابس الســوداء التى تقف إلى جوارى تأخذ بيدى لتوازن نفسها وهى تقف على أطراف أصابع قدميها. هل بإمكانك الرؤية؟ تسأل. أجيب،. نعم، أستطيع أن أرى رجالاً على ظهور خيل ، ولكنها غير مصغية.

أستطيع أن أرى صفاً طويلاً من رجال يمتطون خيولاً وهم يجــتازون، بين رايات مزخرفة، البوابة ويتوجهون إلى وسط الســاحة حيث ينزلون من على خيولهم. هناك غيمة من غبار فــوق الســاحة بأجمعها، ولكننى أراهم يبتسمون ويضحكون: أحدهــم وهــو ممتط ويده مرفوعة بعلامة النصر، آخر يلوح بإكــليل مــن زهــور. يتقدمون ببطء، لأن الحشد يزدحم من

حولهم، يحاولون لمسهم يقذفون الزهور، يصفقون وأيديهم فوق رؤوســهم من الفرح، يدورون فى حلقات وحلقات تعبيراً عن نشــوتهم الخاصة. يندفع أطفال مارين بى، يتدفعون بين أرجل الكــبار كى يكونــوا أكثر قرباً من أبطالهم. وابل من إطلاقات تــأتى إثــر وابــل من المتاريس التى تشكل خطأ مع لجموع المهللة.

جزء من الخيّالة لا ينزل عن ظهر الخيل، يترأسهم عريف شــاب عــابس الوجــه يحمل الراية الخضراء الذهبية للكتيبة، يمرون من خلال حشد الأجساد المزدحمة حتى النهاية القصوى للساحة، ثم يشرعون بالدوران حول الساحة، يتدفق الحشد ببطء فى أثرهم. تسرى الكلمة مثل نار من واحد إلى من فى جواره: البرابرة !

جواد حامل الراية يقاد من قبل رجل يلوّح بعصا ثقيلة ليفسح الطريق أمامه. يأتى خلفه فارس آخر يجر حبلا، يأتى فى نهاية الحبل صف من رجال مربوطين رقبة إلى رقبة، برابرة، عراة كــليا، رافعيــن أيديهــم عاليا نحو وجوههم فى وضع غريب وكــأنهم جميعا يعانون من ألم الأسنان. للحظة، تنتابنى الحيرة لهيئــتهم، للرغبة الحذرة التى يقتفون لها أثر قائدهم، حتى ألمح ومضــة معدن، وأفهم فى الحال. أنشوطة بسيطة من سلك تمر عــبر لحم يد كل رجل منهم وعبر فتحتين مثقوبتين فى خديه.

إنـــه يجعلهم بوداعة الحملان، أتذكر أن جندياً كان قد أخبرنى بأنه رأى مرة هذا الفعل: إنهم لا يفكرون فى شىء غير البقاء ســاكنين. ينقــبض قلبى. أدرك الآن أنه ما كان علىّ مغادرة الزنزانة.

أضــطر إلى أن أدير ظهرى بمهارة كى لا أشاهد من قبل اثنين من رجال الحرس الممتطين فرسيهما، يحافظان على نظام المسيرة فى الخلف، النقيب حاسر الرأس الذى انتصر الأول هو هــذا، وإلى جــواره عميد الشرطة جول الذى يبدو أنحف قامة واغمق لوناً بعد أشهره التى أمضاها فى الحملة.

الحــلقة تكاملت. كل واحد لديه فرصة لرؤية الأسرى البائسين الاثــنى عشــر، كى يؤكدوا لأولادهم أن البرابرة موجودون حقاً. يتدفق الحشد الآن، أنا على مضض فى أثره، نحو البوابة الكبيرة، حيــث يسد الطريق نصف دائرة من الجنود، حتى لا يتمكن الحشد من التزحزح بعد الضغط عليهم من الأمام والخلف.

أسأل الرجل المجاور لى، ما الذى يجرى؟

يقول، لا أدرى، ولكن ساعدنى فى رفعه. أساعده فى رفع الطفــل الذى يحمله على ذراعه إلى كتفيه. يسأل الطفل، هل بإمكانك الرؤية؟

نعم.

ماذا يفعلون؟

إنهم يرغمون البرابرة على الركوع. ما الذى سيفعلونه بهم؟

لا أعرف. دعنا ننتظر ونر.

ببطء، بقوة هائلة، بكل قوتى، أستدير وأبدأ فى دفع جسدى خارج الحشد. أقول، اعذرني... اعذرني...، الحر- سيغمى عليّ وللمرة الأولى أرى رؤوساً تستدير وأصابع تشير.

يتحتم عليّ العودة إلى زنزانتى. وهى كحركة لن يكون لها أى تأثير، وقد لا تلاحظ أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل نفسى، كإيماءة لنفسى فحسب، يتحتم على أن أعود إلى البرد والظلمة وأغلق الباب وأثبت المفتاح وأصم أذنيّ عن أصوات وطنية متحرقة للدماء وأضم شفتيّ وأن لا أتكلم قط ثانية.

من يدرى، ربما أقترف أنا ظلماً تجاه رفاقى من أهل البلدة. لربما أن صانع الأحذية يدق فى هذه الدقيقة الحذاء الذى بيده ويضعه فى القالب، يدندن لنفسه ليتخلص من الأصوات العالية، وربما أن هناك ربات بيوت يقشرن البازلاء فى مطابخهن، يروين قصصاً من أجل إلهاء أطفالهن الأرقاء، ربما أن هناك مزارعين ما يزالون يواصلون إصلاح مصارف مياههم. إن وجد رفاق مثل هؤلاء، كم هو أمر مؤسف أنى لا أعرفهم! بالنسبة لى، فى هذه اللحظة التى أبتعد فيها بخطوات واسعة عن الحشد، ما يهمنى أكثر من أى شيء سواه هو أن لا أدنّس بهذا العمل الشنيع الذى سيُقترف، ولا أسمم نفسى بكراهية عاجز

تجاه مرتكبيها. لأتحدث عن الأمر بأبسط ما يمكن التكلم عنه، إن جــاء قــط يوم وتحدثوا عنه، إن كان هناك قط أحد ما فى مرحــلة من مراحل لمستقبل البعيد اهتم أن يعرف طريقتنا فى العيــش، إنــه فى هذا المخفر الأمامى الأبعد من إمبراطورية النور، وُجِدَ رجل واحد لم يكن من أعماق قلبه بربرياً.

أجتاز بوابة الثكنات إلى ساحة سجنى. عند حوض الماء فى منتصــف الســاحة، ألتقط دلوا فارغاً وأملؤه. الماء يتناثر من أطــراف الدلو وأنا أحمله مرفوعاً أمامى، وأقترب من مؤخرة الحشــد ثانية. معذرة، أقول وأدفع تشتمنى الناس، وتفسح لى الطــريق، يميل الدلو ويطرطش الماء، أجرى إلى الأمام حتى أبــدو فجــا جلياً فى مقدمة الصف الأمامى للحشد خلف ظهر الجــنود الذين يمسكون بعوارض بين الواحد منهم والآخر، كى يحافظوا على إخلاء الجزء الوسط من الساحة لما سيكون عبرة للمشاهدين.

أربعة من السجناء يركعون على الأرض. الثمانية الآخرون مــا يزالون موثقين، يجلسون القرفصاء في ظل جدار، يرقبون وأيديهم على خدودهم.

ينحــنى الســجناء الراكعون جنباً إلى جنب فوق عمود ثقيل طويل. يمتد حبل من عقدة السلك عبر فم الرجل الأول. ثم من تحــت العمــود، وأعــلى إلى عقدة الرجل الثانى، ومن تحت

العمــود، أعلى إلى العقدة الثالثة، من تحت العمود، عبر العقدة الـــرابعة. بيـــنما أرقـــب جنديا، ينتزع الحبل ببطء ويشدّه قوياً وينحـــنى الســـجناء أكثر وأكثر حتى يركعوا أخيراً ووجوههم تلامـــس العمـــود. أحدهم يلوى كتفيه متألماً متأوهاً، الآخرون ساكتون، تتركز أفكارهم تماماً على التحرك بنعومة مع الحبل، لئلا يمنحوا الحبل فرصة لتمزيق أجسادهم.

مـــن يقـــود الجند بإشارات طفيفة من يده هو العميد جول. وعـــلى الـــرغم من أننى لست الشخص الوحيد فى حشد يضم الآلاف، وعلى الرغم من كون عينيه مظللتين كما فى السابق، أحدق أنا فيه بصلابة بوجه يشرق بالتساؤلات لأننى أعرف أنه يرانى فى الحال.

اسمع من خلفى بوضوح كلمة القاضى. أترانى أتخيل الأمر أم أن من بجوارى بدأوا يبتعدون عنى؟

يتقدم العميد إلى الأمام. وبالتتابع ينحنى عند كل سجين يفرك حفنة من تراب على ظهره العارى ويكتب بعصا من فحم نباتى كـــلمة. أقرأ الكلمات بالمقلوب: عدو... عدو... عدو... عدو. يعـــود إلى الـــوراء ويثـــنى ذراعيه. ومن مسافة لا تزيد عن عشرين خطوة يتأمل أحدنا الآخر.

يـــبدأ بعدئـــذ الضـــرب. يستخدم الجنود عصياً من القصب الأخضـــر المـــتين، ينزلونها فى لطمات ثقيلة، أشبه بأصوات

صـــادرة عن اللوح الخشبى الذى تغسل عليه الملابس، مسببة آثـــارا حمراء على ظهور السجناء وأردافهم. بحذر شديد، يمد السجناء سيقانهم حتى يستلقون تماما على بطونهم، كلهم ما عدا السجين الذى يتأوه والذى يلهث الآن بشدة ثر كل ضربة.

الفحـــم النباتى الأسود والتراب الأصفر يبدآن بالسيلان مع العـــرق والـــدم. اللعـــبة، كمـــا افهم، هى ضربهم حتى تتآكل ظهورهم تماماً.

أرقـــب وجه فتاة صغيرة تقف فى الصف الأول من الحشد قابضة على ملابس والدتها. عيناها مدوّرتان، إبهامها فى فمها: ســـاكنة، خائفـــة، فضـــولية، تتشرّب مشهد رجال كبار عراة يضـــربون أمامهـــا. عـــلى كـــل وجه من حولى، حتى أولئك المبتســـمون، أرى التعبير نفسه: ليس حقداً، ليس رغبة لإراقة دم، بل فضول متوتر جداً إلى الحد الذى تستنزف فيه أجسادهم، وتبقى أعينهم نابضة بالحياة، أعضاء لشهوة جديدة وضاربة.

علامـــات الإنهاك تبدو على الجنود الذين يتولون الضرب. يقـــف واحـــد منهم ويد ه على ردفيه لاهثاً، مبتسماً، مشيراً إلى الحشد. تبدر كلمة من العميد جول: يتوقف الأربعة عن عملهم ويتقدمون إلى الأمام يعرضون عصيّهم للمشاهدين.

فـــتاة ضـــاحكة، تـــوارى وجههـــا، تُدفع إلى الأمام من قبَل صـــديقاتها. يلحّن عليها، اذهبى لا تكونى خائفة! جندى يضع

العصـــا فى يدها ويقودها إلى المكان. تقف مرتبكة، حائرة، يدها ما تزال على وجهها. تنهال عليها الصيحات، دعابات، توصيات مشـــينة. تـــرفع العصــــا، تهبط بها بقسوة على ردفى السجين، تسقطها أرضاً، وتعدو إلى الأمان إلى عاصفة من تصفيق.

هـــناك تدافـــع عـــلى العصى، يحافظ الجنود بصعوبة على الـــنظام، يختفى عنى منظر الأسرى وهم على الأرض، بسبب من تدفع الناس إلى الأمام لأخذ دورهم أو ببساطة، للتفرج على الضرب من مكان أقرب. أقف منسياً والدلو بين قدمى.

ينـــتهى الجـــلد بعدئذ، يعاود الجنود إصرارهم على حقهم، يـــتدافع الحشد إلى الوراء، تهيأ الساحة مجدداً، على الرغم من أنها قد أصبحت الآن أضيق من ذى قبل.

يمســـك العميـــد جول بمطرقة فوق رأسه، يعرضها للحشد، مطرقة اعتيادية، وزنها أربعة أرطال، تستعمل لدق وتد الخيمة، ثانية، تلتقى نظراته لنظراتى: تهدأ البلبلة.

لا! اسمع الكلمة الأولى من حنجرتى، صدئة، غير مرتفعة إلى درجـــة كافية. ومرة ثانية: لا! ترن الكلمة فى هذه المرة مثل جرس فى صدرى. الجندى الذى يسدّ طريقى يتعثر جانباً. فى الحلبة أنا، رافعاً ذراعىّ لتهدئة الحشد: لا! لا! لا!

عـــندما أستدير نحو العميد جول الجدار واقفاً على بعد أقل

مــن خمس خطوات منى، أشير بأصبعي نحوه. أصيح، أنت لأدع كــل مــا أريده يقال، لأجعله الشخص الذى يتكسر عليه غضبى.

إنك تفسد هؤلاء الناس

إنه لا يجفل، لا يجيب.

أنــت! يدى تشير نحوه مثل بندقية، صوتى يملأ الساحة. صــمت شــامل هناك، أو ربما، إننى جد ثمل بفعلتى إلى الحد الذى لا اسمح فيه شيئاً.

شــيء ما من الخلف يشق طريقه نحوى بجلبة. انبطح على التراب، ألهث بشدة، أحس بلفحة الألم القديمة فى ظهرى. عصا تــنحط علىّ، أمدّ يدى محاولاً الذود منها، أتلقى ضربة صاعقة على يدى.

وفــوقى يصبح ضرورياً، مهما يكن صعباً بسبب الألم الذى يبعــثه. أقف على قدمىّ وأتبيّن من هو ذلك الذى يضربنى. إنه الــرجل المتين الذى يحمل شارة الرقيب والذى أسهم فى عملية الضــرب.جاثم على ركبتيه، فتحتا أنفه تستشيطان غيظاً، يقف والعصــا مــرفوعة للضــربة الثانية، انتظر! ألهث ماداً يدى المترنحة. أعتقد أنك قد كسرتها! يضرب، أتلقى الضربة على ســاعدى. أخــفى يــدى، أخفض رأسى، وأحاول أن أتحسس طريقى نحوه وأتماسك معه بالأيدى. تنهال ضربات على رأسى

وكتفي. لا بأس: كل ما أريده هو بضع لحظات لإنهاء ما أقوله الآن والــذى بدأته. أمسك بسترته وأجذبه إليّ وعلى الرغم من صــراعه، فإنـــه لا يقدر على استعمال عصاه، من فوق كتفه، أصيح ثانية:

ليــس بتلك! أصيح المطرقة تضطجع محمية بين ذراعى العميــد المتينــتين لســت بقادر على استعمال المطرقة على بحيــوان، ليــس على حيوان! في اندفاعة رهيبة من غضب، أســتدير نحو الرقيب وأقذفه بعيداً عنى. قوة إلهية قوتى. وهى فى دقيقة ستتلاشى: لأستخدمها بشكل جيد فى وقت وجودها!

أنظــر! أصــيح. أشير إلى السجناء الأربعة المستلقين على الأرض باستســلام، شــفاههم عــلى العمــود، أيديهم، ممسكة بوجوههــم مــثل مخالب قرد، غافلين عن المطرقة، جاهلين ما يــدور خــلفهم، مــرتاحين لأن علامـــة الإساءة قد صدّت عن ظهورهــم، آمــلين أن العقوبـــة قــد وصلت نهايتها. أرفع يدى المكســورة إلى الســماء. أصــيح، أنظــر! نحن معجزة الخلق الكبرى! ولكن هذا الجسد المعجز لا يستطيع إصلاح نفسه بفعل بعــض الضــربات! كيف! تخذلنى الكلمات. أنظر إلى هؤلاء الــرجال! أعيــد الكرة رجال أولئك الذين فى الحشد القادرين على أن يشرئبوا بأعناقهم للنظر إلى السجناء، وحتى نحو الذباب الذي يبدأ فى الاستقرار على ندوبهم النازفة، يبدأون بالهيجان.

أسـمع الضـربة وهى تنزل، أستدير لألاقيها. تتلقانى فوق الوجـه تماماً. أنا أعمى! أعتقد ذلك، مترنحاً إلى الخلف نحو الظـلمة الـتى تسقط فى الحال. أبتلع دماً، يبرز شيء ما فجأة عـلى وجهى، مبتدئاً بدفء متفائل، متحولاً إلى ألم متقد. أخفى وجـهى فى يدىّ وأضرب الأرض بقدمىّ فى دائرة من حولى محاولاً ألا أصرخ: محاولاً ألا أسقط.

مـا أردت أن أقولـه بعدئذ، لا أقدر على تذكره. معجزة الخلق أتعقب الفكرة ولكنها تتملص منى مثل حزمة من دخان. يخطـر بـبالى أننـا نسحق الحشرات تحت أقدامنا، إنها أيضاً معجزات الخلق، خنافس، ديدان، صراصير، نمل، فى حالاتها المختلفة.

أرفع أصابعى عن عينى وعالم رمادى ينبعث مجدداً سابحاً فى دمـوع. أنا ممتن بعمق لأننى توقفت عن الإحساس بالألم. بينما أدفع أنا، رجل عند كل مرفق، عائداً عبر الحشد المدمدم، إلى زنزانتى، بل وحتى أجد نفسى مبتسماً.

تلك الابتسامة وتلك الفورة من الفرح، تترك وراءها رواسب تـثير القـلق. أعرف أنهم يقترفون خطأ فى التعامل معى بهذه السـرعة، أنـا لست بخطيب. فماذا كان بمقدورى أن أقول إن كـانوا قـد سمحوا لى بمواصلة الكلام؟ ذلك أنه من الأسوأ أن تضـرب قدمـا رجل حتى تتحولا إلى عجينة من أن يقتل فى

معــركة؟ إنه أمر يجلب العار على كل واحد عندما يسمح لفتاة أن تجــلد رجــلا؟ وإن مشـــاهد القســوة تفسد قلوب الأبرياء! الكــلمات التى منعونى من قولها ربما كانت جديرة بالازدراء، نـــادراً ما تقدر الكلمات على إثارة الرعاع. ماذا أمثل أنا، بعد كــل شيء، غير مبادئ وقواعد رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيـــع من مقاييس السلوك الحسن تجاه أسرى أعداء، وما الذى أقف أنا ضده فضلاً عن العلم الجديد للانحطاط الذى يقتل الناس وهــم راكعون، مرتبكون ومتجردون من الكرامة أمام أنفسهم؟ ياليتــنى لــم أجرؤ على مواجهة الحشد وطلب العدالة لهؤلاء السجناء البرابرة المثيرين للسخرية ومؤخراتهم معروضة على المــلأ؟ العدالة: حالما تطلق تلك الكلمة، إلى أين سينتهى الأمر برمــته؟ الأســهل أن تصرخ لا! الأسهل أن تتعرض للضرب وتصــبح شهيداً. الأسهل أن أدفن وأن يوضع رأسى على كتلة من حجر من أن أدافع عن قضية العدالة بالنسبة للبرابرة: فإلى أيــن بإمكان تلك المناقشة أن تقودنا إلا إلى التخلى عن سلاحنا وفــتح بوابات البلدة لأناس قمنا باغتصاب أراضيهم؟ القاضى القديم، المدافع عن حكم القانون، عدو بطريقته الخاصة للدولة، يُعــتدى عــليه ويسجن، الفاضل فوق الشك، ذلك لن يكون من غير استشعاره بوخز من ارتياب.

أعلم أن أنفى مكسور، وربما عظمتا الخد أيضاً حيث انفتح لحم بشرتى بضربة العصا. عينى اليسرى متورمة إلى حد أنى لا أقدر على فتحها.

في الوقـــت الذى ينقضى فيه الحذر، يبدأ الألم يعاودنى فى تقلصـــات بين دقيقة أو اثنتين ما عدا شدة الانفعال الذى أنا فيه وهـــو مـــا يجعلنى غير قادر بعد علي التمدد ساكناً. عند ذروة التقلص، أسير فى أرجاء الغرفة قابضاً على وجهى، أعوى مثل كلب، أتنفس بعمق فى الوديان المباركة ما بين ذروات التقلص، محـــاولاً أن أحتفظ بالسيطرة على نفسى، محاولا أن تبدر مني صيحة عالية مخزية جداً. يخيل إليّ أنى أسمع جيشاناً وهجوما مؤقتاً فى الصوت الصادر عن الغوغاء فى الساحة، ولكننى لا أقدر على التأكد من أن ذلك الهدير هو ببساطة ليس فى طبلتى أذنى.

يجلـــبون لى وجبة المساء كالمعتاد، ومع ذلك لا أستطيع أن أتناوـــله. لا أقدر على البقاء ساكناً، أضطر إلى السير إلى الأمام والى الخـــلف أو أن أتـــأرجح علي عجزى كى أمنع نفسى من الصـــراخ، ممـــزقاً ملابسى، ناشباً أظافرى فى لحمى، فاعلا أى شىء، يفعله الناس عندما يتجاوزون حدود تحملهم. أبكى، وأحس بالدموع تلسع لحمى المفتوح. أدندن بالأغنية القديمة عن الفارس ودغل العرعر مرات ومرات، متشبثاً بالكلمات التى أتذكرها بعد أن فقـــدت كـــل إحساس بها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... أعد. أقول لنفسى، سيكون نصرا مشهودا إن عشت هذه الليلة.

فى الســـاعات الأولى مـــن الصباح، لما ينتابنى دوار شديد

بســبب الــتعب، أدور عــند ذلك على قدميّ ثم أستسلم أخيراً وأنــتحب مــن أعمــاق قلبى مثل طفل: أجلس فى زاوية فى مواجهة الجدار وأنخرط فى البكاء، تسيل الدموع من عينى بلا توقــف. أبــكى ثم أبكى بينما طلقات الألم تأتى وتروح حسب دوراتهــا. يــندفع النوم صوبى وأنا فى مثل هذه الحالة، مثل صــاعقة. أنذهــل وأنــا أعود إلى نفسى فى الضوء الشاحب الــرمادى للنهار، مترهلا فى إحدى الزوايا، دون أى إحساس ولــو ضــئيل بمرور الزمن. وعلى الرغم من تواصل طلقات الألم، أتبين أننى قادر على تحملها، إن بقيت ساكناً. في الحقيقة، لقــد فقــدت غرابتها. وهى سرعان ما ستكون جزءاً منى كما التنفس.

وهكذا أتمدد بهدوء تجاه الجدار، أثنى ذراعى الملتهبة تحت إبطى ابتغاء الراحة وأغرق فى النوم ثانية، إلى بلبلة من صورٍ مــن بيــنها واحــدة أسبر غورها بدقة وبشكل خاص، دافعاً الأخــريات التى تطير نحوى جانبا مثل أوراق شجر. إنها عن الفــتاة. جاثمــة هى وظهرها نحوي أمام قصر الثلج أو قصر الرمال الذى تبنيه. وهى ترتدى ثوباً داكن الزرقة، عند اقترابى منها، أجدها تحفر فى جوف القصر.

تحــس بوجودى وتستدير. لقد كنت مخطئاً. إنه ليس قصرا ذلك الذى تبنيه ولكن فرنا من صلصال. يتصاعد الدخان ملتويا

إلى أعلى من منفذ إلى أعلى. تمد ذراعيها نحوى تقدم لى شيئاً، كتلة بلا شكل، أتطلع إليها أنا، من غير رغبة عبر ضباب. ومع أننى أحرك رأسى، فإن الرؤية لا تتوضح أمامى.

إنها ترتدى قبعة مستديرة مطرزة بالذهب. شعرها مجدول فى ضفيرة ثقيلة تستقر على كتفيها: هناك خيوط ذهبية تتخلل الضفيرة. أريد أن أسأل، لماذا ترتدين أفضل ثيابك، لم أرك مطلقاً تبدين بمثل هذا الجمال؟ تبتسم لى: يا لها من أسنان جميلة تلك التى تمتلكها، وأى عينين صافيتين بلون الكهرمان الأسود! كما أننى أستطيع أن أرى الآن من أن ما تقدمه لى هو رغيف خبز، ما يزال ساخناً، بقشرة خشنة متكسرة يتصاعد منها البخار. تجتاح كيانى موجة عارمة من الامتنان. أريد أن أقول، من أين تعلمت طفلة مثلك أن تخبز بهذا الشكل الجيد فى الصحراء؟ أفتح ذراعى لاحتضانها، ثم أعود إلى وعيى والدموع تلسع الجرح الذى فى خدى. وعلى الرغم من أننى أحبو فى الحال عائداً إلى جحر النوم فإننى لا أقدر على الدخول ثانية إلى الحلم أو أتذوق مذاق الخبز الذى جعل لعابى يسيل.

* * *

يجلس العميد جول خلف المكعب فى غرفتى. لا توجد هناك كتب أو ملفات، الغرفة خالية تماماً ما عدا زهرية فيها ورود قطفت تواً.

يــرفع ضابط الصف الوسيم الذى لا أعرف اسمه، الخزانة المصــنوعة من خشب الأرز ويضعها على المكتب ثم يتراجع إلى الخلف.

يــتحدث العميــد جول، وهو ينظر فى أوراقه، كانت هذه الخزانة الخشبية من بين الحاجيات التى وجدت فى شقتك. أود منك أن تتأمل الأمر. محتوياتها غير اعتيادية. وهى تحوى نحو ثلاثمائــة شــريحة من خشب الحور الأبيض. كل واحدة منها ثمانيــة فى اثــنين انج تقريباً، الكثير منها ملفوفة بأطوال من الخيــط. الخشــب جاف وهش. بعض الخيوط جديدة وبعضها قديمة إلى درجة التلف.

إن حــلّ أحد ما خيطاً سيجد أن الشريحة تنفتح كاشفة عن ســطحين مســتويين داخليين. هذه الأسطح المستوية، مكتوب عليها بخط غير معهود.

أعتقد أنك ستؤيد هذا الوصف.

أحدق فى العدستين لسبوداوين. يواصل كلامه.

الاســتنتاج المقنع هو أن الشرائح الخشبية تتضمن رسائل تــبودلت بيــنك وبيــن جماعات أخرى، لا نعرف متى، الأمر متروك لك لشرح ما هو مكتوب على هذه الرسائل ومن كانوا الجماعــات الأخــرى. يتــناول شريحة من الخزانة ويدفعها

بضربة خفيفة عبر السطح الأملس الصقيل للمكتب نحوى.

أتطلع فى خيوط الأبجدية المكتوبة من قبل شخص غريب مات منذ زمن بعيد. لا أعرف أنا إن كانت تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. فى الأمسيات الطويلة التى أمضيتها متأملاً فيها مجموعتى، كنت قد أفرزت أكثر من أربعمائة رمز مختلف فى النص، أو ربما أربعمائة وخمسين. لا أمتلك فكرة عن المعانى التى ترمز إليها. هل إن كل واحد منها يشير إلى شيء مفرد، دائرة للشمس، مثلث للمرأة، موجة للبحيرة، أم أن الدائرة تعني الدائرة فحسب والمثلث هو المثلث والموجة هي الموجة'؟ هل إن كل رمز يمثل حالة مختلفة للسان، الشفتين، الحنجرة، الرئتين، كما تجمع سوياً عند النطق فى بعض اللغات البربرية المتنوعة المنقرضة؟ أم أن رموزى الأربعمائة لا تعنى شيئاً بل مجرد شخبطات زخرفية لمجموعة أساسية من عشرين أو ثلاثين صيغة، لا أقدر أنا ضمن إمكانياتى العقلية على فهمها؟ أقول، إنه يبعث بتحياته إلى ابنته، أسمع بعجب الصوت الأخن الثخين الذى أصبح صوتى الآن. تمضى أصابعى متلمسة سطر الرموز من اليمين إلى اليسار. والتى كما يقول لم يرها منذ زمن بعيد. إنه يأمل أن تكون سعيدة، ناجحة. وهو يأمل أن موسم الحملان كان جيداً. إنه قد هيأ هدية لها، ويقول بأنه سيحتفظ بها لديه حتى يراها ثانية. وهو يبعث حبه. ليس من السهل قراءة توقيعه هذا.

وقد يكون ببساطة والدك أو قد يكون شيئاً آخر، اسماً.

أتقــدم مــن الخزانة وألتقط شريحة أخرى. ضابط الصف الجــالس خلف جول، دفتر ملاحظاته مفتوح على ركبته، قلمه مثــبت عــلى الورقــة يحدق نحوى بصلابة. أقول، تقرأ هذه الشريحة كما يأتى: إنني آسف لإرسال أخبار سيئة. جاء الجند وأخــذوا أخــاك بعيــداً. لقد ذهبت إلى الحصن بصورة يومية لألتمس عودته. أجلس على التراب ورأسى عار. أمس وللمرة الأولى بعــثو رجلاً ليتحدث معى. يقول إن أخاك لم بعد هنا. يقــول إنه قد أرسل بعيداً. أين؟ سألت، ولكنه لم يخبرنى. لا تخبرى والدتك ولكن شاركينى فى الصلاة من أجل سلامته.

والآن دعونـــا نر ماذا تقول الشريحة الثالثة هذه. لقلم ما يـــزال مثبتاً وهو لم يكتب شيئا، ولم يتحرك. ذهبنا يوم أمس لاصطحاب أخيك. قادونا إلى غرفة حيث كان مددا على منضدة قــد خيط فى داخل ملاءة؟ يميل جول ببط، مستنداً على ظهر كرســيه. يغلق ضابط الصف دفتره ويقف نصف وقفة، ولكن جــول بحــركة من يده يهدئه. أرادوا منى أخذه بتلك الهيئة، ولكنــنى ألححت على إلقاء نظرة عليه. ماذا لو أنكم تعطوننى جثة أخرى؟ قلت لهم لديكم أجساد كثيرة هنا، أجساد رجال فى عمــر الشباب. وهكذا فتحت ورأيت انه كان حقاً أخوك. على الرغم من أننى رأيت غرزة على كل جفن. قلت لماذا فعلتم به

هذا؟ قال، 'إنه تقليد نتبعه. مزقت الملاءة وفتحتها على وسعها ورأيـــت كدمـــات فى كل أجزاء الجثة، ورأيت أن قدميه كانتا متورمـــتين ومكسورتين. قلت، ماذا حدث له قال الرجل، لا أعـــرف، الأمـــر غير مذكور فى الورقة، إن كانت لديك أسئلة عـــليك بالذهاب إلى الرقيب، ولكنه مشغول جدا . واضطررنا إلى دفن أخيك هنا، خارج حصنهم، لأنه كان قد بدأ ينتن. رجاء أبلغى والدتك وحاولى مواساتها.

والآن دعونـــا نـــر ماذا تقول الشريحة التالية. انظر، هناك رمـــز واحد فقط. إنه الرمز البربرى الذى يعنى حرب ، ولكن لـــه معانى أخرى أيضاً. فهو قد يرمز إلى كلمة انتقام، إن قلبته رأســـاً على عقب هكذا، فإنه لذلك يصلح ليقرأ عدالة. ليس من المعلوم أى المعانى هى المقصودة. إنه جزء من مكر البرابرة.

الأمر نفسه مع بقية هذه الشرائح. أغمد يدى السليمة فجأة فى داخل الخزانة وأقلب ما فيها.

إنهـــا جميعاً تشك قصة رمزية. ويمكن أن تقرأ على وفق ترتيـــبات عديـــدة. فضـــلا عن ذلك، يمكن قراءة كل شريحة منفردة بطرق متعددة. وكلها معا يمكن قراءتها كسجل وطنى، أو تقـــرأ كخطة حرب، أو يمكن قلبها على طرفها الآخر وتقرأ كتاريخ للأعوام الأخيرة للإمبراطورية– الإمبراطورية القديمة، ذلك ما أعنيه. ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول كيفية تفسير

هذه الذخائر العائدة للبرابرة القدماء. مجموعات ذات استعارات مثل هذه يمكن أن يجدها المرء مدفونة في سائر الأرجاء الصحراء. وقد وجدت هذه المجموعة على مساحة ثلاثة أميال من هنا في بقايا مبنى عام. المقابر هي مكان جيد آخر للبحث، على الرغم أنه ليس من السهل دائماً معرفة مواقع مقابر البرابرة. وينصح عادة أن تحفر ببساطة اعتباطاً، ربما ستعثر في البقعة نفسها التي تقف على قصاصة، كسرة، بقايا الموتى. وأيضاً الهواء: الهواء مليء بتنهدات وصرخات. هذه الأشياء لا تتلاشى مطلقاً: إن أصغيت بانتباه، بأذن متعاطفة، ستسمع رجع صداها يتردد إلى الأبد في العالم الثاني. الليل هو الأفضل: عندما تجد في بعض الأحيان صعوبة في النوم، ذلك لأن أذنيك قد وصلتها صرخات الموتى والتي هي مثل الكتابة، عرضة لتفسيرات عديدة.

شكرا لك لقد انتهيت من الترجمة.

لم أخفق في مراقبة جول طوال الوقت. وهو لم يتحرك من مكانه مرة أخرى، ما عدا وضع يد على كم مرؤوسه في اللحظة التي أشرت فيها إلى الإمبراطورية، ووقوفه متأهباً للانقضاض عليّ.

إن تقدم مني سأضربه بكل القوة التي يمتلكها جسدي. لن أختفي تحت الأرض دون أن أترك علامة عليهم.

يتكلم العميد، إنك لا تدرى كم هو ممل تصرفك. إنك الموظف الأول والوحيد الذى عيّن للعمل معنا على الحدود والذى لم يمنحنا تعاونه التام. بصراحة، يتحتم عليّ إخبارك بأننى غير مهتم بهذه العيدان. يشير يداً إلى الشرائح المتناثرة على المكتب. من المحتمل جداً أن تكون عيدان مراهنة. أعرف أن قبائل أخرى على الحدود تقامر بالعيدان.

أسألك أن تتمعن برزانة: أى نوع مستقبل يكون لك هنا. لن يسمح لك البقاء فى وظيفتك. لقد ألحقت العار بنفسك تماما. حتى إن لم تحاكم فى آخر الأمر أصيح، أنا فى انتظار أن تحاكمونى! متى ستفعلون ذلك؟ متى ستقدموننى إلى المحاكمة؟ متى سأمنح فرصة للدفاع عن نفسى؟ غضب شديد يجتاحنى. لا أثر من عجز اللسان الذى شعرت به أمام الحشد ابتلى به. إن كان عليّ مواجهة هؤلاء الرجال الآن، أمام الناس، فى محاكمة عادلة فسأجد الكلمات التى ستخزيهم. إنها مسألة صحة وقوة: أحس أن كلماتى الساخنة تنتفخ فى صدرى. ولكنهم لا يقدمون أبداً رجلا إلى محاكمة وهو يتمتع بصحة وقوة كافية لقهرهم. سيسجنوننى بعيداً فى الظلام حتى أصبح أبله مدمدماً، شبحا لنفسى، ثم سيسحبوننى أمام محكمة مغلقة وفى دقائق خمس يتخلصون من الالتزامات القانونية التى يجدونها مملة جدا .

يقول العميد جول، بسبب استمرار حالة الطوارئ، كما

تعلم، فإن إدارة العدالة قد أصبحت خارج نطاق السلطة المدنية وانحصــرت مسؤوليتها فى أيدى المكتب. يتنهد . أيها الحاكم، يــبدو أنــك تعتقد من أننا لا نجرؤ على تقديمك للمحاكمة لأننا نخشى كونك شخصاً ذا شعبية كبيرة فى هذه البلدة، لا أتصور أنــك تــعى مــدى خســارتك الكبيرة جراء إهمالك لواجباتك، متحاشيا أصدقاءك، معاشرا أناساً وضيعين. لا يوجد واحد ممن تكــلمت معهــم لم يحس فى وقت من لأوقات بالإهانة جراء تصرفاتك.

حياتى الخاصة، ليست شأناً من شئونهم!

مع ذلك، أود أن أعلمك أن قرارنا بإعفائك من مسؤولياتك قــد لقى ترحيباً من قبل كافة الأطراف. أنا شخصياً، لا أحمل شــيئاً ضــدك. حينما عدت من السفر قبل بضعة أيام، كنت قد قــررت أن كــل مــا أردت منك هو جواب واضح عن سؤال بسيط. بعد ذلك كان بإمكانك العودة إلى محظيتك رجلاً حرّاً .

يخطــر لى فجأة أن الإهانة قد لا تكون بلا مبرر، ذلك أن هذيــن الرجــلين وربمــا لأسباب مختلفة سيرحبان إن فقدت الســيطرة عــلى أعصــابى. مشتعلا بالغضب، متوترا فى كل عضلة، أحافظ على صمتى.

عــلى أى حال، يبدو أن لديك طموحاً جديدا ، يمضى فى حديــثه، يــبدو أنــك تريد أن تخلق لنفسك صيتاً كأنك الرجل

العـــادل الوحيـــد، الـــرجل المستعد للتضحية بحريته من أجل مبادئه.

ولكن دعني أسألك: هل تعتقد أن تلك هي الكيفية التي ينظر بها إليك أبناء بلدتك بعد المشهد السخيف الذي خلقته في الساحة في اليوم السابق؟ صدقني انت بالنسبة للناس في هذه البلدة لست الـــرجل الأوحد، إنك ببساطة مهرج، رجل مجنون. إنك قذر، رائحتـــك نتنة، بإمكانهم أن يشموا رائحتك من مسافة ميل. إنك تبدو مثل متسول عجوز، نفاية حثالة، إنهم لا يريدونك أن تعود بأي صفة. لا مستقبل لك هنا.

أنت تريد أن يرد اسمك في التاريخ كشهيد. أشك في ذلك. ولكـــن من ذا الذي سيضعك في كتب التاريخ؟ مشاكل الحدود هذه لا أهمية لها. إنها ستنقضي في مدة زمنية قصيرة ثم تعود الحـــدود إلى الـــنوم عشـــرين سنة أخرى. الناس غير مهتمين بتاريخ مكان منعزل .

أقول، لم تكن هناك اضطرابات حدود قبل مجيئك*.

يقـــول، هراء، أنت ببساطة جاهل بالحقائق. إنك تعيش في عـــالم ينتمي إلى الماضي. أنت تعتقد بأننا نتعامل مع جماعات بدويـــة صغيرة ومسالمة. في الحقيقة أننا نتعامل مع عدو جيد التـــنظيم. لـــو كنت سافرت مع قوة الحملة، لكنت اطلعت على ذلك بنفسك .

أولـــئك الســـجناء المثيرون للشفقة والذين قمت بجلبهم إلى هـــنا- هل لأنهم العدو الذى يتوجب على الخوف منه؟ أهذا ما تقولـــه؟ إنك العدو، أيها العميد! لم أعد قادرا على كبت ما فى نفسى بعد الآن.

أدق عـــلى المنضـــدة بقبضتى. أنت العدو، أنت من أضرم الحرب، وأنت الذى أعطيتهم كل الشهداء الذين يحتاجونهم – لم يـــبدأ الأمر الآن ولكن قبل عام مضى عندما اقترفت هنا أول أعمالك البربرية القذرة – سيؤيدنى التاريخ فى ذلك .

هراء – لن يكون هناك أى تاريخ، القضية تافهة جداً . يبدو غير متأثر، ولكننى واثق من أننى قد جعلته يهتز .

أنك دعر تمارس التعذيب. إنك تستحق الشنق .

يدمدم، هكذا يتحدث القاضى، الرجل العادل الوحى .

يحدق أحدنا فى عينى الآخر .

يقول، مرتباً الأوراق أمامه: الآن، أود الحصول على بيان بكل ما جرى بينك وبين البرابرة فى زيارتك الأخيرة لهم غير المصرح بها .

أنا أرفض .

حســـن جدا . مقابلتنا قد انتهت . يستدير نحو مساعده، إنك المسؤول عنه. يقف، يسير خارجاً.

أواجه ضابط الصف.

* * *

الجـرح الـذى على خدى، لم يغسل أبداً ولم يضمد، وهو مـتورم وملـتهب. تشكلت عليه قشرة مثل يرقة سمينة. عينى اليسرى مجرد شق طويل، أنفى كتلة مختلجة لا شكل له. يتحتم على أن أتنفس عبر فمى.

أسـتلقى أنـا فى مكان تفوح منه رائحة قىء قوية ومزمنة، مشغول البال بفكرة الماء. لم أجد شيئاً أشربه منذ يومين.

لا يوجد ما يشرف فى معاناتى. القليل مما أسميه معاناة هو الألم المطرد. ما أرغمت على تحمله خاضع لأهم الاحتياجات الأوليـة لجسدى: أن أشرب، أن أفرج عنه، أن أجد الوضعية الأفضـل مـن أجل تفادى الألم. عندما أعادنى ضابط الصف ماندل ومساعده إلى هنا للمرة الأولى، وأضاء المصباح وأغلق الـباب، أذهل لمقدار الألم الذى سيكون فى قدرة رجل عجوز سمين أن يتحمله باسم أفكاره المنحرفة حول الكيفية التى يتحتم على إمبراطورية أن تدير نفسها. ولكن القائمين على تعذيبى لم يكن يعنيهم درجات الألم. كل ما كان يهمهم هو أن يبرهنوا لى ماذا يعنى العيش فى جسد، مثل جثة، جسد لا يمكنه أن يضمر أفكـاراً عـن العدالـة إلا فى دوام كونه سالما ومعافى، وهو سرعان ما سينساها عندما يقبض بقوة على رأسه وتدفع أنبوبة إلى بـلعومه ويصب فيها مقدار ثمن غالون من ماء مملح حتى يبدأ بالسعال ويحاول التقيؤ، ويضرب بعصا ويفرغ نفسه. إنهم

لــم يجيئوا لإرغامى على قول حقيقة ما قلته للبرابرة وما قاله الـــبرابرة لى. ولهذا لم تتوفر لى فرصة لإلقاء الكلمات الرنانة الجاهــزة فى وجوههم. جاءوا إلى زنزانتى ليظهروا لى معنى الإنسانية، وفى خلال ساعة من الزمن أظهروا لى الكثير منه.

* * *

وليســت هى مسألة من الذى يتحمل أطول. اعتدت أن أفكر فى حالـــتى، إنهم يجلسون فى غرفة أخرى يبحثون فى أمرى. وهــم يقولـــون بعضهم لبعض ، كم سيدوم الأمر قبل أن يعفر وجهه بالتراب؟ سنعود إليه فى غضون ساعة أخرى ونرى .

ولكن الأمر ليس كذلك. إنهم لا يملكون نظاماً مدروسا للألم والحــرمان الذى يخضعوننى له. أعيش يومين بلا طعام وماء. فى اليــوم الثالث أطعمت. أنا آسف . يقول الرجل الذى يجلب طعامى، لقد نسينا . الأمر ليس حقداً ذلك الذى جعلهم ينسون. القــائمون على تعذيبى لهم حياتهم الخاصة التى يعيشونها. أنا لســت مركز كون لهم. من المحتمل أن مساعد ماندل، يمضى أيامه فى عد الأكياس فى مخزن التموين أو يكشف على أعمال الحفــر الهندسية، متذمراً فى نفسه من حرارة الجو. أما مانديل نفســه، فأنـــا واثق من أنه يمضى وقتاً أكثر فى تلميع شريطه المعــدنى وأزراره من ذلك الوقت الذى ينفقه عليه وهو عندما يحــلو له المزاج يأتى ويلقننى درساً فى الإنسانية. كم من زمن

أحــتاج كى أصــمد أمام خبطاتهم العشواء؟ وماذا سيحدث إن استسلمت، بكيت، تذللت، بينما يستمر فى الوقت نفسه هجومهم على؟

ينادوننى إلى الساحة. أقف أمامهم خافياً عريى، مدارياً يدى المــتورمة. دب عجــوز دُجّــن بفعل هجمات متواصلة. يقول مانديل: اركض . أركض حول الساحة تحت الشمس الملتهبة. عندما أرتخى يضربنى بخيزرانته على عجزى فأسرع راكضاً. يتخــلى الجــنود عن قيلولتهم ويرقبون من مواضعهم الضليلة، الخادمــات المكــلفات بغسل الأوانى يستندن إلى باب المطبخ، أطفال يحدقون من خلال قضبان البوابة. لا أقدر! ألهث بشدة. قلبى! أتوقف، أنكس رأسى، أنشب أظافرى فى صدرى. ينتظر كل واحد بصبر حتى أسترد أنفاسى. ثم تنخسنى العصا وأستمر فى السير متثاقلاً، لا تزيد خطوتى عن سير رجل.

أو بطريقة أخرى أقوم بأعمال معينة لهم. يقومون بمد حبل بعــلو ركبة وأقفز أنا من فوقه إلى الأمام وإلى الخلف. ينادون على الحفيد الصغير للطباخة ليحضر ويعطونه طرفاً من الحبل ليمسك به. احتفظ به ثابتاً . يقولون، لا نريده أن يعثر. يمسك الولــد بطــرف من الحبل بكلتا يديه، مركزا على هذا الواجب المهم، منتظراً إياى أن أقفز. أتوقف فجأة. رأس الخيزرانة تجد طــريقها إلى مــا بيــن ردفى وتنخس. يدمدم مانديل، اقفز .

اركــض، أطفر قفزة صغيرة، أتخبط على الحبل، وأقف هناك. أشم رائحة غائط. غير مسموح لي بالاغتسال. يلاحقني الذباب في كـل مكــان، محوماً حول الورم المثير للشهية فوق خدي، تحــط إن وقفــت ثابتاً دقيقة واحدة. الحركة المحلقة ليدي أمام وجهي لمطاردتهم قد غدت آلية مثل ضربة ذيل البقرة الخاطفة.

يقول مانديل للولد: قل له إن عليه أن يقفز أفضل في المرة القادمـــة . يبتسم الولد ويتطلع بعيداً. أجلس في التراب منتظراً العمــل التالي. يقول للولد، هل تعرف كيف تطفر الحبل؟ أعط الحبل للرجل واطلب منه أن يعلمك كيف تطفر . واطفر.

المـــرة الأولى كلفتني عذابات من خزي عندما اضطررت إلى الخروج من خلوتي والوقوف عاريا أمام هؤلاء التافهين أو أهــز جسدي هنا وهناك من أجل إمتاعهم. قد تجاوزت الخزي الآن. يــتوجه تفكيــري تمامـــاً لخطر اللحظة التي تتبلل فيها ركبـــتاي أو أحس أن قلبي يتشبث بي كسرطان، وعندئذ يكون عـــلي أن أقــف ساكناً، وفي كل مرة أكتشف بدهشة أنني بعد اســتراحة قصـــيرة، بعـــد تطـــبيق عملي للقليل من الألم، أنه بالإمكـــان أن أدفـــع إلى الـــتحرك، القفز، الطفر، أو الحبو أو الـــركض بصورة أسرع. هل هناك مرحلة ما سأستلقي عندها أرضاً وأقول، اقتلوني – أنا أفضل الموت على الاستمرار في الحيـــاة؟ أعـــتقد أحيانا أنني أقترب من تلك المرحلة، ولكنني أكون على خطأ باستمرار.

ليس هناك من عزاء مهيب فى أى من هذه. وعندما ُستيقظ متأوهاً فى لليل ذلك لأننى أحيا فى أحلامى ثانية أحقر حالات الخـــزى. ليست هناك من طريقة للموت مباحة لى، كما يبدو، غير ُن أموت مثل كلب فى زاوية ما.

* * *

بعدئـــذ وفى أحـــد الأيـــام أطلقوا الباب مفتوحاً، وأخطو أنا خارجـــاً لا لـــكى أواجه رجلين بل فرقة واقفة فى حالة انتباه. يقول مانديل، الآن ، يناولنى ثوباً قطنياً نسائياً، البس هذا .

لماذا؟

حسن جداً، إن أردت الذهاب عارياً، اذهب عارياً .

أمرر الثوب من فرق رأسى. انه يصل إلى منتصف فخذى. ألمح نظرات خاطفة من خادمتين شابتين وهما تسرعان السير عـــائدتين إلى المطبخ وتذوبا ن قهقهة. رسغاى مدفوعان نحو ظهـــرى ومقيـــدان، يهمس مانديل فى أذنى لقد آن الأوان أيها الحـــاكم، تصرف كأفضل ما يكون كرجل . أستطيع شم رائحة الكحول فى أنفاسه، بكل تأكيد.

يسيرون بى إلى خارج الساحة. وهناك تحت أشجار التوت حيث الأرض أرجوانية من أثر عصير ثمار التوت المتساقطة، يقـــبع مجموعـــة مـــن الأشخاص فى الانتظار. بعض الأطفال

يتسـلقون فـروع الأشـجار. عندما أقترب يخيم الصمت على الجميع.

يرخى جندى طرف حبل جديد من القنب أبيض اللون، يقذفه إلى أعـلى، يلتقطه واحد من الأطفال من على الشجرة، يعقده على غصن، ثم يسقطه تحت.

أعـرف أن الأمر مجرد خدعة، وسيلة جديدة لتمضية وقت الأصـيل لـرجال مـلوا رسائل التعذيب القديمة، مع ذلك فإن أحشائى امتلأت بولاً. أهمس، أين العميد؟ لا أحد يبالى.

يقـول مانديل، هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما تتمناه؟ نحن نمنحك هذه الفرصة .

أنظـر فى عيـنيه الصـافيتين الزرقاوين وكأنهما عدستان بـلورتان شفافتان قد انزلقتا فوق كرتيهما. يتطلع فىّ بالمقابل، ليست لدىّ فكرة عما يدبره. مفكراً فيه رددت مع نفسى كلمتى عـذاب... معـذب، ولكنهما كلمتان غريبتان، وكلما رددتهما أكثر، تزدادان غرابة حتى تستقران مثل حجرتين على لسانى. قـد يكون هذا الرجل والرجل الآخر الذى يجلبه معه لمساعدته فى عملـه وعميدهما، من المعذبين، وربما أن هذا هو عنوان وظيفـتهم المكتوبة على ثلاث بطاقات فى مكتب دفع النقود فى مكان ما فى العاصمة، مع أن الأمر الأكثر احتمالاً أن البطاقات تصـفهم بضباط أمن. مع ذلك، عندما أتطلع إليه أرى ببساطة

عيــنين زرقاوين صافيتين، الملامح الصارمة الجذابة من غير ريب، الأسنان أطول بعض الشيء من المعتاد فى حين تتراجع اللــثة. إنه يتعامل مع نفسى. يطوى فى كل يوم بشرفى جانباً ويعــرض روحى للنور، من المحتمل أنه قد شاهد عدداً كبيراً مــن النفوس عبر مسيرة حياته العملية، ولكن يبدو أن الاهتمام بالــنفوس لم تترك أثراً اكثر مما يتركه الاهتمام بالقلوب على الجراح.

أقول، إننى أحاول جاهداً أن أفهم مشاعرك تجاهى . لا أقدر أن أمنع نفسى من التمتمة، صوتى غير ثابت، أحس بالخوف، والعــرق يتســاقط منى. إنها أكثر بدرجات من كونها فرصة كــبيرة أن أخاطب هؤلاء الناس الذين ليس لدىّ ما أقوله لهم، هــل لى أن أطلب كلمات قليلة منك وسأضعها موضع التقدير. مــن أجــل فهــم الدافع الذى جعلك تكرس نفسك لهذا العمل. وأستطيع أن أسمع ما تحسه تجاهى، أنا من آذيتنى كثيراً ويبدو الآن أنك عازم على قتلى.

أتفــرس باندهــال فى هذا القول المنمق بينما ينسل خارجاً منى. هل أنا مجنون إلى حد كاف لمحاولتى استفزازه؟

يقول، هل ترى هذه اليد؟ يمد يده إلى مسافة انج واحد عن وجهى، عندما كنت أصغر سنا ،– يثنى الأصابع – اعتدت أن أكــون قادراً على دس إصبعى هذا – يمد إصبع السبابة– عبر

غـلاف يقطيـنة . يضــع طرف إصبعه على جبهتى ويضغط عليها، أتراجع خطوة إلى الخلف.

بـل إنهـم يحملون غطاء رأس جاهز من أجلى. كيس ملح يدخـلون رأســى به ويشدونه حول رقبتى بحبل. عبر خيوط الكيـس المشـبكة، أراقـبهم وهم يجلبون السلم ويسندونه إلى الغصن. أقاد أنا إليه، توضع قدمى على الدرجة السفلى وتستقر الأنشوطة تحت أذنى. يقول مانديل، الآن اصعد السلم .

أديـر رأســى وأرى شكلين قاتمين يمسكان بطرف الحبل. أقـول، لا أقـدر عـلى الصـعود ويداى موثقتان . يدق قلبى كمطرقة. يقول، اصعد ، مثبتاً إياى بذراعه. يشتد الحبل. يأمر، اقبض عليه بشدة .

أصــعد، يصعد خلفى، يوجهنى. أعد عشر درجات. أوراق الشجر تحتك بوجهى. أتوقف. يقبض على يدى بقوة أشد، يقول هـل تظننا نلعب؟ يتحدث بغضب عبر أسنان مطبقة بشكل لا أفهمه. هل تعتقد أننى لا أعنى ما أقول؟

العرق يلسع عينىّ فى داخل الكيس. أقول، لا ، أنا لا أعتقد أنـك تلعب . أعرف ان الحبل مادام مشدوداً فانهم يلعبون. إن ارتخى الحبل وانزلقت، سأموت.

ماذا تريد أن تقول لى الآن؟

أريــد أن أقول إنه لا شيء قد جرى بيني وبين البرابرة له علاقــة بمســائل عسكرية: كانت مسألة خاصة. ذهبت لإعادة البنت إلى أهلها. لا لسبب آخر .

أهذا كل ما تريد أن تقوله لي؟

أريد أن أقول إنه ما من فرد يستحق الموت . وأنا في ثوبي النســائي وكيسي الغريبين وغثيان الجبن في فمي، أقول: أريد أن أعيش. مثل أي فرد آخر يريد أن يعيش. أن أعيش وأعيش وأعيش. لا يهم كيف .

ذلــك ليس بكاف . يطلق ذراعي حراً. أترنح على درجتي العاشــرة، يحافظ الحبل على توازني. يقول، هل ترى؟ يعود نازلاً السلم، تاركاً إياي وحدي.

إنها ليست حبات عرق بل دموع.

هــناك حفيف في أوراق الشجر القريبة مني. صوت طفل: هل بإمكانك الرؤية، يا عم؟

لا".

أحدهم يصيح من تحت، ها، قرود، انزلوا! .

عــبر الحــبل المشــدود بإحكام أحس بالاهتزاز الناتج عن حركتهم بين الأغصان.

أقـف، لهذا السبب، مدة طويلة، محافظاً بعناية على توازنى فوق السلم. متحسساً رفاهية الخشب فى انحناءة أخمص قدمى، محاولاً أن لا أتمايل، محافظاً على ثبات توتر الحبل بأقصى ما يمكن.

كم من الوقت يحتاجه حشد من العاطلين كى يشبعوا رغباتهم بمراقـبة رجل واقف على سلم! سوف أقف أنا هنا حتى يسقط كل اللحم عن عظامى، عبر عواصف ووابل من برد وفيضان، كى أحيا.

ولكن الحبل يشتد الآن. بل إننى أسمعه يقشط لحاء الشجرة وهو يمر عليه، حتى يتطلب الأمر منى أن أمط جسدى، متجنباً أن يشنقنى.

هـذه ليسـت مباراة فى الصبر، إذن: ان كانت عامة الناس غير مقتنعة تغير القوانين. ولكن ما فائدة إلقاء اللوم على عامة الناس؟ كبش الفداء سمى، واحتفال أعلن، القوانين غلقت: من ذا الـذى يحتشـد للتفرج على الحفلة؟ على ماذا أعترض أنا فى مشـاهد التحقير والمعاناة والموت التى يقوم بها نظامنا الجديد غير افتقارها للياقة؟ ما الذى سيتذكره الناس عن إدارتى فضلاً عـن نقـل المجازر من ساحة السوق إلى ضواحى البلدة قبل عشـرين عامـا لضمان مستلزمات العيش اللائق؟ أحاول أن أستنجد بشىء، بكلمة الخوف المصمت، بصرخة، ولكن الحبل

مشـــدود الآن بقوة شديدة إلى الحد الذى أحس فيه بأننى أختنق، لا أقـــدر عـــلى الكـــلام. الـــدم يدق فى أذنى، أشعر أننى أفقد السـيطرة عـــلى أطــراف أصابع قدمى. أتأرجح بسهولة فى الهـــواء، أتخـــبط بالسلم، أضرب بقدمى. صوت طبل فى أذنى يتباطأ ويعلو حتى يصبح هو الصوت الوحيد الذى أسمعه.

إنـــنى واقـــف أمـــام الرجل العجوز، أغمض عينى نصف إغماضة اتقاء الريح، منتظراً إياه أن يتحدث. البندقية القديمة ما تزال مستقرة بين أذنى الحصان، ولكنها غير موجهة نحوى. أنا واع لمدى اتساع السماء من حولى وكذلك الصحراء.

أرقب شفتيه. سيتحدث الآن فى أى لحظة: يجب أن أصغى بانتباه كى لا يفوتنى أى جزء من الكلام، ولكى بالتالى، أردده مـــع نفســـى، متمعناً فيه، متمكناً من اكتشاف جواب لسؤال قد طار فى هذه اللحظة مثل عصفور من ذاكرتى.

بمقدورى أن أرى كل شعرة فى عرف الحصان، كل تجعيدة فى وجه الرجل، كل صخرة وكل أخدود فى سفح التل.

الفـــتاة بضـــفيرتيها الســـوداوين المعلقتين على كتفها على الطريقة البربرية، تجثم على حصانها خلفه، رأسها منحن، إنها أيضاً تنتظر أن يتكلم.

أتـــنهد. كـــم هو مؤسف، أفكر. أصبح الأمر متأخرا جداً الآن.

إننى أتأرجح حراً طليقاً. يرفع النسيم ثوبى ويتلاعب بجسدى العارى. أنا مسترخ، عائم، فى ثياب امرأة.

كيف يمكن أن تكون لمسة قدمى على الأرض، على الرغم من كونهما مخدرتينِ عن كل الأحاسيس. أبسط نفسى باعتناء بكامل طولى، خفيفاً مثل ورقة شجرة. مهما كان ذلك الشىء الذى قيد رأسى بقوة، فإن قبضته تتراخى. يتلاشى من داخلى حاجز ذو قضبان حديدية ثقيل.

أتنفس. كل شىء على ما يرام.

ثم ينزع الغطاء. الشمس تبهرِ عينى، أطرح على قدمى، يدور كل شىء أمامى. أمضى فارغاً من أى معنى.

كلمة طيران تهمس نفسها فى مكان ما عند حافة وعين. نعم إن الأمر صحيح. لقد كنت أطير.

أنا أتطلع فى عينى مانديل الزرقاوين، تتحرك شفتاه ولكننى لا أسمع كلمة واحدة. أهز رأسى، وأجد أننى ما إن برزت إلى الوجود وانطلقت حتى وجدت أننى غير قادر على التوقف.

يقول، كنت أقول، سنريك الآن شكلاً آخر للطيران'.

يقول أحدهم، إنه غير قادر على سماعك . يقول مانديل، إنه يستطيع أن يسمع . يسحب الأنشوطة عن رقبتى ويعقدها حول الحبل الذى يربط رسغى. اقلعه من هنا .

إن اســتطعت أن أحتفظ بذراعى متصلبتين، إن كنت بهلوانا بدجــة مناسبة تسمح لى أن أدير قدماً إلى أعلى وأعقفها حول الحبل، فسأكون قادراً على التعلق رأساً على عقب من أجل أن لا أشــعر بــالأذى: كــانت تلك فكرتى الأخيرة قبل أن يبدأوا بــرفعى. ولكننى واهن القوى مثل طفل، ترتفع ذراعاى بغير عــلمى، وعــندما تترك قدماى الأرض أحس بتمزق شديد فى كــتفى وكأنمــا صفائح كاملة من عضلات تتخلع. يصدر من حنجرتى أول حوار حزين جاف، كانهمار الحصى. ينزل ولدان صغيران من الشجرة، ويدًا بيد، دون أن ينظرا خلفا، يهرولان بعيــداً. أجأر مرة أخرى وأخرى، ليس بمقدروى أن أفعل شيئاً كى أوقفــه، فالصــوت صادر عن جسد يعرف نفسه متضرراً فــوق احــتمال ترميم ويزأر رعبه. لا أستطيع أو أوقف نفسى حــتى لو سمعنى كافة أطفال البلدة. دعونا نتضرع فقط أن لا يقوموا بتقليد ألعاب من هم أكبر منهم سنة، وإلا فسوف تحدث فى الغــد كارثة من جثث صغيرة متدلية من الأشجار. أحدهم يقــوم بدفعى وأبدأ فى الطفر خلفاً وأماماً فى قوس يرتفع قدماً عن الأرض مثل فراشة كبيرة هرمة وجناحاها معقوصان معاً، تجــأر وتصــرخ. أحدهم يبدى ملاحظة، إنه ينادى أصدقاءه البرابرة، تلك هى لغة البرابرة التى تسمعها'. ضحكة تعلو.

* * *

٥

يبرز فى الليل. وقبل أن تهبط الظلمة، يتوجب إحضار آخر معـــزة إلى الداخل، تغلق البوابات، حارس يوقف عند كل فتحة ليـــنادى بالوقت. طوال الليل. كما يقال، يجوس البرابرة حول المكـــان وقد صمموا على القتل أو السلب. أطفال فى أحلامهم يـــرون مصـــاريع النوافذ تنشق والوجه البربرى يطل بنظرة خبيثة. البرابرة هنا! يصرخ الأطفال ولا يمكن إعادة الطمأنينة إليهـــم. ملابس تختفى من على حِبال الغسيل، الطعام منٍ حيث يحفـــظ، مهـــا كـــان القفل متيناً. البرابرة قد حفروا نفقاً تحت الجدران، يقول الناس، انهم يجيئون ويروحون حسبما يشاءون، يـــأخذون ما يرغبون فيه، لا أحد آمن بعد اليوم. الفلاحونٍ ما يـــزالون يحرثون الأرض، ولكنهم لا يذهبون منفردين أبداً بل فى جماعات. يعملون من دون همّة: البرابرة ينتظرون فقط كى ينضـــج المحصـــول، يقولون، قبل أن يُغرقوا المزارع بالمياه ثانية.

لمـــاذا لا يوقف الجيش البرابرةٍ؟ تتذمر الناس. الحياة على الحـــدود أصبحت صعبة جداً. يتحدثون عن العودة إلى الوطن القديـــم ولكـــنهم يتذكرون بعدئذ أن الطرق لم تعد سليمة بسبب الـــبرابرة. الشاى والسكر لم يعد من الممكن شراؤهما من فوق

طاولـــة العـــرض مباشرة، ذلك لأن أصحاب المتاجر أصبحوا يخزنون بضائعهم. أولئك الذى يأكلون جيداً يأكلون خلف أبواب مغلقة، خوفاً من إثارة حسد جيرانهم.

قـــبل ثلاثة أسابيع اغتصبت طفلة. لم يفتقدها أصدقاؤها فى أثـــناء لعـــبهم فى مجارى الرى، إلا بعد أن عادت إليهم وهى تنزف غير قادرة على الكلام. استلقت عدة أيام فى منزل ذويها محدقـــة فى الســـقف. لم يقنعها أى شيء لحثها على أن تروى قصـــتها. اعـــتادت عندما يطفأ المصباح أن تبدأ بالبكاء. يدعى أصدقاؤها أن البرابرة فعلوا ذلك. لقد رأوه يركض مبتعداً نحو دغل القصب. لقد تعرفوا عليه بربرياً بسبب قبحه. الآن أصبح ممـــنوعاً عـــلى الأطفال اللعب خارج البوابات، والمزارعون يحملون هراوات وحراباً فى أثناء ذهابهم إلى الحقول.

كـــلما تصـــاعدت المشاعر ضد البرابرة، انزوى أكثر فى زاويتى، آملاً ألا أذكر.

لقد مضى زمن طويل منذ أن غادرت القوة العسكرية للحملة الـــثانية بشـــجاعة فائقة مع أعلامها وأبواقها ودروعها اللامعة وخيولها المتوثبة لدفع البرابرة عن الوادى وتلقينهم درساً سوف لـــن ينســـاه أطفالهم وأحفادهم مطلقاً. ومنذ ذلك الحين لم ترد رسالة ولم يأت رسول، ولم يتم أى اتصال. بهجة أزمنة، حينما كـــان مـــن المعـــتاد أن تقام استعراضات عسكرية يومية فى

الســاحة، عروض للفروسية، معارض أسلحة، قد مضى زمن بعيد على اختفائها. بدلاً منها يمتلئ الجو بإشاعات مثيرة للقلق. يقــول بعضــهم إن ألــف ميل من الحدود بأكمله قد انفجر فى نزاع، وإن برابرة الشمال قد وحدت قواتها مع برابرة الجنوب وإن جيــش الإمــبراطورية لــم يبسط نفوذه إلا على مساحات ضــئيلة، وإنه فى يوم من هذه الأيام سيرغم على التخلى عن الدفــاع ضــد نقــاط الحدود البعيدة مثل هذه، من أجل تركيز مواردهــا لحمايــة قلب الوطن. يقول آخرون إننا لا نتلقى أى أخبار عن الحرب لا لشيء إلا لأن الجنود قد توغلوا عميقاً فى مقاطعــة العدو وأنهم منهمكون جداً فى توجيه ضربات ثقيلة، على أن يبعثوا رسولا. وسريعاً، يقولون، فى الوقت الأقل توقعاً بالنســبة لنا، سيعود رجالنا سيراً إلينا مرهقين ولكن منتصرون وأننا سوف نحظى بالسلام فى عصرنا.

مــن ضمن الحماية الصغيرة التى تركت فى الخلف، هناك أعــداد من المخمورين أكثر مما عرفت قط فى السابق، وأكثر عجــرفة نحــو ســكان البلدة. حوادث عديدة وقعت ذهب فيها الجنود إلى المخازن، حاملين كل ما يريدون وغادروا دون أى يدفعوا الثمن. ما فائدة وضع أجهزة الإنذار بالخطر عندما يكون المجــرمون والحــرس المــدنى هم الأشخاص أنفسهم؟ يتظلم أصــحاب المخــازن لمــانديل، يتولى المسؤولية فى ظل نظام الطــوارئ فى الوقــت الذى ذهب فيه جول مع الجيش. يعطى

مانديل الوعود ولكنه لا يفعل شيئاً.ولماذا يفعل؟ إن كل ما يهمه أن عليه أن يبقى محبوباً من قبل رجاله. برغم استعراض لجنة الأمـــن الأهـــلية فوق الاستحكامات والنظرة الشاملة التى تلقى أســـبوعياً على طول شاطئ البحيرة (للتربص بالبرابرة، على الرغم من عدم القبض قط على واحد منهم)، النظام مهمل.

فى الوقـــت نفســـه، أنـــا المهرج العجوز الذى فقد آخر أثر للســـلطة فى اليوم الذى أمضاه معلقاً من شجرة فى ثياب امرأة يصـــيح فى طلب النجدة، الكائن الفاحش البذىء الذى بقى يلعق طعامـــه أسبوعياً من على رصيف الشوارع مثل كلب لأنه فقد اســـتخدام يديـــه، أنا لم أعد سجيناً. أنا فى زاوية ما من ساحة الثكـــنات، أزحـــف هنا وهناك بثوبى الفضفاض القذر وعندما ترتفع قبضة نحوى أنكمش مرتعداً. أحيا مثل بهيمة عند الباب الخلفى يحس بجوع شديد، ربما أبقى على قيد الحياة كدليل على الحيوان الكامن فى داخل كل محب للبرابرة. أعرف أننى غير آمن. اقدر أن أتحسس أحياناً ثقل نظرات الحنق تستقر على، لا أرفع بصرى، أعرف أنه بالنسبة لبعضهم فإن الإغراء لابد أن يكون قوياً لتنظيف الساحة بإطلاق رصاصة عبر جمجمتى من نافذة فى طابق علوى.

لقـــد حـــدث تدفـــق مـــن اللاجئين إلى البلدة، صيادون من المســـتوطنات الصـــغيرة المتـــناثرة على طول النهر وشاطئ

البحيرة الشمالى، يتحدثون بلغة لا يفهمها أحد، حاملين حاجياتهم المـــنزلية عــلى ظهورهم فضلاً عن كلابهم الهزيلة وأطفالهم المترنحون يدبون فى تثاقل خلفهم. عندما جاءوا للمرة الأولى، احتشـــد الناس حولهم، هل كان البرابرة هم الذين قاموا بطردكم إلى هنا؟ سألوا بوجوه ضارية، يشدون أقواساً وهمية.

لـــم يســـأل أحـــد ما عن الجندية الإمبريالية أو عن حرائق الأدغال التى يضرمونها.

كان هناك فى بادئ الأمر تعاطف مع هؤلاء البدائيين، لناس جلبت لهم الطعام والملابس القديمة، حتى بدأوا ينصبون أسقف القـــش الـــتى يلتجـــئون تحتها تجاه جدرانهم فى جانب الساحة بالقرب من أشجار الجوز، وامتلك أطفالهم الجرأة الكافية للتسلل إلى مطـــابخ والســـرقة منها، وفى ليلة ما قام قطيع من كلابهم بـــالدخول إلى زريـــبة أغنام ومزقوا رقاب دزينة من النعاج. تحولت عندئذ المشاعر ضدهم. اتخذ الجنود موقفاً، أطلقوا النار عـــلى كلابهم على مرأى منهم وأيضاً فى صباح يوم من الأيام وعندما كان الرجال ما يزالون عند البحيرة، مزقوا كامل صف ملاجئهم. اختبأت جماعة الصيادين فى أدغال القصب عدة أيام. ثم واحداً بعد واحد بدأت أسقف القش العائدة إليهم تظهر مجدداً، فى خـــارج البـــلدة هذه المرة تحت الجدار الشمالى. لقد سمح لأكواخهـــم أن تقـــام ولكـــن الحراس عند البوابات تلقوا أوامر

لمنعهم من الدخول. الآن وبعد أن أصبح القانون مرتخياً، أصبح بالإمكــان رؤيتهم فى الصباح وهم ينادون على بضاعتهم من السمك المنظم فى خيوط متنقلين من باب إلى باب كل صباح. لأنهــم لا يمتلكون خبرة بالنقود، بدأوا يتعرضون للخداع بشكل فظيــع، وهــم عــلى استعداد للتخلى عن كل شيء مقابل ملء كستبان من شراب الرّوم.

إنهــم أناس نحيلون ذوو عظام بارزة، وصدور أشبه بصدر الحمام. نساؤهم يظهرن فى حالة حمل مستمرة، أطفالهم معوقو النمو، فى قلة من فتياتهم آثار جمال عيون شفافة، أما فى البقية فــلا أرى غيــر الجهل، المكر، والقذارة. وبعد ذلك، ما الذى يرونه هم فى، إن وقعت على أعينهم يوما ما؟ بهيمة تتطلع من خــلف بوابــة إلى الخارج. الجانب السفلى القذر لهذه الواحات الجميلة حيث وجدوا أماناً متزعزعاً.

فى يــوم ما، يسقط ظل على جسمى حيث أغفو فى الساحة، قدم تخزنى، أرفع رأسى وأتطلع فى عينى مانديل الزرقاوين.

يقول، هل نقوم بإطعامك بشكل جيد. هل بدأ وزنك يزداد من جديد؟'

أومئ برأسى، جالساً عند قدميه.

لأننا لا نقدر على إطعامك إلى الأبد .

يمتد بيننا صمت طويل يتأمل فيه أحدنا الآخر.

متى ستبدأ العمل من أجل كسب قوت يومك؟

إنــنى ســجين فى انتظار محاكمة. لا يعمل السجناء الذين ينــتظرون محاكمــة من أجل كسب أرزاقهم. هذا هو القانون. تصرف نفقاتهم من خزينة الدولة .

ولكنك لست بسجين، أنت حر فى الذهاب إلى حيث تشاء .

ينــتظرنى كى ألــتقط طعــم العرض الذى قدمه لى بشكل أخرق. لا أقول شيئاً. يمضى فى كلامه.

كيــف تكون سجيناً فى حين أننا لا نمتلك محضراً لك؟ هل تعــتقد أننا لا نقوم بمسك سجلات؟ ليس لدينا سجل خاص بك. يجب أن تكون رجلاً حراً.

أنهــض وأتــبعه عبر الساحة نحو البوابة. يناوله الحارس المفتاح هل ترى؟ البوابة مفتوحة .

أتــردد قبل أن أجتازها. هناك شىء ما أريد معرفته. أتطلع إلى وجه مانديل، فى العينين الصافيتين، نافذتى نفسه، إلى الفم الــذى مــن خلاله تعبر روحه عن حقيقتها. أقول، هل تمنحنى دقيقــة من وقتك؟ نقف عند البوابة، والحارس واقف فى خلفية الســاحة مــتظاهراً بأنــه لا يســمع. أقول،"لم أعد شاباً على الإطــلاق، وأى مستقبل كان لى فى هذا المكان قد دمر. أومئ نحــو أطــراف الســاحة، نحو الغبار الذى يندفع أمام الرياح

الساخنة لأواخر الصيف حاملاً الآفات والأوبئة. فضلاً عن أننى قـد مـت ميتة واحدة قبل الآن، على تلك الشجرة، ولكنك فقط قررتَ أن تبقى على حياتى. ولهذا السبب، هناك شيء ما أريد معرفـته قـبل ذهابى. إن لم يكن الوقت قد أصبح جد متأخراً، والبرابرة عند البوابة. أحس بابتسامة ماكرة ضئيلة تمس شفتى بـرقة، لا أسـتطيع تفاديهـا. ألـقي نظـرة خاطفـة عـلى السماء.'أعذرنى أن كان السؤال وقحاً، ولكننى أريد أن أطرحه عليك: كيف تجد الأمر ممكناً بعد أن كنت... تعمل مع الناس؟ ذلـك سؤال سألت نفسى عنه على الدوام حول جلادين وأناس آخـرين مثلهم. أنتظر: أصغ إلى دقيقة أخرى، أننى صادق فى ما أقول، لقد تطلب الأمر منى للوصول إلى هذا الشيء الكثير، بمـا أننى كنت خائفاً منك، لم تكن هناك ضرورة لإخبارك به. أنا متأكد من أنك تعى المسألة. هل تجد سهولة فى تناول الطعام بعدئـذ؟ لقـد ظننت أن المرء سوف يكون فى حاجة إلى غسل يديه. ولكن أى غسل اعتيادى لن يكون كافياً، المرء يحتاج إلى تدخـل كهـنوتى، إلى شعائر تطهير، ألا تعتقد ذلك؟ شكل من أشكال تطهير الروح أيضاً – تلك هى الكيفية التى ظننتها. وإلا كيف يكون بالمستطاع العودة إلى حياة يومية – الجلوس لتناول الطعام، مثلاً، وتقاسم الخبز مع أفراد عائلته أو مع رفاقه؟

يـرد ولكـن بيـد متمهلة أشبه بمخلب، أنجح فى الإمساك بذراعـه. أقول، لا تخطئ فهمى، إننى لا ألومك أو أتهمك، لقد

تجاوزت ذلك منذ زمن بعيد. تذكر، أننى أيضاً قد كرست حياة للقانون، أعرف معاملاته، أعرف أن عوامله هى فى الغالب مبهمة. إننى أحاول أن أفهم فحسب. أحاول أن أفهم النطاق الذى تحيا ضمنه. إننى أحاول كيف تتنفس أنت وتأكل وتعيش من يوم إلى يوم. ولكننى لا أستطيع! ذلك ما يقلقنى! لو كنت هو، أقول هذا لنفسى، فستحس يداى بأنهما قذرتان جداً وأنهما ستسببان لى غصة

يسحب نفسه منى طليقاً، ويضربنى بقسوة فى صدرى مما يجعلنى ألهث وأندفع إلى الخلف. يصيح، أنت يا ابن الزنا! أنت أيها المجنون الداعر! اخرج من هنا! اذهب ومت فى مكان ما!

ومتى ستقدم على تقديمى للمحاكمة؟ أصبح نحو ظهره المتراجع. لا يبالى مطلقاً.

لا يوجد أى مكان للاختفاء. ولماذا يجب أن أفعل؟ أكون من الفجر وحتى الغسق تحت مرمى الأنظار فى الساحة، متجولاً حول الإسطبلات أو جالساً تحت ظل الأشجار. وتدريجياً، ومع انتشار الكلام فى الجوار من أن القاضى الهرم قد امتص محنته واجتازها، تكف الناس عن الصمت أو إدارة الظهر عندما أصبح قريباً. أكتشف أننى لست بدون أصدقاء، على الأخص بين النساء، اللواتى يبدين توقهن لسماع وجهة نظرى فى القصة. متجولاً فى الشوارع، أمر بالزوجة الممتلئة الجسد

لأميـــن الإمـــدادات والـــتموين فى الجيش، وهى تعلق ملابس الغسيل. نتبادل التحيات، تقول، كيف حالك، سيدى؟ سمعنا أنك قد اجتزت زمناً صعباً للغاية. تبرق عيناها مع حذر شديد. ألا تدخل لتناول قدحاً من الشاى؟ .

وهكذا نجلس معاً عند مائدة المطبخ، ونقوم بإرسال الأطفال ليلعبوا فى الخارج. وبينما أحتسى الشاى وآكل بمثابرة من إناء فيه نوع من البسكويت اللذيذ من دقيق الشوفان، تبدأ هى بأولى الخطـــوات في لعـــبة الطـــرق الملتوية للسؤال والجواب؟لقد اخـــتفيت زمناً طويلاً، تساءلنا فى شك إن كنت ستعود يوماً... وفضـــلاً عـــن كل ذلك العناء الذى تعرضت له! كم قد تغيرت الأمـــور! لم يكن شيء من هذه الفوضى عندما كنت مسؤولا. كل هؤلاء الغرباء من العاصمة، يفسدون الأمور! أتسلم دورى، أتنهد: نعم، إنهم لا يعرفون كيف تدير الأمور فى الأقاليم، أليس كذلك! هل يعرفون: كل هذا العناء من أجل فتاة... التهم قطعة أخـــرى من البسكويت. أحمق فى الحب، يثير السخرية ولكنه ينال السماح فى النهاية. بالنسبة لى كان الأمر ببساطة بديهياً أن أعـــود بهـــا إلى عائلـــتها، لكـــن كيف يمكن للمرء أن يجعلهم يدركـــون ذلك؟ أتحدث بنحو غير مترابط، تستمع إلى أنصاف الحقـــائق هـــذه، تومى برأسها، ترقبنى مثل صقر، نتظاهر أن الصـــوت الـــذى نسمعه هو ليس صوت الرجل الذى تدلى من شـــجرة مســـتنجداً طالـــباً الـــرحمة بصوت عال بدرجة توقظ

المـوتى. عـلى أى حال، لنأمل أن كل ذلك قد انتهى. ما زلت أعانى من آلام – ألمس كتفى جسد المرء يشفى ببطء كلما تقدم فى السن...

وهكـذا أغـنى لفـوت يومى. وإن كنت ما أزال جائعاً فى المسـاء، إن أنـتظر عند بوابة الثكنات من أجل الصفارة التى تدعو الكلاب كى أنسل إلى الداخل بهدوء تام، فأنا أتمكن عادة أن أحصل بالتملق للخادمات على بقايا من طعام عشاء الجنود، صـحناً من الفاصوليا لباردة أو ما يكشط من القعر الدسم لقدر الحساء أو نصف رغيف من الخبز.

أو يكـون بمقـدورى فى الصـباحات السير الهوينى نحو الفندق، ومتكئاً على مصراع باب المطبخ، أستنشق كل الروائح الطيـبة، نـباتات عطرية وخميرة وبصل مفروم مقلى وسمن ضـأن مدخـن. مى الطـباخة تدهن مقلاة التحميص: أرقب أصـابعها الماهرة وهى تتغمس فى قدر شحم الخنزير ثم تطلى المقـلاة بـثلاث دوائر فى حركة سريعة. أفكر فى معجناتها، وفطيـرتها الشهيرة من لحم الخنزير المقدد والسبانخ والجبن، وأحس باللعاب ينبجس فى فمى.

تقـول، رحـل الكـثير من الناس . وهى تستدير نحو كرة العجيـن الكبيرة، لا أستطيع حتى البدء فى إخبارك. مجموعة كبيرة غادرت قبل بضعة أيام فقط. إحدى الفتيات اللواتى يفمن

هنا – تلك الصغيرة ذات الشعر السرح الطويل، ربما تتذكرها، كــانت واحدة منهن، غادرت مع رفيقها. تقول ذلك لى بصوت مــنخفض، وأحــس بالامتنان لمراعاتها ذلك. وتضيف، الأمر يكــون بطــبيعة الحال معقولاً، إن كنت تنوى الرحيل، فعليك المغــادرة الآن إنـــه طريق طويل، خطر أيضاً، والليالى بدأت تغــدو أكثر برودة: تتحدث عن الجو، عن الصيف الذى مضى ودلائل اقتراب الشتاء، وكأننى حيث كنت فى زنزانتى التى لا تبعد غير ثلاثمائة خطوة من المكان الذى نحن فيه، كان قد ختم عــلى مــن الحر والبرد، الجفاف والرطوبة. بالنسبة لها، أكاد أدرك، أنــنى اخــتفيت ومــن بعد ذلك ظهرت ثانية، وما بين المرحلتين، لم يكن جزءًا من العالم.

كــنت مصغياً أو مىء وأحلم بينما كانت تتكلم. الآن أبدأ فى الكــلام. أقــول، تعــرفين أنت، عندما كنت فى السجن – فى الثكــنات، ليــس فى السجن الجديد، حيث احتجزت، كنت جد جائعــاً بحيــث أننى لم أفكر يوما ما بامرأة، بالطعام فقط. فقط عشــت من وقت تناول وجبة إلى أخرى. لم يكن هناك أبداً ما يشــبعنى. كــنت أزدرد طعامى مثل كلب وكنت أريد المزيد. وكــان فضــلاً عــن ذلك، الكثير من الألم فى أوقات مختلفة: ذراعــاى، يداى، وأيضاً هذا، – ألمس الأنف الذى غداً أغلظ، الندبة القبيحة تحت عينى والذى بدأت أشعر أن الناس، بافتعال، مفتتنين بها. لما حلمت بامرأة، حلمت بواحدة تأتى ليلاً وتنتزع

الألم بعيداً منى، حلم طفل. الشيء الذى لم أعرفه كان كيف أن لرغبة الشديدة تخزن نفسها فى تجاويف عظام المرء ثم تفيض إلى لخارج يوماً ما دون تحذير. ما ذكرتينه قبل دقيقة مضت، عــلى سبيل المثال - الفتاة التى أشرت إليها - كنت جد متعلقاً بهـــا، أعتقد أنك تعرفين ذلك، على الرغم من أن اللياقة منعتك مـــن القـــول... عندما قلت إنها قد رحلت، أعترف، كان الأمر وكأننى تلقيت ضربة هنا، فى لصدر. ضربة.

تتحرك يداها بمهارة، تضغطان على دوائر نافرة عن صفحة العجيــن بحافــة الطـــاس، ملتقطة ما يتعلق بالقعر، تلفها معاً، تتجنب عينى.

ذهبت إلى غرفتها فى الطابق العلوى فى الليلة الماضية، إلا أن لباب كان مقفلاً. ولكننى خلعت القفل. كان لديها العديد من الأصـــدقاء، لـــم أفكر أبداً بأننى كنت لوحيد... ولكن ما الذى كـــنت أريده؟ مكان ما للنوم، بالتأكيد، ولكن المزيد أيضاً. لماذا الـــتظاهر؟ كلـــنا يعـــرف أن ما يبحث عنه رجال مسنون هو استعادة شبابهم بين ذراعىّ امرأة شابة.

تضرب العجينة، تجبلها، تفردها: هى نفسها امرأة شابة لديها أطفالهـــا، يعيشـــون مع أم بارعة: أى عنصر للإعجاب أشكله بالنســبة إليهـــا حيـــنما أمضـــى متحدثاً بشكل مفكك عن الألم والوحدة؟ منذهلاً أستمع إلى الحديث المنبثق منى. دع كل شيء

يقال! حدثت نفسى عندما واجهت فى المرة الأولى أولئك الذين قاموا بتعذيبى. لماذا تطبق شفتيك بغباء على بعضهما؟ أنت لا تمـلك أسراراً. دعهم يعرفوا أنهم يتعاملون مع لحم ودم! أعلن عـن هـول مـا جـرى لك، أصرخ عندما ينتابك الألم! إنهم يزدهرون مع الصمت العنيد: إنه يؤكد لهم أن كل نفس هى قفل يـتحم عـليهم ثقـبها بطول أناة. عرّ نفسك! افتح قلبك! وهكذا صحت وصرخت وقلت كل ما خطر ببالى. منطق ماكر! ذلك أنـنى الآن عندما أرخى لسانى وأدعه يبحر حراً لا أسمع غير أنيـن رقيـق لمعدم.' هل تدرين أين نمت ليلة البارحة؟ أسمع نفسـى تقـول، هـل تعـرفين ذلك الجناح الممتد من مخزن القمح؟...'

الطعـام، أكـثر من أى شىء آخر، هو ما أتوق إليه، تزداد حدتـه مع انقضاء كل أسبوع. أريد أن أكون رجلاً سميناً من جديـد. واقع أنا تحت تأثير الجوع ليلاً ونهاراً. استيقظ صباحاً ومعـدتى تتثاءب، لا أقدر أن أنتظر بدء جولتى اليومية، أتباطأ عند بوابة الثكنات مستنشقاً شذا دقيق الشوفان الرطب المخفف وأنـتظر كشط قعر القدر المحروق، أتملق للصغار ليقذفوا لى ثمـار الـتوت من فوق الأشجار، أتمدد على سياج حديقة كى أسـرق خوخـة أو اثنتين، عابراً من باب إلى باب، رجلٌ مُنى بسـوء الحـظ، ضحية التيمم، لكنه شفى الآن، جاهز بابتسامة ليـأخذ مـا يقـدم له، شريحة من الخبز والمربى أو طبق من

الفاصوليا والبصل، والفواكه باستمرار، مشمش وخوخ ورمان، ثروة صيف سخي. آكل مثل فقير معدم. ألتهم بشهية كبيرة، أمسح الإناء حتى يبدو نظيفاً جداً ويسرّ قلب من يراه. فلا عجب أننى أزحف يوماً بعد يوم إلى قوائم الفاضلين لأهل بلدتى.

وكم أقدر على المداهنة، وكم أقدر على التوسل! حصلت أكثر من مرة على وجبة خفيفة أعدت لى بشكل خاص: شرائح من لحم الضأن مقلية ومتبلة بالفلفل والثوم المحمر، أو شرائح من فخذ الخنزير والطماطم على رغيف من خبز، يتخللها جبن من حليب الماعز. أحمل إن استطعت ماء أو حطب الوقود بالمقابل، أفعل ذلك بكل سرور، كعملة رمزية، على الرغم من أننى لم أعد قوياً كما كنت فى السابق. وإن كنت اليوم قد استنفدت كافة مصادرى فى المدينة – لأنه يتحتم على أن أحرص على ألا أكون ثقيلاً على المحسنين إلىّ – فبإمكانى على الدوام التمشى نحو مخيم الصيادين لأساعدهم فى تنظيف السمك. لقد تعلمت عدداً قليلاً من مفردات لغتهم، أدركت دون أن يساورنى أى شك، أنهم يدركون ماذا يعنى الأمر أن يكون المرء متسولاً، وهم يقاسموننى طعامهم.

أريد أن أغدو سميناً من جديد، أسمن من أى وقت مضى، أريد بطناً تقرقر باطمئنان عندما أطوى كفى فوقها. أريد أن

أحـــس أن خدى يغطس فى وسادة رقبتى ويتمايل ثدياى عندما أمشى. أريد حياة ذات قناعات بسيطة. أريد (أمل عقيم!) أنا لا أعرف الجوع مطلقاً.

* * *

ثلاثـــة أشهر مضت علي رحيلها، ولا أخبار حتى الآن عن القوة الخاصة بالجملة. بدلاً عنها، أقاويل فظيعة تنتشر فى كل مكـــان: من أن القوة قد وقعت فى شرك الصحراء وأبيدت عن آخـــرها، الأمر الذى كان خافياً علينا أنها قد استدعيت من أجل الدفـــاع عن الوطن. تاركة قوى الحدود للبرابرة كى يلتقطوها مـــثل فاكهة متى ما شاءوا. وسائط النقل تتنقل أسبوعياً كل من توحى له حكمته أن يغادر البلدة، متوجهين شرقاً، كل عشرة أو اثنـــتى عشرة عائلة تسافر معاً، لزيارة الأقارب ، وهو تعبير لطيـــف للتعبير عن شىء بغيض، حتى تستقر الأمور مجدداً . يغادرون، فى مقدمة الركب قافلة التموين، يدفعون عربات يد، متوجهين شرقاً، يحملون رزماً فوق ظهورهم، أطفالهم الصغار جداً، محملون مثل حيوانات. بل إننى حتى رأيت عربة طويلة ذات أربـــع عجـــلات تجرها الخراف. لم يعد بالمقدور شراء حيوانات حمول.

أولـــئك الذيـــن يغـــادرون هم ذوو تفكير صائب، يتهامس الأزواج والزوجات الذين يبقون يقظين فى أفرشتهم، يرسمون

الخطـط، يفكرون فى الشروع فى بدايات جديدة لحياتهم. إنهم يـتركون بيوتهم المريحة خلفهم، يقفلونها حتى نعود ، آخذين المفـاتيح معهـم كتذكار. ما إن يحل اليوم التالى، حتى تدخل زمـرة من الجنود عنوة إليها، يسرقون البيوت، يكسرون قطع الأثـاث، يـلوثون أرضيتها. يتعاظم الاستياء ضد أولئك الذين يـرونهم وهـم يقومون بالاستعداد للسفر. توجه إليهم الإهانات علـناً، يتعرضـون للاعتداء أو السرقة، مع حصانة لفاعلين. يحـدث الآن عـائلات تختفى ببساطة فى عتمة الليل، يرشون الحـراس مـن أجل فتح البوابات لهم، متخذين طريق الشرقى منتظرين فى محطة التوقف الأولى أو الثانية، حتى يتجمع عدد كاف من العوائل كى تسافر فى أمان.

الجـند يضـطهدون البـلدة. لقد عقدوا اجتماعاً فى الساحة أضـيء بكشافات نور كهربائية لشجب الجبناء ولخونة ومن أجـل التأكيد على الولاء للإمبراطورية. باقون، أصبح شعاراً للإخلاص: تكسى الجدران فى كل مكان بهذه الكلمات. أقف فى الظـلام عـند نهايـة حشد كبير فى تلك الليلة (لم يمتلك أحدا شـجاعة كافية للبقاء فى المنزل) أستمع إلى تلك الكلمات تنشد بضجر، وبصورة آلية من قبل آلاف الحناجر.

سـرت فى ظهرى رعشة. بعد الاجتماع قاد الجنود مسيرة طـافت الشوارع. أبواب رفست، نوافذ حطمت، نار أوقدت فى

أحـد المنازل. احتفال صاخب مخمور فى الساحة استمر حتى ساعة متأخرة من الليل. قمت بالبحث عن مانديل ولكننى لم أره. ربما أن السبب كان أنه قد فقد السيطرة على الحامية، وكان الجنود، إن استدعت الضرورة، على استعداد لتقبل أوامر من شرطى.

أقام هؤلاء الجند فى بادئ الأمر فى البلدة، غرباء عن عاداتنا، مجندين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، استقبلوا ببرود، نحن لا نريدهم هنا، قالت الناس كلما أسرعوا لمحاربة البرابرة كلما كان ذلك أفضل. رفض أصحاب المتاجر إقراضهم بالدين، أغلقت الأمهات على بناتهن. ولكن بعد أن ظهر البرابرة عند عتبات بيوتنا، تغير الأمر. والآن وبعد ان بدوا الشيء الوحيد الذى يقف بيننا وبين الدمار، غداً هؤلاء الجنود مركزاً للتملق بلهفة. لجنة من المدنيين تفرض ضريبة أسبوعية من أجل إقامة وليمة لهم، يشوون خروفاً كاملاً على السفود، يبددون عدداً من غالونات الرّم. فتيات البلدة أمامهم لاصطيادهن. يرحّب بهم فى كل ما يريدونه، ما دام ذلك سيجعلهم يبقون ويحرسون حياتنا. وكلما ازداد التملق إليهم ازدادوا طغياناً. نعرف نحن أنه لا يمكننا الاعتماد عليهم. ما الذى سيبقيهم مع خلو مخزن الحبوب واختفاء قوة الجيش الأساسية مثل دخان إن توقفت الولائم مرة واحدة؟ كل ما نقدر ان نتمنى هو قسوة السفر فى الشتاء سوف تعوق تخليهم عنا.

الــتحذيرات الأولية للشتاء في كل مكان. يرتفع نسيم قارس من لشمال في الساعات المبكرة من الصباح: المصاريع نصر، لنائمون يتجمعون بعضهم إلى بعض، الحراس يلفون معاطفهم الفضفاضــة بإحكـــام حولهــم وقد أداروا ظهورهم لمواضعهم الأصــلية. أصــحو أنا في بعض الليالي، مرتجفاً فوق فراشي المكــون من عدد من أكياس ولا أتمكن من معاودة النوم. تبدو الشــمس عــند إشــراقها أبعد مسافة من اليوم الفائت، تصبح الأرض بــاردة حـــتى قبل المغيب. أفكر في قوافل المسافرين المنــتظمين في صــف واحــد، متوجهين نحو وطن أم لم يره معظمهــم، يدفعــون عــربات ليد، يخسون خيولهم، يحملون أطفالهم، يتدبرون بحرص مؤونتهم، يتنازلون يوماً بعد يوم عند جوانب الطرق عن أجهزتهم، أدوات مطبخ، لوحات. ساعات، لعب، أي شيء يعتقدون أنه سوف ينقذ ممتلكاتهم من الدمار قبل أن يدركــوا أن قصـــارى مـــا سيتمنون هو الهرب بأرواحهم. الجــوفي خلال أسبوع أو أسبوعين سيكون غير جداً بالنسبة لـــلجميع ولكـــنه الأقســـى لمن يشرع في رحلة. ستهب الريح الشمالية طوال اليوم، تجيء مهلكة الحياة على سيقان النباتات، حاملة بحراً من غبار عبر النجد الفسيح، تجيء بهبات من برد وثـــلج. لا أقـــدر عـــلى تصور نفسي، بملابسي البالية ونعليّ القديميـــن، في يـــدي عصا، رزمة على ظهري، باقياً على قيد الحياة في تلك لمسيرة الطويلة. لن يتوق قلبي إلى ... الأمر.

أى حيـــاة يمكـــن أن أصبو إليها بعيداً عن هذه الواحات؟ حياة كـــاتب حسابات معدم فى العاصمة، عائد كل مساء بعد الغسق إلى غرفة مستأجرة فى شارع خلفى، وأسنانى تتساقط تدريجياً، وصاحبة المنزل تتشمم عند الباب. إن كان على أن أنضم إلى الهجرة الجماعية سيكون ذلك مثل واحد من أولئك الناس الذين يتسـلون فى يـوم مـا خارج خط السير، يستقرون فى حمى صـغرة، وينتظرون مجىء البرد الأخير كى يتسلل ببطء نحو أرجلهم.

* * *

أتجول فى الشارع الفسيح نازلاً منحدراً إلى شاطئ البحيرة. الأفـق الممـتد أمامى قد تلون تواً بالرمادى. أغوص فى الماء الرمادى للبحيرة. الشمس من خلفى تشرع فى المغيب بخطوط ذهبية وقرمزية. تصلنى من بين الأخاديد أولى أغنيات صرار الليل. هذا عالم أعرفه وأحبه ولا أريد أن أفارقه. لقد سرت فى هذا الطريق ليلاً منذ شبابى ولم يلحق بى أى أذى. كيف يمكننى أن أصـدق أن الـليل مـلئ بأشباح مرفرفة للبرابرة: لو كان للغرباء وجود فى هذا المكان لكنت أحسست به تماماً. انسحب الـبرابرة بقطعـانهم نحو أعمق وديان الجبال، فى انتظار أن يحـس الجـنود بالـتعب ويرحلوا. عندما يحدث ذلك سيظهر الـبرابرة مـن جديـد... سيقومون برعى مواشيهم ويتركوننا

لحالنا، وسنزرع حقولنا ونتركهم لحالهم، وسيستعاد السلام، فى بضعة أعوام على الحدود.

أجتاز الحقول التى خربت، والتى سويت الآن وحرثت حديثاً، أعبر قنوات الرى وجدار الساحل. الأرض تحت أخمص قدمى تزداد نعومة، وسرعان ما أسير أنا فى المستنقعات المبتلة، أشق طريقى عبر أدغال القصب، أوسع الخطى، أغوص حتى كاحل القدمين فى الماء مع آخر الضياء البنفسجي لغسق. ضفادع تغطس فى الماء بقوة أمامى، أسمع تقريباً خشخشة خافتة لريش طائر المستنقعات وهو يقرفص مستعداً للطيران.

أخوض أعمق، مفرقاً العيدان بيدى، حاساً ببرودة الوحل بين أصابع قدمى، الماء الذى يحتفظ بدفء الشمس مدة أطول من الهواء، يقاوم ثم يستسلم، قبل كل خطوة. فى الساعات الأولى للصباح، يدفع الصيادون زوارقهم المسطحة القعر بأعمدة عبر السطح الهادئ ثم يرمون شباكهم. يالها من حياة مطمئنة لكسب العيش. ربما يتحتم على ترك مهنة التسول لأنضم إليهم فى مخيمهم خارج السور، أبنىٰ لنفسى كوخاً من الطين والقصب، أتزوج إحدى بناتهم الجميلات، أولم عندما يكون الصيد وفيراً، أضيق حزمى عندما لا يكون.

فى عمق يصل إلى ربلة الساق، أخوض فى الماء المهدئ،

أطلق العنان لنفسى فى هذه الرؤيا الكئيبة. إننى لست غير واع ما تدل عليه أحلام اليقظة هذه، أحلام عن التحول إلى إنسان ضار غير مفكر، اتخاذ السبيل البارد عائداً إلى العاصمة، التماس طريقى خارجاً إلى خرائب الصحراء، العودة إلى الحجز فى زنزانتى، البحث عن البرابرة وتقديم نفسى لهم ليفعلوا بها ما يشاؤون. إنها بلا استثناء أحلام نهايات المطاف: أحلام ليس عن كيف تعيش ولكن كيف تموت. وأنا أعلم أن كل واحد فى تلك البلدة المسورة الغارقة الآن فى الظلام (أسمع الندائين اللذين يعلنهما البوق مشيراً إلى موعد إغلاق البوابات) مشغول البال بالأمور نفسها. كل واحد ما عدا الأطفال! الأطفال لا تساورهم الشكوك مطلقاً فى أن الأشجار الكبيرة العتيقة التى فى ظلالها يلعبون ستبقى واقفة إلى الأبد، وأنهم سيكبرون يوماً ويصبحون أقوياء مثل آبائهم، مثمرين كأمهاتهم، وسيعيشون ويغتنون ويربون أطفالهم، ويتقدمون فى السن فى البقعة عينها التى ولدوا فيها. ما الذى جعل الأمر غير ممكن بالنسبة لنا أن نعيش زمننا مثال أسمال فى الماء، مثل طيور فى الهواء، مثل أطفال؟ إنه خطأ الإمبراطورية! إمبراطورية قد خلقت مجريات التاريخ. إمبراطورية حددت وجودها ليس فى زمن ناعم يلتف مع دورة المواسم ولكن فى زمن مرتج من صعود وانهيار، من بداية ونهاية، من كوارث. إمبراطورية تحكم على نفسها أن تعيش فى التاريخ وتتآمر ضد التاريخ. فكرة واحدة فقط تشغل

العقـل الخــفى للإمبراطورية: كيف لا تنتهى، كيف *لا تموت، كيــف تطيــل عصـــرها. إنها فى النهار تلاحق أعداءها، إنها مراوغة وقاسية، ترسل كلاب صيدها إلى كل مكان. وهى فى الليل تغذى نفسها على تخيلات لكوارث: نهب المدن، اغتصاب السكان، أهرامات من عظام، فدادين من خراب. رؤيا مجنونة خبيــثة أيضاً:غائص أنا فى رواسب الطين، لست أقل تلوثاً بها فى العميد جول فى تعقبه أعداء الإمبراطورية عبر صحراء لا حــدود لها، بسيف مستل من غمده لتقطيع بربرى بعد بربرى وفى الــنهاية يجد واحداً ويذبحه والذى لابد أن يكون قدره (أو إن لــم يكن فقدر ابنه إذن أو قدر حفيده الذى لم يولد بعد) أن يصــعد الــبوابة البرونزية للقصر الصيفى ويطيح بالكرة التى يعلوها نمر هائج والتى ترمز للسيادة الأبدية، بينما يهلل رفاقه ويطلقون بنادقهم فى الهواء.

لا قمــر فى الســماء. أتحسس طريقى فى الظلمة عائداً إلى الأرض اليابســة ثــم إلى فراشى من الحشائش، ملتفاً بمعطفى العــريض، وأســتغرق فى الــنوم. الــنجمة الحمراء بالكاد قد تحركت فى السماء.

فى الوقــت الــذى أجتاز الطريق نحو مخيم الصيادين، يبدأ كلب فى النباح: فى لحظة ينضم إليه آخر وينفجر الليل ضجة، صــيحات تحذير، صراخ أصيح مرعوباً بأعلى صوتى، ما من

شيء ولكن لا أحد يسمعني. أقف حائراً في منتصف الطريق. أحد ما يجتازني راكضاً منحدراً نحو البحيرة، جسم آخر ينقذف علـى، امـرأة. أعرف ذلك في الحال، تلهث رعباً بين ذراعي قبل أن تتحرر وتختفي. هناك كلاب أيضاً، تزمجر من حولي: أدور بسـرعة حـول نفسي وأصرخ عالياً عندما يقضم أحدهم قـدمي، يمـزق جلدي، ثم يتراجع. العواء المجنون يحيط بي تمامـاً. كلاب البلدة تستجيب من خلف الأسوار، أقرفص على الأرض، وأدور في حـلقة، مـتحفزاً لـلهجوم التالي. النحيب المعـدني للأبـواق ينطلق عبر الهواء، تنبح الكلاب أعلى من قـبل. أجـر قدمي ببطء نحو الخيم، إلى أن يلوح أحد الأكواخ فجـأة في الأفـق. أزيح جانباً حصيرة معلقة على مدخل الباب وأعبر إلى الدفء المتعفن حيث كان أناس حتى قبل دقائق قليلة ينامون.

الضـجة تموت في الخادج، ولكن لا أحد يعود. الهواء فاسد ويـبعث على النعاس. أود أن أنام، مع ذلك يقلقني رجع صدى ذلـك الاصـطدام الـناعم بي في الطريق. مثل كدمة، يستبقي جسـدي أثر طبعة الجسد الذي أرتاح لدقائق على صدري. أنا خـائف ممـا أنـا مؤهل له: من العودة غداً في وضح النهار مـتوجعاً من الذكرى وأطرح أسئلة حتى أكتشف من كانت تلك التي هرعت نحوي في الظلام لكي أمارس الحب معها بالتالي، طفـلة أم امرأة، مغامرة حسية مضحكة أخرى أيضاً. ليس من

حـدود لحماقـة رجال فى مثل سنى. عذرنا الوحيد هو أننا لا نـترك علامة ما تخصنا على الفتيات اللاتى ينتقلن بين أيدينا. رغباتـنا معقـدة، ممارساتنا الحب لها طقوس، نشوتنا الخرقاء سرعان ما تنسى بأجمعها، إنهن لا يبالين بحركاتنا المهتاجة فى حين يندفعن باستقامة كالسهام إلى أذرع الرجال الذين سيحملون لهـم أولادهـم، شـباب أقوياء صريحون. ممارساتنا للحب لا سـتتذكره الفـتاة الأخـرى ذات الوجه الخالى من التعبير: أنا بمعطفى الحريرى المنزلى ومظهرى البائس وعطورى وزيوتى ومـلذاتى التعيسة، أم ذلك الرجل الذى تعوزه الحرارة والقناع عـلى عيـنيه والذى أعطى الأوامر وتأمل الأصوات العميقة لألمها؟ وجه من كان آخر ما رأته بوضوح على الأرض غير ذلـك الوجـه خلف القضبان المتوهجة؟ على الرغم من أننى أنكمـش مذلـة، حتى الآن، يتحتم على أن أسأل نفسي فيما إذا كنت، عندما تمددت ورأسى عند قدميها، مدللاً ومقبلاً الكاحلين المكسورين، فى أعماق قلبى آسفاً لأننى لم أتمكن من أن أطبع نفســى عـليها بـالعمق نفسه. مهما ستكن درجة الحنان التى سـتعامل بهـا من قبل أهلها، فإنها لن تحب وتتزوج بالطريقة الاعـتيادية: إنهـا وإلى نهايـة حياتها ستبقى موسومة كملكية خاصـة لغـريب، ولن يقترب منها أحد ما إلا بروحية حسية مشفقة كئيبة كشفتها هى ورفضتها فىّ. لا عجب أنها استغرقت فى الـنوم غالـباً، لا عجب أنها كانت أسعد حالاً وهى تقشر

الخضــروات مــن نومهــا على فراشي. منذ تلك اللحظة التى توقفــت فيهــا قدمـــاى أمامها عند بوابة الثكنات، لا بد أنها قد أحست بجو ضار من خداع يطوقها: حسد، شفقة، قسوة متنكرة جميعــاً بوصفها رغبة. وفى علاقتى الحسية بها لم يكن الدفاع بــل الرفض المجهد للدفع! أتذكر ابتسامتها الهادئة. منذ اللحظة الأولى تماماً عرفتنى مضللاً مخادعاً. أصغت إلىّ ثم إلى قلبها، وتصــرفت صـــواباً بحسب أهواء قلبها. لو أنها فقط كانت قد وجــدت الكلمات لتحدثنى، كان عليها أن تقول، الأمر ليس كما تفعلــه، أن توقفنى وأنا فى أثناء الفعل، إن أردت أن تتعلم كيف تمارســه، عليك أن تسأل صديقك ذا العينين السوداوين. وكان لزاماً عليها أن تضيف، كى لا تتركنى بلا أمل: ولكن إن أردت أن تحبــنى عــليك أن تدير ظهرك له وتتعلم درسك فى مكان آخــر. لو كانت قد أخبرتنى آنذاك، لو كنت قد فهمتها، لو كنت فى وضــع يسمح لى أن أفهمها، لو كنت صدقتها، لو كنت فى وضــع يسمح لى أن أصدقها، لربما أنقذت نفسى من عام من حركات مضطربة غير مجدية للتفكير.

قياساً لم أكن، كما أحببت أن أعتقد، المنغمس الساعى وراء المــلذات مقــابل العميد القاسى المتصلب. كنت الأكذوبة التى تــرويها الإمــبراطورية لنفسها فى الأوقات الهيّنة. وكان هو الحقيقــة التى ترويها الإمبراطورية لنفسها عندما تهب الرياح الجافــة. وجهان للسلطة الاستبدادية، لا أكثر، لا أقل. ولكننى

سايرت الظروف، تطلعت إلى ما حول هذه الحدود الغامضة، هذا المكان المنعزل النائى ومواسم صيفها المغبرة وعرباتها المحملة بالشمس وفيلولاتها الطويلة ومواقعها العسكرية غير المتغيرة، والطيور المائية التى تهاجر منها وتعود إليها عاماً بعد عام جيئة وذهاباً عبر صفحة البحيرة المبهرة غير المتوجة، وقلت لنفسى، كن صبوراً، سيرحل فى يوم من هذه الأيام، وسيعود الهدوء، عندئذ ستصبح فيلولاتنا أطول، وسيوفنا أكثر صدءاً، سيتسلل الحارس نازلاً من برجه ليمضى ليلته مع زوجته، سيتفتت مدفع الهاون حتى تعشش السحالى بين قطع الآجر ويطير البوم خارجاً من الكنيسة، والخط الذى يشير إلى الحدود على الخرائط سيزداد غموضاً وعتمة حتى نصبح منسيين، منعمين . هكذا أغويت نفسى، متخذاً واحدة من عدة انعطافات خاطئة فى طريق يبدو صحيحاً ولكنها أوصلتنى إلى قلب متاهة.

أقترب أنا فى الحلم منها متجهاً نحو الساحة المغطاة بالثلج. اسير فى بادئ الأمر: ثم، وبعد اشتداد قوة الريح، أغدو مندفعاً نحو الأمام بكتلة ثلجية دوامة، تمتد ذراعاى على الجهتين والريح تجتذب معطفى الفضفاض مثل شراع قارب. مستجمعاً السرعة، تنزلق قدماى على الأرض، أنقض على الكائن المتوحد عند زاوية الساحة. أفكر، إنها لن تستدير فى الوقت المناسب لترانى أفتح فمى كى أصيح محذراً. يصل سمعى

شكوى خافتة، تتذبذب مع الريح، تدنو من السماء كقصاصة من ورق. إنــنى فوقهــا تقريباً، بل إننى بدأت أعد نفسى للصدمة، عــندما تســتدير وتــرانى. للحظة واحدة تتكون لدى صورة لوجههــا، وجه طفلة، يتوهج عافية، تبتسم لى دون خوف، قبل أن نتصــادم. يرتطم رأسها ببطنى، ثم أختفى، محمولاً من قبل الــريح. الضربة خفيفة كضربة فراشة. أنا مغمور بالارتياح. أفكــر، "إذن، بعــد كل ذلك ما كان على أن أقلق! أحاول أن أتطــلع نحو الخلف، ولكن كان كل شىء قد اختفى عن البصر فى بياض الثلج.

فــمى مغطى بقبلات ندية. أبصق، أهز رأسى، أفتح عينى. الكلب الذى كان يلعق وجهى يتراجع هازاً ذيله. يتسرب الضياء عــبر مدخــل بــاب الكوخ. أزحف خارجاً إلى الفجر. السماء والمــاء مشــوبان بالــلون الوردى نفسه. البحيرة التى اعتدت رؤيــتها كــل صباح، قوارب الصيد ذات المقدمة غير الحادة خالية. المخيم، حيث أقف أنا خال أيضاً.

ألــفّ المعطف على نفسى بشدة أكثر، وأسير الطريق صاعداً متجاوزاً البوابة الرئيسية، التى ما تزال مغلقة، حتى برج المراقبة الشــمال – الغــرب، الــذى يــبدو خالياً، ثم العودة منحدراً على الطريق، قاطعاً الحقول، فوق السد متوجهاً نحو شاطئ البحيرة.

أرنــب وحشى يفر من تحت قدمى ويسرع مبتعداً فى خط

متعرج. أبقى متتبعاً خطه حتى يستدير عائداً ويضيع أثره خلف الحنطة اليانعة فى الحقول البعيدة.

يقف ولد صغير فى وسط الدرب على مسافة خمسين ياردة مــنى، وهو يتبول. يرقب قوس بوله، يرقبنى أيضاً من طرف عينه، حانياً ظهره ليجعل الدفقة الأخيرة تتبجس أكثر. ثم يختفى فجأة، بذيله الذهبى الذى ما يزال معلقاً فى الهواء، منتزعاً من قبل يد سوداء امتدت من بين عيدان القصب.

أقــف فى البقعة التى كان واقفاً عليها. لا شىء يمكن رؤيته غيــر خفــق قمم القصب، التى تومض من خلالها نصف كرة تخطف البصر.

أقول رافعاً صوتى، بإمكانك الخروج، ليس هناك ما يخشى مــنه". ألاحــظ أن عصـــافير الدور، تتجنب هذا الموضع من القصـــب. ليــس لدى أى شك فى أن ثلاثين زوجاً من الآذان تسمعنى.

أعود إلى البلدة.

الــبوابات مفتوحة جنود مسلحون بأعتدة ثقيلة، يبحثون بين أكواخ جماعة الصيادين. يسير معهم الكلب الذى أيقظنى متنقلاً من كوخ إلى كوخ، مرتفع الذيل، متدل لسانه، أذناه منتصبتان.

واحد من الجنود يتعثر بحامل علقت عليه الأسماك المنظفة

المملحة لتجف. ينطرح بصرير على الأرض.

أصيح، "لا تفعل ذلك!"، مسرعاً الخطى، أميز بعض هؤلاء الرجال من الأيام الطويلة للتعذيب فى ساحة الثكنات. "لا تفعلوا ذلك، لم يكن بسبب خطأ منهم!".

بلا مبالاة متعمدة، يتمشى الجندى نفسه نحو أكبر الأكواخ، يستجمع قواه مسنداً ثقله على دعامتين ناتئتين للسقف المصنوع مـــن القـــش. وعلى الرغم من الجهد الذى يبذله فإنه يفشل. لقد راقـــبت بناء هذه الأكواخ الهشة. التى بنيت لتقاوم شدة ريح لا يقدر طير على التحقيق أثناءها.

فقـــاعدة الســـقف مثبتة عمودياً إلى أعلى بأسيرة جلدية تمر عـــبر أســـنان اسفينية الشكل لا يمكن للمرء رفعها دون تقطيع الأسيرة الجلدية.

أحاجج الرجل. دعنى أخبرك بما حدث ليلة أمس. كنت ماراً فى الظلام وأخذت الكلاب تنبح. أنتاب الخوف الناس هنا، فقدوا عقولهـــم، أنـــت تعـــرف حالهم. من المحتمل أنهم اعتقدوا أن البرابرة قد وصلوا. لقد هرعوا منحدرين صوب البحيرة. أنهم يختبئون فى ادغال القصب – رأيتهم قبل مدة وجيزة. أنت غير قادر على معاقبتهم لمثل هذه الحادثة السخيفة .

يتجاهلـــنى، يســـــاعده رفيق له فى الســـقف، متوازياً فوق

عارضـــتين، يـــبدأ في توجيه ضربات بكعب حذائه ذى الرقبة الطويـــلة، محدثاً ثقوباً فى السقف. اسمع خبطة فى الداخل فى حين ينهار مزيج الطلاء المتماسك من الحشائش والصلصال.

أصيح، أوقف الأمر! ينبض الدم فى صدغى. ماذا فعلوا لك كى يـــؤذوك؟ أتمسك بكاحله، ولكنه جد بعيد عنى. بإمكانى أن أقطع رقبته فى حالتى هذه.

يـــلقى أحدهم بنفسه أمامى: الصديق الذى ساعده فى العمل، يدمدم، لماذا لا تذهب بعيداً. لماذا لا تذهب وتموت فى مكان ما .

اســـمع مـــن تحت القش والصلصال عوارض السقف وهى تتقصـــف تماماً. يمد الرجل الذى على السقف ذراعيه ثم يندفع إلى الداخل عبر فتحة وفى لحظة يكون هناك، عيناه مفتوحتان بدهشة، وفى اللحظة التالية، لا تبقى غير هبة من دخان معلقة فى الهواء.

يسحب البساط من مدخل الباب جانباً، قابضاً كلتا يديه معاً، مغطى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بغبار أصفر. خراء! يقول. خراء، خراء، خراء! ينفجر رفاقه بالضحك. يصيح، لا يدعو الأمر للهزء، لقد آذيت إبهامى الملعون! يعتصر يده بين ركبتيه. الملعون يؤلمنى! يوجه رفسة نحو الجدار، واسمع مرة أخـــرى، الطلاء ينهار فى الداخل. يقول، متوحشون، ملعونون! كـــان يتوجب علينا إيقافهم فى صف تجاه الجدار وإطلاق النار عليهم منذ أمد بعيد – مع أصدقائهم!

متطـلعاً إلى ما ورائى – متطلعاً نحوى مباشرة، متجنباً بكل الطـرق رؤيـتى، يبتعد مختالاً. وفى الوقت الذى يجتاز الكوخ الأخير يشق البساط المعلق على مدخل الباب. حبال الخرز التى تزيـنه تنقطع وتتناثر الحبات فى كل مكان: ثمار العليق الحمر والسود، وحبوب البطيخ المجففة. أقف فى الطريق متمهلاً أنتظر خمـود رعشة الغضب التى تجتاحنى. أفكر فى فلاح شاب جئ بـه إلى مرة فى تلك الأيام التى كنت أقضى فيها أمور الحامية. كان قد أودع لدى الجيش لمدة ثلاثة أعوام من قبل قاض فى بلدة بعيدة بتهمة سرقة عدد من الدجاج. بعد شهر أمضاه هنا، حاول الهـرب إلى الصحراء. قبض عليه وجلب أمامى. طلب أن يرى والدتـه وشقيقاته ثانية، أفهمته قائلاً نحن لا نقدر تماماً على فعل ما نرغب فيه، نحن جميعاً خاضعون للقانون، الذى هو أكبر من أى واحد منا. القاضى الذى أرسلك إلى هنا، أنا شخصياً، أنت – كلـنا خاضعون للقانون. تطلع إلى بعينين باهتتين، منتظراً سماع الحكـم عليه، حارساه الغليظان خلفه، يداه موثقتان بالأغلال إلى الخـلف. أعـرف أنـك تحس بأن الأمر غير عادل، لامتلاكك مشاعر ولد صالح. أنت تعتقد بأنك تعرف ما هى العدالة وما هو غير ذلك. أنا أفهم. كلنا يعتقد بأنه يعرف.

عـندئذ، لـم يكن لدى أى شك شخصياً، إنه فى لحظة، كل واحـد منا، رجل، امرأة، طفل بل ربما حتى الحصان العجوز المسـكين، الذى يدير عجلة الطاحونة، قد عرف معنى العدالة:

تأتى كافة المخلوقات إلى العالم حاملة معها ذكرى العدالة. قلت لسجينى المسكين، ولكننا نعيش فى عالم من القوانين. عالم أفضل من الدرجة الثانية. ليس بمقدورنا عمل أى شىء بشأنه. نحن مخلوقات خربة. كل ما نقدر عليه جميعاً هو دعم القوانين، دون أن نسمح بتلاشى ذكرى العدالة . بعد أن قمت بتوبيخه، أصدرت حكماً عليه. تقبل الحكم دون تذمر وقاده حارساه إلى الخارج. أتذكر إحساس الخزى غير الهين الذى شعرت به فى أيام مثل تلك. كنت اعتدت على مغادرة قاعة المحكمة والعودة إلى شقتى والجلوس طوال المساء فى الظلام على الكرسى الهزاز، دون أن أحس بشهية لطعام، حتى يحين موعد ذهابي إلى الفراش. قلت لنفسى'. عندما يعانى بعض الرجال ظلماً، فإنه قدر أولئك الذين يشهدون معاناتهم كى يعانوا الخزى منه – ولكن المواساة الخادعة لهذه الفكرة لا تتمكن من إراحتى. لقد داعبتنى أكثر من مرة فكرة الاستقالة من منصبى، الانصراف عن الحياة العامة، شراء أرض تزرع فيها الخضر. لكننى فكرت، فيما بعد، أن شخصاً آخر سيعين كى يتحمل عار المنصب، وأن ما من شىء سيتغير. وهكذا واصلت مهامى حتى باغتتني الأحدث في يوم من الأيام.

* * *

الفارسان على مبعدة أقل من ميل، وقد بدءا فى اجتياز الحقول الجرداء فى لوقت الذى عنا للبصر. أنا واحد من

الحشـد الـذى، سمع أصوات الانطلاقات المرحبة تنهمر من الأسـوار، ذلـك أننا جميعاً نميز لواء الكتيبة الخضر والذهبى الـذى يحملانه. أسير بخطوات واسعة بين الأطفال المهرولين المنفعلين فوق التربة حديثة التقليب.

الفارس على اليسار، الذى كان ممتطياً كتفاً إلى كتف بجوار زميله، يستدير مبتعداً باتجاه الطريق المحاذى للبحيرة.

يواصـل الفـارس الثانى السير متمهلاً نحونا، جالساً على السـرج بانتصـاب شديد، ماداً ذراعيه إلى جانبيه كأنما يريد احتضاننا جميعاً أو الطيران عالياً نحو السماء.

أبـدأ فى الـركض بأسـرع مـا فى اسـتطاعتى، نعلاى يجرجرانى فى الأرض، قلبى يخفق.

مـن مسـافة مئة ميل عنه، هناك خبط حوافر خلفه وثلاثة جـنود مدرعون يعبرون عَدْوًا، يتسابقون باتجاه أجمة القصب التى قد اختفى فيها الآن الفارس الآخر.

أنضم إلى الحلقة من حول الرجل (أتعرف عليه، على الرغم مـن التغيير) الذى حدث والراية ترفرف بشجاعة فوق رأسه، يحدق بنظرات خالية من التعبير نحو البلدة. وهو مثبت بحبال إلى قـاعدة خشـبية متينة تمسكه منتصباً على سرجه. عموده الفقرى منتصب بقائم ويداه مربوطتان إلى قطعتين متعارضتين.

الذبـــاب يحوم وجهه، فكاه مكبلان تماماً، لحمه منتفخ، تفوح منه رائحة تبعث على الغثيان، لقد مضت أيام عدة على وفاته.

يتعـــلق طفل بيدى ويهمس، أهو بربرى يا عم؟. أرد عليه هامســـاً، لا. يســـتدير نحو الولد الذى يجاوره ويهمس، هل ترى، لقد قلت لك.

نظـــراً لعـــدم تهيؤ شخص آخر للقيام بالأمر، فأنا الشخص الـــذى يقع عليه نصيبه أن يلتقط الزمام المتجرجر وأتقدم هذه البشـــائر المرسلة من البرابرة عائداً عبر البوبات الكبيرة، ماراً بالحراس الصامتين، إلى ساحة الثكنات، والقيام هناك بفك إسار حاملها وإعداده للدفن.

الجـــنود الذيـــن انطـــلقوا خلف مرافقه الوحيد، سرعان ما يعـــودون. يتوجهون خبباً عبر الساحة إلى مبنى المحكمة التى يديـــر فيهـــا مانديل شؤونه ويختفون داخلها. وعندما يظهرون ثانية، يرفضون التحدث مع أحد ما.

لقـــد تـــأكدت هواجس الكارثة كافة. يستولى وللمرة الأولى عـــلى البـــلدة فـــزع حقيقى. المتاجر مزدحمة بمشترين يزايد بعضهم على بعض من أجل خزن الطعام، تحجز بعض الأسر نفســـها فى بيوتها، يجمعون الطيور البرية وحتى الخنازير فى الداخـــل معهـــم. المدرســـة أغـــلقت. أقاويل عن أن جمعاً من الـــبرابرة قـــد خيـــم على مبعد عدة أميال على ضفاف النهر

المتفحة، وأن هجوماً على البلدة على وشك الوقوع، تنتقل بسرعة من زاوية شارع إلى شارع. الأمر الذى لا يصدق قد وقع: الجيش الذى سار قدماً بسرور فائق قبل ثلاثة أشهر لن يعود أبداً.

البوابات الكبيرة أغلقت وزلجت. ألتمس من رئيس المراقبة أن يسمح لمجموعة الصيادين بالدخول. أقول، إنهم فى فزع على أرواحهم'. يدير ظهره لى دون أن يجيب. الجنود فوق رؤوسنا على المتاريس، الرجال الأربعون الواقفون بيننا وبين الفناء، يحدقون نحو الخارج فى طول البحيرة والصحراء وعرضهما.

عند مجيء الليل، وأنا فى طريقى إلى سقيفة مخزن الحبوب حيث ما أزال أنام، أجد طريقى مسدوداً. صف من عربات ذوات العجلتين تجرها الخيول التابعة لإدارة المؤونة الحربية تعبر على طول الممر. الأولى محملة، كما أميز، بأكياس من حبوب المخزن، البقية فارغة. يتبعها صف من الخيول، مسرجة مغطاة بالبطانيات، من حضائر الحرس، أستطيع التخمين أن كل حصان إما أنه قد تمت سرقته وإما أنه قد صودر لأغراض عسكرية، فى الأسابيع الماضية. تطلع الناس من بيوتها، مستيقظين على الجلبة، ويقفون جنباً إلى جنب بهدوء يراقبون مناورة الانسحاب الجلية هذه والتى وضعت خطتها قبل زمن طويل.

أطلب مقابلة مانديل، ولكن الحارس عند مبنى المحكمة متبلد مثل رفاقه.

مانديل فى الحقيقة ليس فى مبنى لمحكمة. أعود إلى الساحة فى الوقـت المناسب كى أسمع نهاية بيان يقرأ علناً باسم قيادة الإمبراطورية . الانسحاب كما يقول، هو إجراء وقتى . سنترك فى الخـلف قوة لتولى الأمر مؤقتاً . وهو يود أن يشكر الجميع على الضيافة لتى لا يمكن أن ينساها والتى أظهرت له؟

بيـنما يتحدث هو، واقفاً في إحدى العربات الفارغة محاطاً بجـنود يحمـلون مشاعل، يعود رجاله بثمار غاراتهم. يجاهد اثـنان لتحميل موقد من الحديد الصلب سرقة من منزل خال. يعـود آخـر مبتسماً بانتصار وهو يحمل ديكاً ودجاجة، الديك رائـع بـلونيه الأسـود والذهبى. يقبض عليهما من الأجنحة وأرجـلهما مشدودة، وأعينهما تتوهج شراسة. فى حين يمسك أحدهم ليحشرهما فى داخل الموقد. لعربة محملة عالياً بأكياس وبـراميل صـغيرة مـن مـتجر منهوب، بل وحتى بمنضدة وكرسـيين. يقومون بفرش سجادة ثقيلة حمراء فوق الحمل، ثم يـربطونه بحـبل من تحت. لا يصدر أى اعتراض من الناس الواقفيـن المراقـبين هـذا العمل لمنسق للغدر، ولكننى أشعر بموجات من غضب لا إرادى تجتاح كل جسدى.

العـربة الأخيـرة حملت. البوابات فتحت مزاليجها، يمتطى

الجـنود خيولهـم. أسـتطيع أن أسمع شخصاً فى مقدمة الرتل يجـادل مـانديل، وهو يقول، مجرد ساعة واحدة أو نحو ذلك، سيكونون جاهزين فى خلال ساعة . يجيب مانديل، لا جدال فى ذلـك، وتحمـل الريح بقية كلامه. يدفعنى جندى عن طريقه ويـرافق ثلاث نسوة محملات برزم ثقيلة إلى العربة الأخيرة. يصـعدون فوقها ويتخذون فيها أماكنهن، ممسكات ببراقع على وجوههـن. تحمل إحداهن فتاة صغيرة وتحطها فوق الأحمال. تطرقع الأسواط، يبدأ الرتل الحركة، تجهد الخيول نفسها، تصر عجلات العربات. يأتى فى مؤخرة الرتل رجلان يقودان قطيعاً من اثنى عشر خروفاً.

وبيـنما تمر الخراف، تزداد الدمدمة فى الحشد. يندفع شاب بعـنف خارجاً وهو يصيح ملوحاً: بتتشت الخراف فى الظلمة، وبزمجـرة يضـم الحشـد صـفوفه. تفرقع فى الحال، أولى الرصاصـات. مهرولاً بأسرع ما فى استطاعتى وسط عشرات مـن أنـاس آخرين صارخين مهرولين. لا أحتفظ إلا بصورة واحـدة لهـذا الهجوم العقيم: رجل متماسك بالأيدى مع إحدى نسـوة العـربة الأخيـرة، يمزق ملابسها، ترقب الطفلة الأمر بعينين مفتوحتين باتساع وإبهامها فى فمها. بعدئذ تصبح خالية ومظـلمة ثانية، تتدحرج العربة الأخيرة عبر البوابات، الحامية غادرت.

لمـا تبقى من الليل، تبقى البوابات مفتوحة، مجموعات من

عوائــل قليــلة، أغلبيتها على الأقدام مثقلة بأحمال ثقيلة، تهرع خلف الجنود.

وتتسل قبل الغسق، مجموعة الصيادين إلى الداخل، دون أن تواجــه مقاومة تذكر، وهى تحمل أطفالها المرضى وممتلكاتها التى تثير الشفقة وحزماً من أعمدتها وعيدان قصبها التى ستبدأ بها من جديد مهمة بناء بيوتها.

* * *

شقتى القديمة مفتوحة الباب. الهواء عفن فى داخلها. لم تنظف محــتوياتها مــن الغبار منذ زمن طويل. صناديق المعروضات – الأحجــار والبيوض والمصنوعات التى تعود لخرائب الصحراء – اخــتفت بأكمــلها. دفعــت قطــع الأثاث فى الغرفة الأمامية نحو الجــدران ورفعــت السجادة. غرفة الاستقبال الصغيرة، لم تمس، ولكن أغطية قطع الأثاث تحمل رائحة نتنة فاسدة.

فى غــرفة النوم، الشراشف قلبت جانباً بالحركة نفسها التى أســتخدمها أنا، وكأننى، شخصياً كنت نائماً هنا. رائحة منفرة تفوح من البياضات غير المغسولة.

المبولة فى غرفة النوم، تحت السرير، ممتلئة حتى نصفها. يوجــد فى خــزانة الملابس قميص ذو ياقة مجعدة وحلقة بنية تطوقهــا من الداخل وبقع صفراء تحت الإبطين. ملابسى كلها اختفت.

أجــرد الفــراش من الأغطية وأستلقى على المرتبة الجرداء، متوقعاً أن يزحف على إحساس بالقلق، شبح رجل آخر ما يزال متخــلفاً بيــن روائحه العطرة وفوضاه. ولكن ذلك الإحساس لا يأتى: الغرفة مألوفة كما كانت دائماً. وذراعاى على وجهى، أجد نفســى منساقاً إلى النوم. قد يكون الأمر حقيقة أن العالم كما هو حالــه الآن ليــس وهماً، ليس حلماً رديئاً. قد يحدث أننا نستيقظ عــلى تغييــره وأننا غير قادرين على نسيانه ولا على الاستغناء عــنه. ولكنى أجد الأمر صعباً كما فى السابق من أن أؤمن بأن الــنهاية وشــيكة. أعلم أنهم إن هجموا الآن فسأموت فى فراشى أحمــق وجاهلاً مثل طفل رضيع وسيكون الأمر أكثر ملاءمة أن قــبض على وأنا فى بيت المؤونة والملعقة فى يدى وفمى ملآن بــتين معلب مسروق من آخر قنينة على الرف: عندئذ قد يقطع رأســى ويرمى فوق الرؤوس المكومة خارجاً فى الساحة، وهى مــا تزال تحمل نظرة الألم ودهشة الشعور بالإثم، لغارة التاريخ هــذه عــلى الــزمن الساكن للواحات: لكل واحد نهايته الخاصة الأكــثر تطابقــاً معه. سيلقى القبض على بعض الأشخاص فى مخــابئ تحــت ســراديبهم وهم ممسكون بحاجياتهم الثمينة إلى صدورهم، وهو يغلقون أعينهم بشدة. بعضهم سوف يموت على الطــريق مغمــوراً بأولى ثلوج الشتاء. قلة منهم قد تموت وهى تناضــل مــع المذراة. بعد ذلك كله، سيمسح البرابرة مؤخراتهم بســجلات البلدة. وحتى النهاية لن نكون قد تعلمنا شيئاً. يبدو أن

هــناك فى دواخلنا جميعاً فى أعمق أعماقنا شيئاً ثابتاً عنيداً غير قــابل على التعلم. لا يؤمن أحد منا حقاً، على الرغم من الهياج العــاطفى فى الشوارع، بأن العالم ذا الحقائق الساكنة التى ولدنا فيه، هو على وشك الانطفاء. لا أحد يتقبل أن جيشاً استبدادياً قد سحق من قبل رجال يحملون أقواساً وسهاماً وبنادق صدئة قديمة ويعيشــون فى خيــام ولا يغتســلون أبداً ولا يستطيعون القراءة والكــتابة. ومن أنا كى أسخر من أوهام تمنح الحياة؟ هل هناك وسيلة أفضل لتمضية هذه الأيام الأخيرة من أن أحلم بمنفذ يحمل سيفاً سيقوم بتشتيت جيش الأعداء ويغفر لنا الخطايا لتى اقترفت مــن قــبل آخــرين بأســمائنا ويمنحنا فرصة ثانية لبناء جنتنا الأرضية؟ أتمدد على المرتبة الجرداء وأركز فى إعادة صورتى كســباح إلى لحيــاة، ســابحاً بضربات هادئة غير متعبة عبر واســطة الــزمن، واســطة كــثر قصوراً من الماء، من دون تموجات، شاملة، لا لون لها، لا رائحة، جافة مثل ورقة.

* * *

٦

ثمة فى صباحات بعض الأيام، آثار حوافر حديثة العهد فى الحقــول، بيــن الأجمات الممتدة فى غير انتظام تعلم آخر حد للأرض المحروثة، يشاهد المراقب شكلاً يقسم على أنه لم يكن هناك فى اليوم الذى مضى والذى اختفى فى يوم تال. لا تجرؤ مجموعة الصيادين على الخروج قبل شروق الشمس وقد تدنى محصولهم إلى حد كبير لأنهم لا يحضرون إلا بشق الأنفس.

فى غضون يومين من عمل مشترك بذلنا فيه جهدنا والبنادق عــلى جوانبـــنا، قمنا بحصاد الحقول القصبية، كل ما تبقى بعد الفيضان. المحصول أقل من أربعة أكواب فى اليوم لكل عائلة، ولكنه أفضل من لا شىء.

عـــلى الـــرغم مـــن أن الحصان الأعمى يستمر فى إدارة الـــدولاب الـــذى يمـــلأ الصفيحة بقرب شاطئ البحيرة ليروى بســاتين البلدة، فإننا نعلم أنه من الممكن قطع أنبوب الرى فى لحظة من الزمن وبدأنا فعلاً فى حفر آبار جديدة داخل البيوت. لقـــد قمت بتحريض زملائى من المواطنين على زرع الحدائق الخلفية التى تطل على مطابخهم، بجذور ستقاوم صقيع الشتاء. أقــول لهــم، علينا فوق كل شئ إيجاد وسائل للبقاء أحياء فى

الشتاء.سيرسلون إلينا نجدة فى الربيع، لا شك فى ذلك. بإمكاننا بعد أول ذوبان للثلوج أن نزرع دخناً ينضج فى ستين يوماً .

أغـلقت المدرســة وصـــار الأطفـــال يعملون فى الأجزاء الجنوبية الناتئة المالحة من البحيرة فى صيد سرطانات حمراء صـــغيرة توجد فى المياه الضحلة. نقوم نحن بتعريضها للدخان ورزمهـــا فى شـــرائح زنة الواحدة منها رطلاً واحداً. لها طعم دهـــنى ردىء. تتناوله اعتيادياً مجموعة الصيادين فقط، ولكن قـــبل انصـــراف الشـــتاء سنكون سعداء جداً أن امتلكنا جرذاناً وحشرات لنلتهمها.

عـــلى طول السور الشمالى قمنا بإسناد صف من الخوذ مع رمـــاح منتصبة إلى جوارها يمر طفل كل نصف ساعة بجانب الصف مزحزحاً بعض الشىء كل خوذة. وهكذا نأمل أن نخدع أعيـــن البرابرة الحادة. تتألف الحامية التى أورثها إيانا مانديل مـــن ثلاثـــة رجـــال. إنهم يتناوبون الوقوف عند الباب المغلق لـــلمحكمة، ولأن بقية سكان البلدة يتجاهلونهم، فإنهم قد انعزلوا عن الآخرين.

توليـــت أنـــا الإرشاد فى كل التدابير التى اتخذت من أجل الحفـــاظ علينا، دون أن يعترضنى أحد. لحيتى شذبت وارتديت ملابس نظيفة، واستعدت فى الحقيقة الإدارة القانونية التى كنت انقطعت عنها قبل عام مضى مع مجىء الحرس المدنى.

يتحتم علينا قطع حطب للوقود وخزنه، ولكننا لا نجد من يغامر بالذهاب إلى الغابة المزروعة بالشوندر فى موازاة النهر، حيث يقسم الصيادون على أنهم شاهدوا آثارا طرية لمخيم للبرابرة.

* * *

أصحو على طرق باب شقتى. إنه رجل يحمل قنديلاً، متقد الوجه بفعل الريح، هزيل منقطع الأنفاس، يرتدى معطف جندى يبدو واسعاً عليه. يحدق فى وجهى فى حيرة.

أقول، من أنت؟

أين الضابط المفوض للترخيص؟

يجيب لاهثاً محاولاً إلقاء نظرة من فوق كتفي.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، فتحت البوابات للسماح بدخول عربة العميد جول، التى تقف ومقدمتها تستقر على الأرض وسط الساحة. عدد من الرجال يجتمعون فى جانبها اتقاء لـلريح القوية رجال المراقبة، من فوق السور يتطلعون نحو الأسفل.

يقول زائرى، نحن فى حاجة إلى طعام، خيول قوية، علف . يتقدم إلى الأمام، يفتح باب العربة، يتحدث: سيدى، الضابط

المعـوض غيــر موجود. لقد غادر . عند النافذة، وفى ضياء القمــر، ألمــح جول نفسه. يرانى هو أيضاً: يغلق الباب بقوة. أســمع صوت المزلاج فى الداخل. أتمكن، متطلعاً من الجانب الآخــر لــلزجاج، مــن أن أستكشف تفاصيله وهو يجلس فى الزاوية المظلمة الأبعد، محوّلاً بقوة، أطرق على الزجاج، لكنه لا يولينى اهتماماً. يقوم تابعه، بعدئذ بإبعادى عنه.

حجارة تستقر على سقف العربة، منطلقة من الظلام.

حــارس آخر لجول يأتى مهرولاً. يلهث ويقول، الإسطبلات فارغــة، لقد أخذوا كل ما فيها . الرجل الذى فك أعنة عدد من الخيــول الــتى تقطر عرقاً، يبدأ فى اللعن، حجارة ثانية لكنها تخطئ العربة وتكاد تضربنى. لقد قذفت من فوق الأسوار.

أقــول، أصــغ إلى. إنــك تشعر بالبرد وبالتعب. دع الجياد تسترح، تعال إلى الداخل، تناول شيئاً ما، احك لنا قصتك. نحن نتــلقى أخــباراً منذ مغادرتك. إن أراد ذلك الرجل المجنون أن يجلس فى عربته طوال الليل، دعه يجلس .

بالكــاد يصغون إلى، رجال فى حالة جوع شديدة، متعبون، أدوا أكثر من واجبهم فى سحب رجل الشرطة هذا إلى السلامة مــن بين قبضة البرابرة. يتهامسون فيما بينهم، وقد بدأوا فعلاً بإعادة شد زوج من العدة البالية لخيولهم.

أتطلع عبر الزجاج إلى الشيء الضبابي الباهت عبر الظلمة الـذي هـو العميد جول. يرفرف معطفي الفضفاض، أرتجف بـرداً، وبسبب توتر غضبي المكبوت أيضاً. حافز يسري في داخـلي أن أكسر الزجاج، أن أصل إلى الداخل وأسحب الرجل خارجـاً عـبر الفتحة المثلومة وأن أحس بجسده معلقاً وممزقاً عـلى حافات الزجاج، أن أقذف به أرضاً وأرفس جسده حتى يصبح عجينة.

وكأنمـا أحس بهذا التدفق المهلك، يدير وجهه على محض نحـوي. ثم ينحرف جانباً في جلسته كي يتمكن من النظر إلى مـن خـلال الزجاج. وجهه مجرد من أي معنى، باهت ربما بتأثير ضياء القمر الأزرق، أو ربما بفعل تعب جسماني. أحدق في صـدغيه المـيرتفعين الشـاحبين. ذكـريات عن ثديي أمه الناعمين، عن الحبل في يده لأول طائرة ورقية جعلها تحلق في حياتـه، وفضـلاً عـن تلك الأمور التي تتعلق بصميم طبيعته الوحشية التي أكرهه من أجلها، المستترة المحشورة فيه.

يتطلع إلى الخارج نحوي، تبحث عيناه عن وجهي. العدستان السـوداوان قد اختفتا، أيضطر هو أيضاً إلى كتم حافز غضب مكـتوم يدفعـه إلى الوصـول إليّ والقـبض عليّ بكلتا يديه، ويعميني بالشظايا؟

لـدى درس له فكـرت به كثيراً. أغمغم بالكلمـات وأرقبه

وهــو يقــرأها من شفتى، أقول: الجريمة الكامنة في دواخلنا، يتوجب علينا إنزالها على أنفسنا . أومئ وأومئ دافعاً بالرسالة كى تصــل الهــدف. أقول: ليس على آخرين :أعيد الكلمات، مشيراً إلى صدره. يرقب شفتى، تتحرك شفتاه الرفيعتان مقلدة، أو ربمــا فى ســخرية. حجارة أخرى، أثقل وزناً، أجرة ربما، تضــرب العــربة بطقطقة مدوية. يجفل هو، ترتج الخيول فى أعنتها.

يأتى أحدهم مهرولاً، يصيح، أذهب! يدفعنى جانباً، يضرب على باب العربة. يداه مملوءتان بأرغفة خبز. يصرخ، يجب أن نذهب! . يفتح العميد جول المزلاج ويسقط الأرغفة إلى الداخل. ينغـلق الـباب بعــنف، يصيح، أسرع! . تبدأ العربة بالحركة، ونوابضها تصرّ.

أقــبض على ذراع الرجل، أصرخ، أنتظر! لن ادعك تذهب حــتى أعــرف مــا حدث! يصيح، ضارباً على قبضتى، ألا تســتطيع أن تــرى؟ . يــداى مــا تزالان ضعيفتان: من أجل الإمساك به كان على أن أحيطه بهما. ألهث، أخبرنى، وبإمكانك الذهاب بعدئذ! .

تقترب العربة من البوابة. الرجلان الممتطيان قد انتهيا من اجــتيازها، الــرجال الآخــرون يهرولون فى الخلف. أحجار تطقطــق عــلى العــربة مندفعة من الظلام، تتهال الصرخات

واللعنات عليهم كالمطر.

يقول وهو يقاوم عبثاً'ماذا تريد أن تعرف؟ .

أين الآخرون؟ .

ذهــبوا، تشتتوا فى كل مكان. لا أعرف مكانهم. كان علينا أن نعــثر على طريقنا. كان من المستحيل أن نبقى معاً. وفى الوقــت الــذى يخــتفى رفاقه فى الليل، يصارع هو بقوة أشد. دعــنى أذهــب! إنه ليس أقوى من طفل. ستذهب فى خلال دقيقــة واحــدة. كيف يمكن أن يحدث أن البرابرة قد فعلوا هذا بكم؟ .

لقــد كــنا نــتجمد فى الجــبال! تعرضنا لجوع شديد فى الصــحراء! لمــاذا لم يخبرنا أحد بأن الأمر سيكون كذلك؟ لم نهزم – لقد قادونا إلى الصحراء ثم اختفوا بعد ذلك!

من قادكم؟

هم – البرابرة. لقد غرروا بنا مراراً وتكراراً. لم نقدر أبداً الإمســاك بهم. التقطوا المجموعات المتناثرة فى غير انتظام، قطعوا أعنة خيولنا فى الليل، ولم يعد بمقدورنا الاستفادة منها!

هكذا استسلمتم وعدتم إلى البلدة؟

نعم!

هل تتوقع منى أن أصدق ذلك؟

يحدق فى بيأس، يصيح، وما الذى يضطرنى إلى الكذب؟ لا أريد أن أتخلف هنا. ذلك كل ما لدى! يحرر نفسه منى، يحمى رأسه بيديه، يهرع عبر البوابة ونحو الظلمة.

توقف الحفر فى البئر الثالثة. بعض الحفارين ذهبوا تواً إلى منازلهم، يقف آخرون حولها منتظرين الأوامر.

أقول، ما المشكلة؟

يشيرون إلى العظام المكومة على أرض طرية: عظام طفل.

أقول،'لا بد أن قبراً كان هنا، موضع غريب لقبر . نحن فى الأرض المفروزة الخالية خلف الثكنات، ما بين الثكنات والسور الجـنوبى. العظام قديمة، إذ إنها امتصت لون الطمى الأحمر . مـــاذا تـــريد أن نفعل؟ بإمكاننا أن نبدأ الحفر ثانية فى الناحية الأقرب إلى السور .

يســـاعدونى فى تسلق الحفرة. واقفاً فى الحفرة، بعمق يصل صـــدرى، أنـــبش بأظافـــرى مبعداً التراب من حول عظم فك مطمـــور فى الجدار. أقول، ها هى الجمجمة، لا، ليست هى، الجمجمة قد أخرجت من قبل، يعرضونها على .

يقول ملاحظ العمال، انظر إلى ما تحت قدميك .

الظلمة الشديدة لا تساعد على الرؤية، ولكننى عندما أضرب بالمعول، أصطدم بشىء صلب، تقول أصابعى إنه عظم.

يقـــول، إنهـــا لـــم تدفـــن جيداً . يجلس القرفصاء عند حافة الحفرة . إنها مرمية كيفما اتفق. بعضها على بعض .

أقول، نعم، نحن لا نقدر على الحفر هنا، هل نقدر؟'

يقول، لا'.

علينا ملؤها والبدء من موضع أقرب إلى الجدار .

إنـــه صامت. يمد يداً لى ويساعدنى على الخروج. لا يتفوه الواقفـــون بشيء أيضاً. يتوجب على إعادة العظام إلى مكانها، وأن أجـــرف الدفعة الأولى من التراب قبل أن يلتقط كل واحد مسحاته.

* * *

فى الحـــلم أقـــف ثانية فى الحفرة. الأرض رطبة، مظلمة، يتســـرب الماء منها، تخوض قدماى فى الوحل، يتطلب رفعهما جهداً متأنياً.

أتـــلمس طريقى تحت السطح، بحثاً عن العظام، تمسك يداى بطـــرف كيـــس مـــن القـــنب، أسود، متعفن، يتفتت تماماً بين أصابعى. أغوص عائداً إلى الوحل، مذراة ملتوية وملونة، طائر ميـــت، بـــبغاء: أمســـك بها من ذيلها، ريشها الملطخ بالطين يتهاوى، جـــناحاها المشبعان بالماء يسقطان، محجرا عينيه فارغـــان. عـــندما أطلقها تسقط على السطح من غير أن تثير

طرطشــة ماء. ماء مسموم أفكر بالأمر، يجب أن أكون حذراً في عدم الشرب من هنا. يجب أن لا ألمس فمي بيدي اليمنى .

* * *

لم أنم مع امرأة منذ عودتي من الصحراء. والآن وفي أكثر الأوقات غير الملائمة، أحس بذكورتي تؤكد نفسها. أنام بصورة سـيئة وأصـحو في الصباح بانتصاب عنيد يتزايد مثل غصن يخــرج من بين تقاطع فخذي. لا علاقة للأمر بالرغبة. انتظر، وأنا نائم في فراشي المجعد زواله. أحاول أن أستحضر صورة الفــتاة الــتي نامت معي هنا ليلة بعد ليلة. أراها واقفة، حافية القدمين في قميصها الداخلي، قدم في الطست، ومنتظرة أن أقوم بغسلها، تضغط يدها على كتفي. أرغو الصابون على سمانتها القصــيرة الممتلــئة. تنزع القميص، وتسحبه من فوق رأسها. أرغو فخذيها، ثم أضع الصابون جانباً، أحتضن وركها، أدعك وجــهي ببطــنها. أستطيع شم الصابون. شاعراً بدفء الماء، بضغط يديها.

أخــرج مــن أعمــاق تلك الرغبة إلى لمس نفسي. لا وثبة اســتجابة هناك. إنه مثل لمس رسغي: جزء مني ولكنه صلب، متبلد، امتداد لا حياة خاصة به. أحاول أن أنجح في المحاولة: لا جدوى، فلا إحساس هناك، أقول لنفسي، إنني مجهد .

أجـــلس لمـــدة ســـاعة على كرسى ذى ذراعين منتظراً أن يتضاءل قضيب الدم هذا. فى الوقت المناسب يفعل. أرتدى بعد ذلك ملابسى وأغادر الغرفة.

يعـــاودنى الأمـــر فى الـــليل: يبرز سهم فىّ، مشيراً إلى لا مكـــان. أحـــاول ثانية أن أطعمه بالصور، لكننى لا أتبين أى استجابة للحياة.

يقـــول العشاب، جرب عفن الخبز ولب عشبة الحليب، وقد يكـــون له مفعـــول. إن لـــم يؤثـــر، عد إلىّ، هاك بعض جذر الحليب، اطحنه وامزجه حتى يصبح معجوناً ثم أضف إليه عفن الخـــبز وبعض الماء الدافئ. تناول معلقتين مملوءتين بعد كل وجـــبة. إنه ذو مذاق غير محبب، مر جداً، ولكن كن واثقاً من أنه لن يسبب لك الأذى مطلقاً .

أناولـــه أجره فضة. لا أحد غير الأطفال يقبلون تسلم نقود نحاسية اليوم.

يقول، ولكن قل لى، لماذا رجل ذو صحية جيدة مثلك، يريد أن يقتل رغباته؟

الأمر لا علاقة له بالرغبة، أبى، إنه تهيج فقط، تصلب مثل الروماتزم . يبتسم، أبتسم له بدورى.

أقول، لابد أن هذا الدكان هو الوحيد الذى لم ينهب . إنه ليس

بدكان، مجرد تجويف فى جدار، ولجهة تحت ظلّه، مع رفوف لمرطبات يعلوها الغبار، وجذور وحزم من أوراق يابسة تتدلى مـن كلابـات على الجدار، الأدوية التى عالج بها البلدة طيلة خمسين عاماً.

نعـم، أنهم يزعجوننى. اقترحوا أن أترك وشأنى. البرابرة سـوف يقلون خصيتيك ويأكلونهما - ذلك ما قالوه، تلك كانت كلماتهم. قلت، لقد ولدت هنا وسأموت هنا، لست بمغادر. وقد رحلوا، فالأمر أفضل من دونهم. هذا ما أقول.

نعم.

جرب جذر الحليب، عد إن لم ينفع.

أشرب الدواء المر المستحضر وآكل الكميات التى أقدر على تـناولها من الخس ما دام الناس يقولون إن الخس يقضي على فحولـة المـرء. ولكننى أفعل ذلك، نصف راغب، واعياً أننى أسيء تفسير العلامات.

أقـوم أيضـاً بزيارة مى، الفندق قد أغلق أبوابه، بسبب قلة الـزبائن، وهى الآن لمساعدة أمها فى الثكنات. أعثر عليها فى المطـبخ وهى تضع طفلها فى مهده بالقرب من الموقد، تقول، أحب الموقد الكبير الذى لديكم، إنه يحتفظ بدفئه لساعات. دفـء لطيـف جـداً. تحضر الشاى، نجلس معاً عند المائدة، نرقب

توهج الفحم من خلال الحاجز المشبك. تقول، أود لو كان لدى شـــىء لذيــذ كى أقدمه لك، ولكن لجنود قاموا بتنظيف غرفة المخزن، لم يتبق شئ تقريباً.

أقول: أريد منك المجيء معى إلى الطابق العلوى

هل بإمكانك ترك الطفل هنا؟

نحـــن صديقان قديمان. اعتادت قبل أعوام، قبل أن تتزوج ثانية، أن تزورنى فى شقتى، فى أوقات العصر.

تقول، أفضل أن لا أتركه، فى حالة استيقاظه وحيداً . وهكذا أنـــتظر بينما تقوم هى بلف الطفل، ثم أتبعها صاعداً السلم؟ ما تـــزال امرأة شابة، بجسد ثقيل وفخذين منتشرين لا شكل لهما. أحـــاول أن أتذكـــر كيف كان الأمر معها، ولكننى لا أقدر. كل النساء أمتعننى فى تلك الأيام.

تضع الطفل على الوســـادة فى إحدى الزوايا، تدندن له حتى يستغرق فى النوم ثانية.

أقـــول: إنـــه لمجرد ليلة واحدة أو اثنتين، كل شئ آت إلى نهايـــة. عليـــنا أن نعيـــش كما نقدر . تسقط سروالها الداخلى، تدوس عليه مثل حصان، وتأتى إلي فى ثوبها الفضفاض. أطفئ المصباح، كلماتى قد تركتنى مكتئبا.

عندما أدخل بها، تتنهد. أدعك خدى بخدها. تعثر يدى على

صدرها، تطبق هي بيدها عليه، تداعبه، تدفعه جانباً. تقول، إنها متوجعة بعض الشيء، تهمس، من الطفل .

إنـــنى مـــا أزال أبحث عن شيء أريد أن أقوله عندما أحس قـــدوم الذروة، بعيدة جداً، خفيفة جداً، مثل ارتعاشة أرض في جزء آخر من العالم هذا هو طفلك الرابع، أليس كذلك؟ ننام معاً جنباً إلى جنب، تحت الأغطية.

نعم، الرابع، أحدهم مات .

'والأب؟ هل يقدم مساعدة؟

'لقد ترك لى بعض المال. كان مع الجيش .

أنا متأكد من أنه سيعود'.

أحس بوزنها الرابط الجأش فى جوارى. أقول، لقد أصبحت جـــد متعلقاً بابنك الأكبر، لقد اعتاد أن يجلب لى وجباتى عندما كنت سجيناً .

نستلقى مدة من الوقت فى صمت. يبدأ بعدها رأسى بالدوار. أبـــزغ ثانية من النوم فى الوقت المناسب كى أسمع ذيل نهاية خشخشة فى حنجرتى، شخير رجل مسن.

تجلس هى. تقول، لابد أن أذهب. لا أستطيع أن أنام فى مثل هـــذه الغرف الجرداء، أسمع طقطقة طوال الليل. أرقب شكلها

المعـتم يـتحرك بيـنما هى تـرتدى ملابسها وتلتقط الطفل. وتقـول، هل أستطيع أن أضىء المصباح. أخشى السقوط على السلم. واصل نومك. سأجلب لك الإفطار فى الصباح، عصيدة دخن إن لا تمانع .

تقول، أحببتها كثيراً جداً، فعلنا كلنا ذلك. إنها لم تتذمر قط. لقـد نفذت باستمرار ما طلب منها، على الرغم من معرفتى أن قدمها كانت تسبب لها الأذى. كانت ودودة. كان هناك باستمرار شئ يثير الضحك فى حال وجودها بيننا .

مـرة ثانية، متبلد الأحاسيس كقطعة من خشب. تبذل جهداً مـعى: تـربت يدها الكبيرة على ظهرى، تمسك صرتى. تأتى الـذروة: مثل شرارة ضربت مكاناً فوق البحر ثم ضاعت فى الحال.

يبدأ الطفل فى البكاء. تريح نفسها منى وتنهض كبيرة الحجم وعاريـة، تسـير أمـامى جيئة وذهاباً عبر رقعة ضوء القمر والطفل فوق كتفها، مربتة إياه، مدندنة، تهمس، سينام فى دقيقة واحدة أنا شخصياً أكون نصف نائم أحس بجسدها البارد يستقر فى الفراش بجوارى ثانية، تمرغ شفتيها فى ذراعى.

* * *

تقول، لا أريد أن أفكر بالبرابرة، الحياة أقصر من تمضيتها

في القلق حول المستقبل . ليس لى ما أقول.

تقـــول،'أنا لا أجعلك سعيداً. أعرف أنك لا تتمتع معى. إنك دائماً فى مكان آخر .

أنتظر كلماتها التالية.

'لقد أخبرتنى هى الشيء نفسه. قالت إنك فى مكان آخر. لم تستطع أن تفهمك لم تعرف ماذا كنت تريد منها .

'لم اكن أعرف بأنك وهى كنتما على علاقة حميمة .

كـــنت دائماً هنا، الطابق السفلى. تحدثنا بعضنا لبعض عما كان يدور فى ذهنينا. كانت أحيانا تتمنى أن تبكى وتبكى. أنت جعلتها تعيسة جداً. هل عرفت ذلك؟

إنها تفتح باباً تهب من خلاله رياح يأس مطلق.

أنــــت لا تفهميــــن، أقول ذلك بصوت مبحوح. تهز كتفيها. أواصـــل: هناك جانب كامل للقصة لا تعرفينه. لا أريد التحث عنه الآن .

يصـــمت كلانـــا، نتأمل أفكارنا عن الفتاة التى تنام فى هذه الليلة فى مكان بعيد تحت النجوم.

أقـــول، ربما عندما يأتى البرابرة علي خيولهم إلينا، ستأتى راكبة معهم . أتخيلها تسير بالحصان خبباً عبر المدخل المفتوح

على رأس مجموعة من الفرسان، منتصبة على السرج، عيناها تـــبرقان، هى الســـابقة، المرشدة، تدل رفاقها. إلى مواقع هذه البلدة التى عاشت فيها ذات مرة.

سيكون كل شىء، بعدئذ على أساس جديد .

نتمدد فى لعتمة ونفكر.

تقول، إننى خائفة فى التفكير فى ما سيجرى لنا. أحاول أن أرجـــو الأفضل وأن أعيش من يوم إلى يوم. ولكننى فجأة أجد نفســـى أحيانـــاً متخيلة ما هو ممكن أن يحدث، وأحس بالشلل فزعاً. لا أعرف ما الذى أفعله قط. لا أقدر على التفكير إلا فى الأطفال. ما الذى سيحدث للأطفال؟ تجلس فى الفراش ما الذى سيحدث للأطفال؟ تسأل بحدة.

أقـــول لهـــا، إنهم لن يؤذوا الأطفال. لن يؤذوا أحداً . أربت عـــلى شـــعرها، أهدئها، أعانقها بشدة، حتى يحين وقت إطعام الطفل ثانية.

* * *

إنها تنام بصورة أفضل فى الطابق الأسفل، كما تقول. تحس بأنها أكثر أماناً عندما تصحو وتجد وهج الفحم فى الموقد. تحب كذلك أن ينام الطفل معها فى الفراش. وسيكون من الأفضل أن لا تكشف والدتها أين تمضى لياليها.

أحس أيضاً أن الأمر كان خطأً ولا أعود إلى زيارتها مجدداً، أفتقد وأنا نائم منفرداً، رائحة الزعتر والبصل على أطراف أصابعها. لأمسية أو اثنتين أعانى حزناً هادئاً لدنا قبل أن أبدأ بالنسيان.

* * *

أقف فى الفضاء المكشوف منتظراً قدوم العاصفة. بدأت السماء فى الشحوب حتى تغدو الآن بيضاء كالعظم مع تدرج من القرنفلى يتموج فى الشمال. يتلألأ قرميد الأسقف الأحمر. الهواء يزداد إشراقا. تضىء المدينة بلا ظلال، غامضة جميلة فى هذه اللحظات الأخيرة.

أصعد السور بين الدمى المسلحة، الناس واقفون يحدقون بعيداً نحو الأفق حيث سحابة كبيرة من تراب ورمل بدأت قبل قليل فى الفوران. لا يتكلم أحد منهم.

الشمس تغدو نحاسية. الزوارق كافة قد غادرت البحيرة، وتوقفت الطيور عن الغناء. هناك فاصل من الصمت المطبق المطبق. ثم تنطلق الرياح.

فى حمى منازلهم مع غلق النوافذ بالرتاج ووضع دعامات خلف الأبواب، يبدأ الآن غبار رمادى ناعم فى التساقط منخولاً عبر السقف والتسقيفة ليستقر على سطح غير مغطى، مشكلاً

طبقة رقيقة على ماء الشرب، يحتك بأسناننا، نجلس مفكرين فى أنــدد لنا من مخلوقات خارج لجدران، فى الخلاء، الذين فى أوقــات كهــذه لا يجــدون ملاذاً لهم غير أن يديروا ظهورهم للرياح وأن يتحملوا.

* * *

فى الأمســيات، فى الساعة و الاثنتين التى أتمكن خلالهما مــن الجــلوس بالقــرب من المدفأة قبل أن تنتهى حصتى من الحطــب ويــتوجب عــلى التســلل إلى الفراش، أشغل نفسى بهوايــاتى القديمة، مصلحاً قدر الإمكان صناديق الحجارة التى وجدتها محطمة ومرمية خارجاً فى حدائق مبنى المحكمة، ألهو مجــدداً فى كشف معانى الكتابة المنقرضة على شرائح خشب الحور.

يــبدو الأمر صحيحاً، مثل إشارة أولئك الناس الذين عاشوا فى خــرائب الصــحراء، يتحــتم علــينا أيضاً وضع سجلات للاستيطان كى نترك للأجيال القادمة، تدفن تحت أسوار بلدتنا، ومــن أجل كتابة مثل هذا التاريخ، لن يكون هناك من هو أكثر صــلاحية من قاضينا الأخير. ولكننى عندما أجلس على مائدة الكــتابة، ملفوفاً ضد البرد فى فروة جلد الدب القديمة الخاصة بى، مع شمعة واحدة (لأن الشحم الحيونى متعفن أيضاً) وعند مــرفقى كومــة من وثائق صفر، فما أجده عندما أبدأ بالكتابة

ليست حوليات تاريخ القاعدة الأمامية للإمبراطورية ولا سجلاً يبين كيف أمضى سكان تلك القاعدة الأمامية عامهم الأخير فى تنظيم أنفسهم بينما هم قابعون فى انتظار البرابرة.

أكتب، لا أحد زار هذه الواحات مرة واحدة وعجز عن الوقوع فى سحر الحياة هنا. عشنا فى زمن كل مواسم: الحصاد، هجرة الطيور المائية. عشنا من دون أن يفصل بيننا وبين النجوم شىء ما. كان بإمكاننا تقديم أى تنازل، لو كنا قد عرفنا فقط ما هو، كى نواصل الحياة هنا. كانت البلدة جنة على الأرض.

أظل مدة طويلة من الزمن احدق فى البيّنة التى كتبتها. سيكون مخيباً للآمال أن تكون شرائح خشب الحور التى أمضت زمناً طويلاً منكبًّا عليها تحتوى رسالة مراوغة، مريبة، وتستحق التوبيخ، مثل هذه.

أفكر ربما فى نهاية الشتاء، عندما يقرصنا الجوع بشكل حقيقى، عندما نحس بالبرد والجوع الشديدين، أو عندما يكون البرابرة حقاً عند البوابة، ربما آنذاك، سأتخلى عن أسلوب كتابة موظف مدني ذى طموحات أدبية وأبدأ فى سرد الحقيقة.

أفكر: أردت أن أعيش خارج التاريخ. أردت أن أعيش خارج التاريخ الذى تفرضه إمبراطورية على مواطنيها الخاسرين. لم أرغبه قط للبرابرة من أن يكون عليهم لزاماً

تحمل مسؤولية تاريخ إمبراطورية.

كيف يمكنني أن أصدق ذلك، إنه مصدر للعار؟

أفكـــر: لقــد عشت عبر عام زاخر بالأحداث، ومع ذلك لم اســتنتج منه شيئاً اكثر مما يستنتجه طفل في قماط. أنا من بين كل أبناء هذه البلدة، الشخص الأقل صلاحية لكتابة المذكرات. الحداد أفضل مني بصرخات غضبه وتوجعه.

أفكـــر: ولكن عندما يتذوق البرابرة طعم الخبز، خبز طازج ومـــربى الـــتوت، خبز ومربى المشمش، فإن أساليبنا هي التي ستستهويهم. سيكتشفون أنهم غير قادرين على العيش من غير مهـــارات رجالـــنا الذي يعرفون كيف يجعلون نباتاتنا المنتجة للحـــبوب ترتفع عالياً، حبوب المحيط الهادي، ومن غير براعة النساء من ذا لذي يعرف كيف يتعامل مع فواكهنا العذبة؟

أفكـــر: عـــندما يأتي يوم ما ويبحث الناس حول الخرائب، ســـيكونون أكـــثر استمتاعاً بآثار الصحراء من أي شيء آخر أتـــركه خـــلفي. وحقاً كذلك. (وهكذا أقضي أمسية في تغطية الشـــرائح واحـــدة بعد أخرى بطبقة من زيت بذر الكتان وألفها بقماش زيتي. وعندما ستهدأ العاصفة، أعد نفسي، سوف أذهب إلى الخارج وأدفنها حيثما وجدتها).

أفكر: كان هناك شيء يتفرس في وجهي وما زالت لا أراه.

* * *

الريح تلاشت، تبدأ الآن رقائق الثلج تعوم نازلة، أول سقوط ثلج لهذا العام، مغطياً قرميد الأسطح بالبياض. أقف طوال الصباح عند النافذة، أرقب سقوط الثلج. عندما أجتاز ساحة التكنات أجد أن ارتفاع الثلج قد أصبح حتى الآن عدة انجات وأن خطوات قدمي تسحقه بخفة غريبة.

في وسط الساحة أطفال يلعبون ويقيمون رجل ثلج. حذراً ألا أزعجهم، لولا إحساسي بسعادة يتعذر تبريرها، أقترب منهم عبر الثلج.

إنهم غير منزعجين، ولديهم ما يشغلهم عن أن يلقوا عليّ نظرة عابرة. لقد أكملوا الجسد المدور الضخم، وهم الآن يدحرجون كرة الرأس.

يقول الطفل الذي هو قائدهم، ليجلب لي أحدكم أشياء للفم والأنف والعينين .

يخطر ببالي أن رجل الثلج سيكون في حاجة أيضاً إلى ذراعين، إلا أنني لا أريد أن أتدخل.

يضعون الرأس على الكتفين ويملأون الفراغات بحصى للعينين، للأذنين، الأنف والفم. ويتوجه واحد منهم بقبعته.

إنه ليس برجل سيئ.

هذا ليس هو المشهد الذي حلمت به. مثل أشياء كثيرة أخرى

فى هذه الأيام. أتركه وأنا أحس بالبلادة، مثل رجل ضل طريقه مـــنذ بعيـــد، إلا أنه يصر على المضى فى طريق طويل قد لا يؤدى إلى أى مكان.

* * *

كوتزى J.M. Coetzee

ولـد جى. أم. كوتـزى فى كيب تاون، جنوب أفريقيا، عام ١٩٤٠. تـلقى تعـليمه فى جـنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

يحاضـر حاليا فى جامعة كيب تاون بالإنكليزية (علم اللغة والأدب).

له عدد من الروايات المطبوعة إضافة إلى ترجمته لعدد من الدراسات اللغوية والمقالات النقدية.

من رواياته:

١- حياة وأحوال مايكل ك The Life & Times of Michaıl k

٢- بلاد الغسق (١٩٧٤) Dusklands

٣- فى قلب الوطن (١٩٧٧) In the Heart of the Country

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا
- جائزة CNA

٤- فى انتظار البرابرة Waiting For The Barbarians

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريفيا
- جائزة جودفرى
- جائزة CNA

- نشرت فى بنغوين ١٩٨٠
- أعيد طبعها فى الأعوام ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥
- جائزة البوكرز ١٩٨٣

أحدث رواياته:

٥- خزى Disgrace

ثالث:

- جائزة البوكرز ١٩٩٩
- جائزة كتاب رابطة الكومنولث للأدب المكتوب بالإنكليزية (نيسان ٢٠٠٠)

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت . أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت . عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد/إبراهيم فتحي/محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف . فاين	ت . أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت . محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت . ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	د ريو بيانويبا وخ م بينياليستي	ت محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج مايكل والتون	ت محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف . محمد الجوهري
٦٢ – لذة النص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند رسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند رسل	ت . رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدي أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوڤا	ت . حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت . أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت . محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت . أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت . محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبــة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة و الجريمة	فرنسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت . سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت . نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة و الجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت . منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت . لميس النقاش
١١٩ – النساء و الأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولاى الكسندر وفنادوليينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جرى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت . لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٢٥ – المختار من نقد ت.س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى موريه	ت . كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	ڤيلينا تارونى	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٢ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدر	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى انبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	إليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم المنيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبد الأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة — و. ب. ييتس — ت: ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما — رينيه چيلسون — ت: فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالة لا تنام — هانز إيندورفر — ت: دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم — توماس تومسن — ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل — ميخائيل أنوود — ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة — بزرج علوي — ت: علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب — ألفين كرنان — ت: بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة — پول دي مان — ت: سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس — كونفوشيوس — ت: محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال — الحاج أبو بكر إمام — ت: مصطفى حجازي السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك — زين العابدين المراغي — ت: محمود سلامة علاوي
١٩٣ – عامل المنجم — بيتر أبراهامز — ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي — مجموعة من النقاد — ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤ — إسماعيل فصيح — ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة — فالنتين راسبوتين — ت: أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق — شمس العلماء شبلي النعماني — ت: جلال السعيد الحفناوي
١٩٨ – الاتصال الجماهيري — إدوين إمري وآخرون — ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية — يعقوب لانداوي — ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية — جيرمي سيبروك — ت: فخري لبيب
٢٠١ – الجانب الديني للفلسفة — جوزايا رويس — ت: أحمد الأنصاري
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤ — رينيه ويليك — ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية — ألطاف حسين حالي — ت: جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم — زالمان شازار — ت: أحمد محمود هويدي
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات — لويجي لوقا كافاللي – سفورز — ت: أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً — جيمس جلايك — ت: علي يوسف علي
٢٠٧ – ليل إفريقي — رامون خوتاسندير — ت: محمد أبو العطا عبد الرءوف
٢٠٨ – شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي — دان أوريان — ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح — مجموعة من المؤلفين — ت: أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائي — سنائي الغزنوي — ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير — جوناثان كلر — ت: محمود حمدي عبد الغني
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان — مرزبان بن رستم بن شروين — ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر — ريمون فلاور — ت: سيد أحمد علي الناصري
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع — أنتوني جيدنز — ت: محمد محمود محي الدين
٢١٥ – سياحتنامه إبراهيم بيك جـ٢ — زين العابدين المراغي — ت: محمود سلامة علاوي
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم — مجموعة من المؤلفين — ت: أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية — جون بايلس وستيف سميث — ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا — خوليو كورتازان — ت: علي إبراهيم علي منوفي

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – النهاية في الكون	باري ماركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ – شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ – العلم في مجتمع حر	بول فيرابند	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربرت لورنس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ – المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ – الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس التبريزي	جلال الدين مولوي رومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩ – العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – في انتظار البرابرة	ج. م. كويتزي	ت : ابتسام عبد الله سعيد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٠٤٧ / ٢٠٠١

Waiting for the Barbarians

By J.M.Coetzee